

مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة كلية
اللغة العربية بإيتاي البارود جامعة الأزهر
إعداد وإشراف
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
رئيس قسم الأدب والنقد



مجلة كلية اللغة العربية بدمهور

إشراف

أ.د. جبر الدين ببيع محرم
عميد الكلية

العدد الثالث

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الطباعة الحديثة
٣ درتة، أسيوط، أسيوط، القاهرة

مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة كلية

اللغة العربية بإيتاي البارود - جامعة الأزهر

إعداد وإشراف

أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب

رئيس قسم الأدب والنقد



جامعة الأزهر

مجلة

كلية اللغة العربية

بدمهور

أشراف

أ.د. عبد الله ربيع محمد

لجنة المجلة

أ.د. السَّيِّد محمد أبو سنين

أ.د. عبد الفتاح أبو الفتوح

العدد الثالث

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الطباعة الحديثة

٢ طريق الأنبار بالأزهر - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

اللهم أخلص أعمالنا لوجهك ونور لنا طريق رضاك .

لك الحمد ربنا حمداً يكافى . مزيدك ، ويعادل توألى نعمك ، وتتابع
أفضالك ، على نبيك وحبيبك سيدنا ومولانا محمد أزكى الصلوات ، وأتم
البركات ، وجزى الله آله وأصحابه وأتباعه بفضله عنا ما يستحقون من
تقدير وتكريم .

وبعد . . .

نحن بأحبه العربية وحصنها بشمال مصر وغربها يصدر بعون الله وفضله
العدد الثالث من مجلتنا الحبيبة مجلة كلية اللغة العربية بدمهور فيسكون كما
ذكرنا في مقدمة العدد الثانى رد فالسابقه ومكملا لرائده ومما لا شك فيه
أن القارىء الذى نعتز برأيه ، ويزكن إلى فكره وتوجيهه ، سيسلم
فى هذا العدد الجديد نفحة تقدم وروحة رقى وتسمم، ذلك أن طبيعة الأمور،
وسنة الحياة — عندنا لا تفسدها أسباب الشهوات أو مظاهر الانحراف —
لا بد أن تعطى للصغير ما ينميه ، وللناشىء ما يوفيه ، ونحن فى هذا الموقع
من مواقع الجهاد لانا لوالا جهداً فى سبيل منع كل ما يعترض المسيرة، أو يحول
بينها وبين أسباب التكمال أو الإستكمال ، وما أكثر العقبات حين نهدا ،
لكن عزائم المؤمنين تفتحهم كل عقبة وتحطم كل صخرة أمام مجرى
الحياة .

أن نظرة سريعة فيما أحدثه العددان السابقان من آثار أوردود أفعال كما يقولون تجعلنا نفرح بفضل الله وكيف لا وقد ظفروا بكثير من كلمات التهئة ممن يعلمون قلة عددنا وعددنا، كما تمتعنا بكثير من نفحات النقد ممن ظنوا أن وراء هذا العمل أكثر مما وراء أمثاله في الساحات والميادين العلمية المناظره فطالبوا بالمزيد ودعوا إلى التوسع . . . وأشاروا إلى الاستكمال .

وإن هيئة المجلة تشكر الطائفة الأولى على تفضلها بالدفع والتشجيع كما تشكر الطائفة الثانية على تكرمها بالنقد والتوجيه ، وترى نفسها ازاء هذا كله مطالبة بالتوفيق في اختيار موضوعاتها والتنويع في تخطيط أبوابها ، والتجميل في صدها وأشكالها .

ومن هذا المنطلق فقد تم الاتفاق على أن تجعل من هذا العدد الثالث نموذجاً جديداً للمجلة العلمية اللغوية التي تعبر بإسنان عصرها عن تراث الآباء والأجداد وتصور بلمحة أسلافها أفكار الأبناء والأحفاد .

فكان ثمة منهج اقتضى أن يوضع تخطيط ، ويرسم سبيل وطريق ، تظهر فيه روح التنويع ، ويبين فيه مظاهر التشويق والترويح فإلى جانب البحوث اللغوية رأينا أن تظهر الأخبار العلمية والروايات اللغوية ، وبخاصة ما يتصل منها بجانب أعمال اللغويين وما يصدر عن مجامعهم ومؤتمراتهم في الشرق والغرب وكل الأخبار والرواية من آثار في عالم الدراسات اللغوية .

ومع بحوث اللغة والأدب والتاريخ التي يكتبها أبناء الكلية ترحب بما يكتب غيرهم من أبناء أزهري وجامعاتنا الكبرى ولا نرى بأساً في أن تظهر بجانب تلك البحوث الشرقية أو العربية بعض ما يصنعه أبناء الغرب

من المستشرقين أو المستعربين حول لغتنا العربية بعد النقد والتمحيص والتعليق بأقلام أهلينا وأخواننا من أبناء الأزهر وغيرهم .

وإذا كان قولنا أن أكثر المجلات العلمية المناظرة يعمل كل منها في عزلة مفروضة ، وبعده مرفوضة فإننا نرجو لمجلتنا هذه أن تبني جسور الود والتعاون العلمي بين أكبر عدد من أخوانها في ساحات اللغة والآداب ، وقد نعهد إلى بعض الصفوة من أبنائها باتخاذ كل سبيل لأقامة تلك الجسور العلمية ولو بتلخيص ما هو مهم من بحوث ومقالات الأخوة والأساتذة الكاتبين في أخوات مجلتنا وأمانياتها ، ليظهر الخير ويعمم النفع .

وسيكون لحرصنا على أشاعة روح التعاون العلمي بين الدارسين من أبناء الكلية في المرحلة الجامعية والدراسات العليا وبين أساتذتهم أثر في توجيه البحوث المنشورة لخدمة هذا الهدف والإعلان عما تقوم به تلك الفئة من باحثي الدراسات العليا من أعمال جادة وبحوث منتقاة ، إننا لا نؤمن بما يتروّد في بعض الأوساط من أن الغرض من المجلة العلمية للكلية إنما هو أتاحه سبيل النشر أمام أعضاء هيئة التدريس الطالبين للترقية ونرى أن هذه الفكرة تجعل تلك المجلات صورا من تلك البحوث الكثيرة التي تهمل بمجرد تحقيق هدفها الدراسي أو الوظيفي المحدود وإنما نرى أن لهذه المجلات إلى جانب ذلك الهدف الرسمي الذي فرضه علينا واقع لا بد من تغييره — أهدافا أخرى علمية ومنهجية ، وفكرية قبل كل شيء ونطالب أنفسنا وغيرنا أن نرفع من هذه المنابر المتاحة أصواتا قوية عالية توظف الثائم وتحرك الكسول وتعيد الشباب المسلم إلى سابق عهده في الفكر والسمع والأبداع .

ألم يكن صوت الإسلام بقوته ودقته وحنانه أكبر دافع لاكتشاف عظم العربية وأمرارها ومظاهر جاهلها وهل كان أحد يظن — مجرد ظن أن المبالغة من أبناء الصحراء وبدوها سينجبون للعربية أمثال أبي الأسود

الدؤلى ، ونصر بن عاصم وأبى عمرو بن العلام ، والحليل بن أحمد وأبوه
الروحى وسيدويه ، وغيرهم بغير نزول القرآن وظهور الإسلام .

« أولئك أبائى فجئنى بمثلهم » .

وأنا مع أيماننا ومعرفتنا بقدر ما قدمه أولئك الآباء السادة فإننا
لا نؤمن ولا نصدق بما يتردد فى مجالاتنا الثقافية أن الأول لم يترك للآخر
شيئاً ونعلم أن الأمر على عكس ذلك تماماً فكم ترك الأول للآخر؟ وتتخذ
من قول أمانا الفحوى القارىء أبى عبد الله جبال الدين محمد بن مالك
فى مقدمه كتابه التسهيل مبدأً وشعاراً إذ يقول رحمه الله :

« وإذا كانت العلوم منها آلهية ، ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد
أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر نيله على كثير من المتقدمين ، أعاذنا الله
من حسد يسد باب الإنصاف ، ويصد عن جميل الأوصاف والحمدنا شكراً
يقتضى توالى الآلاء ويقضى بانقضاء الأواء » (١) .

ومن هذا المنطلق فإننا ندعو إلى التفكير العميق فى مشكلات عربيتنا
العصرية فى قضاياها التى تجددت مع مر الأيام وأختلاف العصور ، ونهب
بكل غيور على إسلاميته وعربيته أن يفكر معنا فيما يعيد لتلك العربية
روحها القرآنية ، وبيانها النبوى ، وطلعتها السماوية المشرقة .

أن العربية الفصحى لتبرأ مما يتردد على الأسماع اليوم من صور
اللحن الفاحش فى أصواتها وأدائها وكلماتها ونحوها وأساليب صوغها

(١) مقدمة تسهيل الفوائد ص ٢ وقد سعدت بهذه العبارة فى مقدمة
بحثى الجيد عن النبر : accent فى العربية الفصحى بالعالم العربى
المعاصر .

وما أشد هذا الفحش عند يكون مصدره الكبراء قبل الصغراء والعلماء قبل الجهلاء؟

أن تعليم العربية لأبناء العرب ولغيرهم ما زال متسكفاً هل غير هدى مشدوداً بقيود من فولاذ تمنعه من التقدم وتحول بينه وبين الإنطلاق بأساليب العصر وتقنياته الرائعة .

أن البحث اللغوي في جامعة الأزهر وفي غيرها من نظائرها لم ينفك عن الدوران حول بعض القضايا القديمة من نحو نضج حتى احترق أو صرف لم يسبق له تصريح وما أكثر أولئك الذين يزعمون تحقيق التراث في هذا المجال مع أن أكثر ما يصدر عنهم في أشد الحاجة إلى التصحيح والتحقيق وقل مثل ذلك عن كثير مما يصنع في مجالات البحث الأدبي والبلاغي والأصولي .

وما أدري ولست أدري هل عرف أخواننا الباحثون في تلك المجالات ماذا يدبر للعربية وعن العربية في هذا العصر ، وماذا يقال عنها في عقر دارها وفي الخارج ؟ وهل عرفوا شيئاً عن مشروع العربية الأساسية ؟ أو النحو العربي الأمريكي أو الترجمة الآلية الإلكترونية ؟ إلى غير ذلك من القضايا التي شغل بها الآخرون ليس حسبة بالطبع لوجه الله .

ومنذ متى راجعتم أنفسكم وحاسبتموها بالنظرة الموضوعية في تلك المقررات التي تقدم لطلابكم في صورة مذكرات أو كتب هزيلة وعرفتم أثار ذلك في تذكورين هؤلاء الطلاب الذين هم أمانة في أعناقكم ؟ .

أن بعض من يجتمعون من أجل هذا الغرض الاسمي تحكمهم شهد الله دوافع خاصة أو شخصية فإذا بهم يحاولون — السيطرة بمواد تخصصهم

وبما يعرفون على غيرهم ولو كان ذلك حساب المنهج العلمى والتكويرين
السليم .

لقد كانت هناك ندوات عالمية ومؤتمرات دولية لبحث طرق
وسائل تعليم العربية للناطقين بها ولغيرهم وكانت لها قرارات وتوصيات
فهل ياترى بلغت هذه أذان المسئولين عن جامعاتنا ومعاهد اللغة عندنا وهل
وجدت صدى فى عقولهم وقلوبهم ؟

وتساؤلات أخرى كثيرة وأوجاع فى العقل والقلب تثير أشد ألوان
الصراخ لكن تبقى المشكلة من يسمع ؟ من يشارك ؟ من يطب ؟

هل يستطيع هذا الصوت اللغوى العربى من دمنهور أن يصل إلى القاهرة
وإلى كل عواصم العرب والمسلمين فيرجع صداه حاملا : لبيك لغة القرآن
ولسانه المبين .

• • •

وتحية من قبل لصوت العربية فى دمنهور وتحية لسكل من شارك
فى تكويرته ونقله ونسخه وطبعه ولنا فى الله أكبر الأمل فيأذنه وتفضله
فلتقى إن شاء الله فى العدد الرابع .

وأن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت
والإليه أنيب .

أ . د / عبد الله ربيع محمود
المشرف على المجلة

كِتَابُ "الْبَيْعِ" وَأَثَرُهُ فِي الدِّرَاسَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ

بقلم

الدكتور السَّيِّدُ مُحَمَّدُ بْنُ الرَّعَيْنِ الْبُوسَيْنِيُّ

المدرس بقسم البلاغة والنقد

تقديم :

يمثل كتاب « البديع » « لابن المعتز » بداية مرحلة جديدة في تاريخ البيان العربي ، يمكن أن نسميها : مرحلة الدراسات المنهجية .

نجد اتباع فيه مؤلفه منهجاً محدد الخطوات ، واضح المعالم ، على خلاف ما نلاحظ في جل ما سبقه من مؤلفات في هذا الميدان .

ومن ثم كان لهذا الكتاب قيمة كبيرة في تاريخ البلاغة العربية ، وبرز أثره جلياً في المؤلفات التي كتبت من بعده ، واتسكأ عليه عدد غير قليل من أعلام المؤلفين في الدراسات البلاغية .

وهذا البحث يتناول كتاب « البديع » ، بالدراسة والتحليل ، ويكشف عن الروافد التي أمدته ، والرياض التي استقت منه ، وينفذ ماوجه إليه من تهمة ، وما أثير حوله من شبهات .

لذا فهو ينقسم قسمين :

الأول : دراسة كتاب « البديع » .

والثاني : بين التأثر والتأثير .

وقبداً — يعون الله وتوفيقه — في خوص غمار البحث .

أولاً : دراسة كتاب « البديع » .

• • •

مؤلف الكتاب :

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله ، بن المتوكل على الله ، بن محمد المعتصم ، بن هارون الرشيد و ينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، ولد على أرجح الآراء في شعبان سنة ٢٤٧هـ - نوفمبر سنة ٨٦١ م ، وتربى تربيته أبناء الخلفاء ، وتأدب على أشهر علماء عصره ، كشعاب ، والمبرد ، وابن هبيرة ، وغيرهم .

و من منصف صغره إلى الشعر والأدب ، وظل يحيا في ظلهم بعيدا عن صراعات السياسة حتى نبغ فيهما نبوغا منقطع النظير .

و يصف ابن المعتز نفسه في بعده عن السياسة ، وجنوحه إلى المذات ، فيقول (١) :

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفسا أدنت بالتشقى
فإن تطلبه تقتنصه بحافة وإلا ببستان وكرم مظل
ولست تراه سائلا عن حليفة ولا قائلا من يعزلون ومن يلى
ولا صائحا كالعير في يوم لذة تعاظم في تفضل عثمان أو عى

ومع هذا فقد جاءته الأقدار بما لم يكن في الحسبان ، ففي سنة ٢٩٦ هـ اجتمع جماعة من القواد على خلع «المقتدر» ، وتولية «ابن المعتز» ، مقاليد الخلافة ، وبويع بها يوم السبت ٢٠ من ربيع الأول ، وصلى بالناس الصبح يوم الأحد ، ونجاة تبدلت الأمور ، وأفرج عن «المقتدر» ، وانفض أنصار «ابن المعتز» من حوله ، فقبض عليه ، ولقى حتفه ، ولم يهنا بعرش الخلافة .

وقد رثاه كثير من الشعراء ، وقال فيه دا بن بسام ، (١) :

لله درك من مـ مـ مـ بمضيعة
فأهيك في العلم والآداب والحسب
ما فيه لولا ولا ليت فتقصه
ولمّا أدركته حرفة الأدب

نعم أدركته حرفة الأدب ، فقتل بانسا ، لم يتمتع بأبهة الملك ، وعند التحقيق نرى أن الخلافة قد أسقطته وأردته ، بينما أعلاّه الأدب ، وأحيا ذكره ، ما بقي في الناس مطالع للأدب ، ودارس للعلوم .

وترك دا بن المعتز ، مؤلفات جليلة ، تزهو بها رياض العلم ، ويعتز بها العلماء ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتاب « ابن المعتز وتراثه » مؤلفاته وهي :

- ١ — كتاب البديع .
- ٢ — الزهر والرياض .
- ٣ — مكاتبات الإخوان بالشعر .
- ٤ — الجوارح والصيد .
- ٥ — السرقات .
- ٦ — أشعار الملوك .
- ٧ — الآداب .
- ٨ — حلى الأخبار .
- ٩ — طبقات الشعراء .

١٠ — الجامع في الغناء .

١١ — أرجوزة في ذم الصبوح .

١٢ — ديوان شعر كبير .

و كثير من هذه الكتب مفقود ، وما نشر منها يشهد ببراعة وابن المعتز ،
وسعة ثقافته ، وعلمه الغزير ، فرحمه الله رحمة واسعة بما قدم للعالم
والعلاء .

التعريف بالكتاب :

كتاب « البديع » لابن المعتز من أهم كتب التراث في البيان والنقد ،
وقد ألفه « ابن المعتز » سنة ٢٧٤ هـ ، وذكر ذلك في الكتاب ، فقال :
وما جمع فنون البديع ، ولا سبقني إليه أحد ، وألفته سنة أربع وسبعين
وما تين وأول من نسخه مني علي بن هارون بن يحيى بن أبي
المنصور (١) .

وقد نشره المستشرق الروسي « أغناطيوس كرتشكوفسكي » سنة ١٩٣٥ م
معتمدا على النسخة المخطوطة الوحيدة الموجودة في مكتبة « الاسكوريال » .

ثم نشره بعد ذلك الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خلفاحي سنة ١٩٤٥ ،
وقد صحح كثيرا من أخطائه وشرح ما فيه من أبيات .

سبب تأليفه :

وذكر ابن المعتز ، في مقدمة كتابه دوافع تأليفه ، فقال : قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة ، والأعراب ، وغيرهم ، وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذي سماه المحدثون «البديع» ، ليعلم أن بشاراً ، ومسلماً ، وأبانواس ، ومن تقيلمهم وسلك سبيلهم . لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثير في أشعارهم ، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه .

ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه ، وأكثر منه ، فأحسن في بعض ذلك ، وأساء في بعض . وتلك عقبى الإفراط ، وثمره الإسراف ، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل (١) .

ففي هذا النص يكشف ابن المعتز ، عن سبب تأليفه كتاب «البديع» ، وفي عصره احتدمت المعارك الأدبية بين المحافظين على عمود الشعر من اللغويين والرواة ، وبين المحدثين من الشعراء .

فالمحافظون يناخون عن منهج الشعر القديم ، ويرون أن الشعر يجب ألا يخرج عنه ، ويتمون بشاراً ومسلماً وغيرهما بإفساد الشعر .

والمحدثون يذهبون إلى التأنق في الصياغة ، والغوص وراء المعاني ، وتوشية القصائد بحلى البديع ، ويرون أن هذا أقوم طريق .

وفي خضم هذه الخصومات الأدبية ، ألف د ابن المعتز ، كتابه ليدل على أن البديع موجود في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام العرب ، وأشعارهم ، وأن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنونه ، ولكنهم عتوا به ، وأكثروا منه في أشعارهم حتى عرفوا به ، وأسرف بعضهم في استعماله حتى أساء في بعض شعره ، واكتنف بعض شعره الغموض .

ويزيد د ابن المعتز ، الأمر وضوحاً حين يصرح بهذا السبب مرة أخرى بعد قليل من كلامه السابق ، فيقول : وإنما غرضنا تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع ، (١) .

ويرى أستاذنا الدكتور أحمد موسى أن د ابن المعتز ، ألف كتابه مناقشة عن المحدثين ، واحتجاجاً للبديعيين ، لأنه من أعلام الصنعة البديعية ، وكان في سلك الذين رماهم علماء اللغة بإفساد الشعر ، والخروج به عن مألوفه ومعتاده ، وإثقاله بالحلي التي تسلمه من التكلف والتعقيد (٢) .

بينما يرى الدكتور شوقي ضيف أن د ابن المعتز ، ألف كتابه ليثبت أن المحدثين لم يخترعوا البديع ، الذي يلهمجون به ، وكأنه يرد حقاً مسلوباً للشعراء الأقدمين الذين ادعى المحدثون أنهم قد اخترعوا البديع دونهم ، ولم يسم د ابن المعتز ، من ادعى ذلك وعمط العرب حقهم ، وأنكر عليهم كل فضل ، ولكنه تصدى لم ادعوا ذلك ، لينقض دعواهم الباطلة ، مبيناً بالبرهان الساطع أن البديع قديم في العربية (٣) .

وكلام أبي هلال يؤيد ماذهب إليه الدكتور شوقي ضيف إذ يقول

(١) البديع : ٣

(٢) الصبغ البديعي : ١٢٩

(٣) البلاغة قطور وتاريخ : ٦٧

بعد أن عدد ألوان البديع : فمنه أنواع البديع التي ادعى من لاروية ولا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفهم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرىء من العيوب ، كان في غاية الحسن ونهاية الجودة ، (١) .

وأرى أن كلام ابن المعتز ، يحتمل التفسيرين ، ولما منع من أن يكون قد أراد أن يدل على أصالة البديع في اللغة العربية . ويثبت أنه فن قديم من فنون القول فيها ، في الوقت الذي قصد أن يبين أن المحدثين لم يخرجوا بسبب البديع عن سواد الشعر العربي ، وإنما كان ذلك بسبب كثرتهم منه ، وغرامهم به إلى درجة التكلف والتعقيد .

منهج الكتاب :

سار ابن المعتز ، في كتاب البديع ، على منهج دقيق ، يدل على عقل فذ ، ونظر ثاقب ، وقد بدأ كتابه بمقدمة شرح فيها الدوافع التي جعلته ينهض لتأليف كتابه . وبين أنه سيتحدث عن فنون البديع كما يراها قاصداً من ذلك تعريف الناس بقدوم البديع ، فليس لأحد أن يعيب عليه إقتصاره على بعض الفنون ، في دون ما ذكره ما يورى بالغاية التي قصدها (٢) .

ويؤكد على أنه لم يقتصر على هذه الفنون لجهل أو صيق معرفة ، فيقول : بعد أن انتهى من فنون البديع : ونحن الآن نذكر بعض بحاسن الكلام والشعر وبحاسنها كثيرة . . . وأحببنا لذلك أن نذكر فوائد

(١) الصناعتين : ٢٠٤

(٢) البديع : ٣

كتابنا للمتأدين، ويعلم الناظر أننا اقتصرنا بالبديع على "الفنون الخمسة اختصاراً من غير جهل بحاسن الكلام ولا صيق في المعرفة (١) .

وقسم دابن المعتز ، كتابه قسمين :

الأول : البديع ، وهو القسم الأكبر في كتابه ، ويبحث فيه خمسة أبواب هي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي .

والثاني : محاسن الكلام والشعر ، وتحدث عن ثلاثة عشر لوناً منها هي : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، والخروج من معنى إلى معنى ، وتأكيده المدح بما يشبه الذم : وتجاهل العارف ، والهزل الذي يراد به الجد ، وحسن التضمنين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعانة الشاعر نفسه في القوافي ، وحسن الابتداءات .

والنزم دابن المعتز ، في دراسة أبواب البديع بمنهج فريد ، فتراه يعرف ألوان البديعي ثم يسوق له الأمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الصحابة ، وكلام العرب ، ثم يقتل ليضرب الأمثلة من الشعر القديم ، ويعقبه بذكر أمثلة من شعر المحدثين .

وبعد أن يذكر العدد الوفير من الأمثلة الجيدة يأخذ في ضرب الأمثلة المعيبة ، التي لم تستوف شروط الحسن .

ولقد أكرم دابن المعتز ، من ضرب الأمثلة الجيدة في كتابه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدي الناشئين زاداً يمدهم بمقومات الصنعة الجيدة ، التي

(١) البديع : ٥٨

أباحها الذوق العربي ، ويعصمهم من الوقوع في التكلف الذي يربط بأشعارهم إلى درجة القبح (١) .

وتظهر شخصية « ابن المعتز » في كتابه كأديب بارع ، وشاعر ذواقة ، وناقد خبير ، يتقن التمييز بين جيد الكلام وردئه .

وسنتناول موضوعات الكتاب بالدراسة والتحليل ، لنبين طريقة « ابن المعتز » في تناولها ، ونقف على جهوده في إبراز معالمها ، وإيضاح مسائلها ، ونوضح أثره الكبير في تطور البلاغة العربية .

ونبدأ بالقسم الأول وهو أبواب البديع .

١ — الاستعارة :

هي أول أبواب « البديع » التي بحثها « ابن المعتز » في كتابه ، وكأنه بهذا يجعلها في مقدمة ألوان البديع أهمية ، نظراً لجراسها على ألسنة العرب ، وشيوعها في شعرهم ونثرهم ، وتأثيرها القوي في أداء المعاني ، وروعة الأساليب .

وقد عرفها ، وضرب لها أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الصحابة رضي الله عنهم ، وكلام غيرهم من فصحاء العرب قدماء ومحدثين ، ثم ذكر لها أمثلة من جيد الشعر في عصوره المختلفة : جاهلي ، والإسلامي ، والعباسي ، ثم ختم حديثه عنها بذكر أمثلة للاستعارات القبيحة في الشعر والنثر .

وفي خلال رحلته مع أمثلة الاستعارة أشار بلطف إلى بعض مسائلها كما يتضح فيما يلي :

(١) الصنيع البديعي : ١٣٠

(أ) تعريف الاستعارة :

عرف ابن المعتز ، الاستعارة بأنها : استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها (١)

وإس هذا أول تعريف وجد في آثار العلماء ، فقد سبق الجاحظ ، وابن قتيبة ، ود ثعلب ، إلى تعريفها .

فهى عند الجاحظ : تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه (١)

وهى عند ابن قتيبة : وضع الكلمة مكان الكلمة ، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاورا لها ، أو مشاكلا (٢)

وهى عند ثعلب : أن يستعار للشيء اسم غيره ، أو معنى سواه (٣)

وبالنظر في هذه التعاريف نرى أنها تقسم بالبساطة ، ونفتقر إلى الدقة المطلوبة في التعريف ليكون جامعاً مانعاً ، وليكنها — على كل الأحوال — تمثل مرحلة أولية من مراحل الفكر البلاغى ، لها أهميتها في بناء صرح علوم البلاغة .

(١) البديع :

(٢) البيان والتبيين : ١ / ١٥٣

(٣) تأويل مشكل القرآن : ١٣٥

(٤) قواعد الشعر : ٢١

(ب) قرينة الاستعارة :

لم يشر ابن المعتز صراحة إلى قرينة الاستعارة ولكننا نلح في تعليقه على بعض الأمثلة ما يؤمى إليها ، إذ يقول : ومن الاستعارة قول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقات له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وفاء بكلكل

هذا كله من الاستعارة ، لأن السدول لا صلب له ولا أعجز (١)

فقد أشار إلى الاستعارة في الصلب ، والعجز ، والكلكل . وبين أن هذه الألفاظ إنما كانت من قبيل الاستعارة ، لأن الليل لا صلب له ولا أعجز ، وهذا قوضيح للقرينة التي عرفت عند البلاغيين بعد ذلك .

(ج) بيان أصل الاستعارة :

وبين « ابن المعتز » ، — في بعض الأمثلة — المعنى الحقيقي الذي أخذ منه الاستعارة ، ففي قول النابغة الذبياني :

وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

يقول : أراح الليل عازب همه ، هذا مستعار من إراحة الراعى الإبل إلى مياهها ، أى موضع قاوى إليه (٢)

وفي بعض الأمثلة أشار إلى المعنى المجازي ، والمعنى الحقيقي وشرح اللفظ المستعار ففى قول الشاعر :

إذا انفتحت حرب عوان مضرة
ضروس تهر الناس أفيابها عصل

يقول : تهر : أى تحملهم على أن يكرهوا ، يقال : هرفلان كذا : إذا كرهه ، وأهر رقه أنا : حملته عليه ، وهرير الكلب : صوت يردده إلى جوفه إذا كره الشيء ، أو الشتاء لشدة البرد أو لغيره (١)

(د) أمثلة من جيد الاستعارات :

ساق ابن المعتز أمثلة كثيرة للاستعارة ، من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم ، وكلام غيرهم من فصحاء العرب قدماء ومحدثين ، ثم ذكر أمثلة من جيد الشعر فى عصوره المختلفة ، الجاهلي والإسلامي ، والأموي ، والعباسي .

فمن الاستعارات القرآنية ، قوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب) (٢) . وقوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) (٣) ، وقوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) (٤)

ولم يعلق ابن المعتز على هذه الشواهد بشيء ، ومعلوم أن الاستعارة فى الآية الأولى فى لفظ « أم » ، وفى الثانية « جناح » ، وفى الثالثة فى لفظ « اشتعل » .

(٢) آل عمران : ٧

(٤) مريم : ٤

(١) السابق : ٧

(٣) الإسراء : ٢٤

ومن الاستعارات النبوية قوله ﷺ : خير الناس رجل أمسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هيفة طار إليها ، (١)

والاستعارة في الحديث في لفظ « طار » ، وقد استعيرت للسرعة .

ومن الاستعارة في كلام الصحابة ، قول علي بن أبي طالب في كتاب إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة : أرغب راعبهم ، واحمل عقد الخوف عنهم (٢)

والاستعارة في هذا القول في لفظ « عقد » ،

ومن الاستعارة في كلام غيرهم ، ما جاء في قول الحجاج : دلوني على رجل سمين الأمانة (٣) .

وفيما روى عن المأمون من أنه رأى بعض ولده وفي يده دفتر ، فقال ما هذا يا بني ؟ فقال : بعض ما يشحف الفطنة ، ويؤنس في الوحدة ، فقال : المأمون : الحمد لله النسي أراني من ذريتي من ينظر بعين عقله (٤)

والاستعارة في قول الحجاج في لفظ « سمين » ، وفي قصة المأمون في لفظي : يشحف : وعين .

وذكر ابن المعتز للاستعارة نماذج كثيرة من الشعر ، وبما ذكره قول زهير : (٥)

صحا القلب عن سلبى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

(٢) السابق : ٤

(١) البديع : ٣

(٣) السابق : ٦

(٥) السابق : ٨

(٤) السابق : ١٢

وقول لبيد (١)

وغداة ربح قد كشفت وقرة
إذ أصبحت بيد الشمال ذمامها
وهما من أشهر أمثلة الاستعارة المسكنية في كتب البلاغين .

ومن الأمثلة قول أبي نواس : (٢)

صهبا تفترس العقول فما ترى
منها بين سوى السيئات جراحا
والاستعارة في لفظ « تفترس » .

وقول العباس بن الأحنف : (٣)

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا
وفرق الناس فينا قولهم فرقا
والاستعارة في لفظ « أذيال » .

وعير ذلك من شعر مسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية ، وأبي تمام وغيرهم ،
ولقد أفاض ابن المعتز في التمثيل للاستعارة . وضرب لها أكثر من
ثمانين مثالا من الشعر ، غير ما ذكره من القرآن الكريم ، والحديث الشريف
وأقوال الصحابة ، وفصحاء العرب .

والناظر في أمثله يجد أكثرها من الاستعارة المسكنية ، ولعل هذا يرجع

(١) السابق : ١١

(٢) السابق : ١٦

(٣) السابق : ١٩

إلى أن هذا اللون من الاستعارة كان موضع نقاش بين المحافظين والمتحدين في هذا الوقت ، ويؤيد هذا أن فقد الأمدى لاستعارات أبي تمام كان منصبا على كثرة ما يورده من الاستعارات المكشنة في شعره (١) .

(هـ) الاستعارة المعيبة :

وساق ابن المعتز أمثلة من الاستعارات المعيبة ، حتم بها حديثه عن الاستعارة ، وبين أنه سيكتفي بذكر القليل من الأمثلة ، ليعرفها المنشئون ويحتزون من الوقوع في أمثالها ، فقال : وهذا وأمثاله من الاستعارة ، بما عيب من الشعر والكلام ، وإنما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب (٢) .

وذكر أمثلة منها :

قال الماهب لرجل من الأزد : متى أنت ؟ قال : أكلت من حياة رسول الله ﷺ سنتين ، فقال : أطعمك الله لحك (٣) .

فقول الأزدى : « أكلت » إستعارة قبيحة ، لعدم ملامتها للحياة ، ولخروج التعبير عن أدب الحديث عن رسول الله ﷺ .

وقال عبيد الله بن زياد لسويد بن منجوق : أقعد على است الأرض ، فقال سويد : ما أعلم للأرض استا (٤) .

فاستعارة الاست لظهر الأرض إستعارة معيبة ، ولذلك رد سويد ، على « عبيد » بحارة كلها تعجب وإستهزاء .

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٧٠ وينظر الموازنة ١/ ٢٦١

(٢) ، (٣) ، (٤) السابق : ٢٣

وقال أبو تمام (١) :

فَضربت الشتاء في أخدعيه ضربه غادرته هودا ركوبا

والاستعارة في هذا البيت في لفظ «أخدعيه» ، والأخدعان عرفان
في العتق ، والشاعر حينما جعل للشتاء أخدعين ، على سبيل الاستعارة ،
جاءت في غاية الفصح ، وقد وقف الإمام عيد القاهر عند هذه الاستعارة في
بيت آخر لأبي تمام وهو :

يا دهر قوم من أخدعك فقد
أضججت هذا الأنام من خرقك

وبين قببحها ، وثقلها على النفس (٢) .

ومن قبله وقف الأمدى عند البيتين وغيرهما منها على فساد الاستعارة
وقببحها (٣) .

وحديث ابن المعتز عن الاستعارات المعيبة ، قد فتح الباب أمام البلاغيين
لتفصيل هذا الموضوع ، وبيان مختلف جوانبه .

٢ — التجنيس :

وهو الباب الثاني من «البديع» عند ابن المعتز ، وقد عرفه ، وبين أقسامه ،
وضرب له أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الفصحاء ،
والشعر ، وختم حديثه عنه بذكر نماذج للمعيب منه .

(١) السابق ٢٣

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٤٧

(٣) الموازنة ١/٢٦١

(١) تعريفه :

قول ابن المعتز : التجنيس : أن تجيء الكلمة تجانس أخرى و بدت
شعر و كلام ، و شرح معنى المجانسة فقال : ومجانستها لها أن تشبهها في
تأليف حروفها ، على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس
عليها (١) . . .

فقد عرف التجنيس ، و شرح معنى المجانسة ، وأشار إلى كتاب الأصمعي
الذي ألفه في ذلك ، كما اشتهر بكلام الخليل بن أحمد في هذا الموضوع (٢) .

(ب) أقسامه :

وبين أن التجنيس على قسمين (٣) :

الأول : ما تكون الكلمة تجانس أخرى و تأليف حروفها ، ومعناها ،
ويشتق منها ، مثل قول أبي يعقوب الحريري :

يوم خلجت على الخليج نفوسهم عصباً وأنت بمنزلها مستام

والثاني : أن تجانسا في تأليف الحروف دون المعنى ، كقول مسلم
ابن الوليد :

يا صاح إن أخاك الصب مهموم فافرق به إن لوم العاشق اللوم

وبالتأمل في هذين القسمين نرى أنهما بحثا عند المتأخرين في الملحق
بـ الجناس لا في الجناس ، والأول منهما يقوم على اجتماع اللفظين في
الاشتقاق ، والثاني يقوم على اجتماعهما فيما يشبه الاشتقاق (٤) .

(١) ، (٢) ، (٣) البديع ٢٥

(٤) ينظر مفتاح العلوم ٢٠٣ ، وبقية الإيضاح ٨٥/٤

فهذا التقسيم غير دقيق ، ولا يمثل التقسيم الصحيح للتجنيس ، وهذا لا يغض من مكانة ابن المعتز ، ولا ينقص من قدره ، فهو رائد كفاه أن أوضح معالم الطريق .

(ج) مع الأمثلة :

وساق ابن المعتز أمثلة كثيرة للتجنيس منها ما يدخل تحت تقسيمه ، مثل قوله تعالى (١) : (وأسألت مع سليمان لله رب العالمين) ، وقوله تعالى (٢) : (فأقم وجهك للدين القيم) ، وقوله ﷺ (٣) : (الظلم ظلمات يوم القيامة) (٤) .

ومن هنا ما يدخل تحت أقسام أخرى ذكرها البلاغيون بعد استواء المباحث البلاغية ، كالجناس التام المستوفى في قول محمد بن كنفانة (٥) :
وسميته يحي ليحيا فلم يكن إلى رد أمر الله فيه سبيل

والجناس المحرف في قول العباس (٦) :

وذا كم أن ذل الجار حاتفكم وأن أنفكم لا يعرف الاتفا

والجناس الناقص المطرف في قول الجعفي (٧) :

لولا عل بن مر لاستمر بنا خلق من العيش فيه الصاب والصبر

(١) النمل : ٤٤

(٢) الروم : ٤٣

(٣) رواء مسلم

(٤) البديع : ٢٥

(٥) البديع : ٢٦

(٦) السابق : ٢٧

(٧) السابق : ٢٣

والجناس الناقص المذيل ، فى قول حيان بن ربيعة (١) :
 لقد علم القبائل أن قومي لهم حد إذا لبس الحديد
 وجتناس القلب ، فى قول معاوية لابن عباس (٢) : مالكم يا بني هاشم
 تصابون فى أبصاركم كما تصابون فى بصائركم .
 ووقف ابن المعتز عند بعض الأمثلة مشيراً إلى التجنيس فيها ، فى أبيات
 سعيد بن حميد :

طلعت أوائل للرياض فبشرت نور الربيع بحدة وشباب
 وغداً السحاب يكاد يسحب فى الرى
 أذبال أسحم حالك الجلاب

.

يقول : أردنا قوله : وغداً السحاب يكاد يسحب (٣) .
 وهذا التجنيس من اللون اللون الأول الذى عرف فيما بعد بجناس
 الاشتقاق .

وقد يأتى فى البيت تجنيس وإستعارة ، فنراه يشير إلى ذلك ، فى قول
 عمار بن عقيل :

وعلا اغاط فبات يلغط سيله ويعج فى ايب الرغام ويصخب

يقول : جمع فى هذا البيت التجنيس والاستعارة (٤) .

(١) السابق : ٢٧

(٢) السابق : ٢٥

(٣) ، (٤) السابق : ٣٠

ويعجب ابن المعتز ببعض الأبيات ، فيحكم عليها بأنها من الأبيات
الملاح ، ففي قول أبي تمام :

سعدت غربة الفوى بسعاد ففى طوع الإتهام والإيجاد

يقول : وهذا من الأبيات الملاح (١) :

وهذا البيت مطلع قصيدة لآبى تمام ، والجفاس فيه بين : سعد ،
وسعاد ، وقد حكم عليه أبو هلال بحكم ابن المعتز فقال : وهذا من
الابتداءات المليحة (٢) .

ومثل ابن المعتز للتجنيس ببعض شعره ، فقال : وفلت :

يا دار أين ظباؤك اللعس قد كان لى فى إنسها أنس

أين لبدور على غصون نقأ من تحتن خلاخل خرص (٣)

وهو يقصد التجنيس بين : أنس ، أنس ، فى البيت الأول ، وهذا
اللون من اجفاس يعرف عند المتأخرين بالجناس المحرف ، وفيه يختلف
اللفظان فى شكل الحروف .

(د) التجنيس المعيب :

ساق ابن المعتز أمثلة للتجنيس المعيب من ذلك (٤) : قول منصور بن

الفرج :

(١) السابق ٢٩

(٢) الصناعتين ٢٧٧

(٣) البديع ٣٢

(٤) السابق ٣٤ ، ٣٥

أكابد منك أليم الألم فقد أنحل الجسم بعد الجسم

وقول أبي تمام :

ذهبت بمذهبه السماحة قالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

وقول البهروى :

ولو رأى هرم معشار فأناله لقبل فى هرم قد جن أو هرما

ولم يبين ابن المعتز سبب قببح هذه التجنيسات وغيرها مما ذكره ،
والذى يظهر لنا من التأمل فيها ، أنها قد جاءت متكافئة مصنوعة ، وقد عنى
فيها بتجانس الألفاظ دون إضافة معان جديدة ، فهى لا تزيدنا إلا سماع
حروف مكررة تصك الأذان ولا تغنى العقل .

وقد أشار ابن المعتز إلى بعض التجنيسات التى جاءت غير متكافئة ،
ولا مقصودة فقال : سئل عبد الله بن إدريس عن النيزك ، فقال : جل أمره
عن المسألة : أجمع أهل الحرمين على تحريمه ، ولم يقصده فيما أظن ، ولكن
كإتهام له فى الكلام (١) .

ويفهم من تعليقه على هذا المثال أنه معجب به نظراً لمجيئه من غير
قصد ولا تصنع ، وهذا ما يجب أن تكون عليه الألوان البدعية .

وقد فصل الإمام عبد القاهر هذا الموضوع وساق بيت أبي تمام وبين
سبب قببح التجنيس فيه ، فقال :

أما التجنيس ، فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع
معنييهما من العقل موقعا حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ،
أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام فى قوله :

ذهبت بمذهبه السباحة فالتريت فيه الضئون أذهب أم مذهب
واستحسنتم تجنيس القائل :

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقول المحدث :

ناظراه فيما جنى ناظر-راه أو دعاني أمت بما أودعاني

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت المائدة ضعفت عن الأول ،
وقويت في الثاني ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعت
حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا منكورة ، ورأيت الآخر قد
أعاد عليك اللفظة كأنه يخبرك عن المائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم
يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاهما ، فهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا
المستوفى منه المتفق في الصورة ، من حلى الشعر ، ومن كوراني أقسام
البديع (١) .

فقد بين الإمام أن التجنيس لا يكون حسنا إلا إذا أضاف فائدة ،
وحقق معنى يمتع الحس ويعنى العقل ، وأنه يعاب حينما يأتي مصنوعا من
أجل إيجاد تجانس لفظي ، دون نظر إلى معنى مستفاد منه .

وقد أكد ذلك أتم تأكيد فقال بعد الكلام السابق : فقد تبين لك أن
ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان
باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معجب مستهجن
ولذلك دم الاستسكار منه والولوع به ، وذلك أن المعاني لا تدين في كل
موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعاني ، والمعرفة في
حكمها ، وكانت المعاني هي المالكات سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر

(١) أمرار البلاغة ١/٩٩ ، ١٠٠ - وينظر دلالات الإعجاز ٣ ٧

اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ،
وذلك مطننة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين ، (١) .

٣ — المطابقة :

وباب الثالث من أبواب البديع عند ابن المعتز هو المطابقة ، وقد بدأ
الحديث عنه بالإشارة إلى كلام الخليل والأصمعي في معنى المطابقة ، فقال :
قال الخليل رحمه الله ! يقال : طابقت بين شيئين ، إذا جمعتهما على حدو
واحد ، وكذلك قال أبو سعيد (٢) .

ثم ذكر مثالا للمطابقة مبينا موضعها ، فقال : قالقائل لصاحبه :
أتفيناك لتسلك بنا سبيل التوسع ، فأدخلتنا في ضيق الضمان ، قد طابق بين
السعة والضيق في هذا الخطاب (٣) .

ويفهم من هذا الكلام أنه يشير إلى مفهوم المطابقة بأنها الجمع بين
المعنى وضده ، وليس المقصود بها جمع أي كلامين .

ويفهم هذا من تحليله لمثال آخر حيث يقول : قال عيسى بن طلحة
لعروة بن الزبير حين ابتلى في رجله : إن ذهب أهونك علينا ، فقد بقي
أعزك علينا ، فطابق كما ترى بين العز والهوان (٤) .

(١) أسرار البلاغة ١٠٠/١

(٢) (٤٣، ٢) البديع : ٣٦

مع أمثلة المطابقة :

ضرب ابن المعتز أمثلة للمطابقة من القرآن والحديث والنثر والشعر ،
فمن «قرآن الكريم قوله تعالى (١) : «ولكم في القصص حياة» (٢) ، ومن
الحديث الشريف قوله عليه السلام : «إنكم لتكثرون عند الفرع
وتقلون عند الطمع» (٣) .

روا صبح أن السابق في الآية الكريمة بين قصاص وحياة ، وفي الحديث
الشريف بين تكثرون وتقلون .

ومن الأمثلة النثرية قول علي رضي الله عنه : إن أعظم الذنوب ما صغر
عند صاحبه (٤) ، والطباق بين أعظم ، وصغر ، وهما لفظان مختلفان في الصياغة
فالأول اسم ، والثاني فعل .

ومن الأمثلة الشعرية قول طفيل الغنوي .

بسام الوجه لم تقطع أباجله
يضان وهو ليوم الروح مبدول (٥)

وقول البحتري :

تخائب الشمس أحيانا يضاحكها وريق الغيث أحيانا يياكيها (٦)

(١) البقرة : ١٧٩

(٢، ٣) البديع : ٣٦

(٤) البديع ٣٧

(٥) البديع : ٣٩

(٦) السابق : ٤٤

والطباق في البيت الأول بين يسان ومينول ، وفي البيت الثاني بين
يضاحكها وييا كها .

ومن الأمثلة التي ذكرها قول عبد الله بن الزبير الأسدي :

رمى الحدثان نسوة آل حرب
بمقدار سمكت له سموداً

فرد شعورهن السود بيض
ورد وجوهن البيض سوداً

والطباق في البيت الثاني بين السود والبيض ، وقد جعل المتأخرون
هذا البيت شاهداً للعكس والتبديل ، حيث وقع ذلك بين شطريه ،
وهو لا يتعارض مع المطابقة ، لأن معنى العكس والتبديل على تقديم جزء
في الكلام ، ثم تأخيره على ما قدم عليه (١) .

وبعض الأمثلة التي ذكرها قد دخل في طباق السلب كقول أبي
الغمامة :

لا تلمني على التي فتنني وأرتني القبيح غير قبيح (٢)

فبين قبيح وغير قبيح مطابقة عرفت عند البلاغيين باسم طباق
السلب

ومن الأمثلة التي ذكرها ما يدخل تحت المقابلة التي عرفها البلاغيون
من بعده ، وجعلها أبو هلال من ألوان البديع (٣) .

(١) ينظر بنية الإيضاح : ٢٦/٤

(٢) البديع : ٤٤

(٣) الصفاعتين : ٢٦٤

وذلك كقول أبي تمام :

فيم الثمالة لعـلانا بأسدوغى أفناهم الصبر إن بقاكم الجزع (١)

وكقول النخري :

وسعودهن طالع ونحوسهن أقول (٢)

ففي البيت الأول مقابلة بين أفناهم الصبر وبقاكم الجزع ، وفي البيت الثاني مقابلة بين شطري البيت ، فالبيتان من الأمثلة التي قوبل فيها بين معنيين ومعنيين مضادان لها .

المطابقة المعيبة :

وذكر ابن المعتز أمثلة للمطابقة المعيبة ، منها قول الأخيطل :

قلت المقام وناعب قال النوى فقصيت أمرى والمطاع غراب وعلق عليه بقوله : وهذا من غث الكلام وبارده (٣) .

وقول بعض الشعراء في القاسم بن عبيد الله :

من كان يُعلم كيف رقة طبعه هو مقسم أن الهواء ثخين (٤)
ولم يذكر ابن المعتز السبب الذي جعلها معيبة ، وبالنظر فيها نرى أن الشاعر الأول طابق بين المقام والنوى ، والعصيان والضاعة ، والثاني طابق بين رقة وثخين ، والتكلف فيهما ظاهر ، حيث تعتمد كل من الشاعرين الإتيان بالألفاظ المطابقة من غير نظر إلى قيمتها المعنوية .

ومذهب «ابن المعتز» في جمال البديع يقوم على بحبته عفويًا من غير قصد ولا تعمل ، ويكون له أثر في تقوية المعنى ، وتحسين الأسلوب (٥) .

(١) البديع : ٤٢ (٢) السابق : ٤٣ (٣) السابق : ٤٦

(٤) السابق ٧ : ٤ (٥) ينظر البديع : ٣٤ ، ١

٤ — رد الأعجاز على ما تقدمها :

وهو الباب الرابع من أبواب البديع عند ابن المعتز ، ولم يشر أحد من العلماء قبله إلى هذا اللون ، قالفضل له في هذا الباب خالص ، فهو صاحب مصطلحه ، وتقسيمه ، وانتقاء أمثلته (١) .

وقد قسم ابن المعتز هذا الباب إلى ثلاثة أقسام (٢) :

الأول : ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه الأول ، كقول الشاعر :
تلقى إذا ما الأمر كان عرمرما وليس إلى داعي الندى بسريع

والثاني : ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول كقول الشاعر :
سريع إلى ابن العم يلطم خده وليس إلى نادي الندى بسريع

والثالث : ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه كقول الشاعر :
عميد بنى سليم أقصده سهام الموت وهي له سهام
وبعد هذا التقسيم أخذ في ضرب أمثلة له من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وشعر القدماء والمحدثين .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى : (٣) ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض
والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، (٤) .

ومن الحديث الشريف قوله ﷺ : من هفت نفسه فقد آمنه الله من هفته (٥) .

(١) ينظر الصبيغ البديعي : ١٣٤ (٢) ، (٤) ، (٥) ، (٦) البديع : ٤٨٠ ، ٤٧

(٣) الإعراء : ٢١

ومن الشعر قول طفيل :

محارمك لمنعها من القوم إنشئ
أرى حقبة قد ضاع فيها المحارم^(١)
وهو من القسم الثاني في هذا الباب .

وقول بشار :

طلوب ومطلوب إليه إذا غدا
وخير خليك المطلوب المطلب^(٢)
وهو كسابقه من القسم الثاني .

المعيب منه :

وساق ابن المعتز أمثلة للمعيب من هذا الباب ، ومنها قول ذي نو امر البجلي :
يتيمنى برق المباسم بالحمى ولا بارق إلا الكريم يتيمة
وعلق عليه بقوله : وهذا قد جمع على غثائته بابين من بديع الكلام ،
وهما هذا الباب ، وباب الاستعارة .

والاستعارة في لفظ «برق» ، وردا لأعجازيين آخر كلمة في البيت وأول
كلمة فيه . وهو من القسم الثاني ، وقد حكم ابن المعتز على البيت بأنه معيب ،
ولم يذكر سببا لذلك .

وبالتأمل في البيت نرى أن الشاعر استعار البرق لبياض الثغور عند
التبسم وهي استعارة بعيدة . كما أنه آخر الفعل «يتيمنه» ، ليتحقق لهرد المعجز
على الصدر ، فأحدث خللا في نظم الكلام ، ومن هنا كان البيت غثا باردا .

٥ - المذهب الكلامي :

وهو الباب الخامس من أبواب البديع وقد ذكر ابن المعتز في مطلع حديثه عنه أنه نقله عن الجاحظ ، وحكم عليه بالتكلف ، فقال : وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ ، المذهب الكلامي ، وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (١) .

والناظر في كتب الجاحظ ورسائله المعروفة لا يثر على إشارة إلى المذهب الكلامي ، أو ذكر لاسمه (٢) .

وقد سار أبو هلال (٣) على ما ذكره ابن المعتز ، وذكر قوله السابق ولم يسق له شاهداً من القرآن الكريم .

ولكن المتأخرين من البلاعيين وقفوا من هذا اللون موقفاً آخر ، فقالوا في تعريفه : هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام (٤) ، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب ، وساقوا له أمثلة من القرآن الكريم كقوله تعالى : ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتما (٥) وغير ذلك .

وقد ذكر ابن المعتز لهذا الباب أمثلة نثرية وشعرية ، فمن النثر قول عمر ابن الخطاب لعبد الله بن عباس : من ترى أن نوليّه حمص ؟ قال : رجلاً صحيحاً منك ، صحيحاً لك ، قال : كن أنت ذلك الرجل . قال : لا يفتنع مع بني سوء خلني في سوء ظنك بي (٦) .

ومن الشعر ، قول الفرزدق (٧) :

-
- | | |
|--------------------------|------------------------------|
| (١) البديع : ٥٣ | (٢) البلاغة عند الجاحظ : ١٠٣ |
| (٣) ينظر الصناعتين : ٣٢٦ | (٤) بغية الإيضاح : ٥٠، ٤ |
| (٥) الأنبياء : ٢٢ | (٦، ٧) البديع : ٥٤ |

اسكل امرىء تفسان نفس كريمة
ونفسك من نفسك تشفع للندى
وأخرى يخاصيها الفتى وبطيها
إذا قل من أحرار من شفيها

وقول ابن المعتز نفسه :

أعرفت في الكتمان وذاك منى دهاني
كنت حبك حتى كتبت كتمان
ولم يكن لي بد من ذكره بلساني (١)

والمقام في الأمثلة التي ذكرها للمذهب الكلامي يفهم أنه يريد به استعمال طريقة المتكلمين في الاحتجاج ، وإثبات الكلام بالأدلة :

المعيب منه :

ومثل دا بن المعتز ، للمعيب من المذهب الكلامي بأمثلة منها قول الشاعر (٢) :

نعم منك كانت مثل لا إذ بولتها
فما لنعم عتدي على لاء من فضل

ويظهر فيه التكلف ، والتخاف المؤدى إلى الثقيل ، والابتدال في الألفاظ .

وبهذا الباب ينتهى كلام دا بن المعتز ، في أبواب البديع الخمسة ، ليقتل منها إلى الحديث عن محاسن الكلام والشعر .

وهذه المحاسن التي تحدث عنها العلماء من بعده إلى أبواب البديع ، ولم يقتصر على الأبواب الخمسة التي ذكرها ، وهذا لا يضير دا بن المعتز ،

فى شىء ، فقد ترك الباب مفتوحا لمن جاء بعده ، فقال : فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فلم يفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، ولم يأت غير رأينا فله اختياره (١) .
ونسير مع « ابن المعتز » فى محاسن الكلام والشعر ، فنجده قد ذكر منها ثلاثة عشر لوفا .

١ — الالتفات :

وهو عند « ابن المعتز » على نوعين ، (٢) :

الأول : انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما شابه ذلك .

والثانى : الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر .

فمن الأول قوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح ضية » .

ومن الثانى قول جرير :

حتى كان الخيام بذى طلوح	سقيت الغيث أيتها الخيام
أنفسى يوم تصقل عارضها	يعود بسمة سقى الشام

ونلاحظ أن النوع الأول هو الالتفات المعروف عند المتأخرين ، والآية التى مثل بها « ابن المعتز » فيها الالتفات من الخطاب إلى الغيبة .

أما النوع الثانى فهو نوع من الاعتراض ، وقد حكاه الأصمعى على أنه الالتفات ، ومثل يقول جرير السابق (٣) .

(١) السابق : ٥٨

(٢) السابق : ٤٨ ، ٥٩

(٣) ينظر العمدة : ٤٤/٣

٢ — الاعتراض :

وتحدث عنه د ابن المعتز ، فقال : ومن محاسن الكلام والشعر ، اعتراض
كلام في كلام لم يتم معناه ، ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد (١) .
ومن أمثله قول كثير :

لو أن الباطلين - وأنت منهم - رأوك تعلوا منك المصلا
والاعتراض في قوله د وأنت منهم .

٣ — الرجوع :

وقد عرفه بقوله : هو أن يقول شيئا ويرجع عنه ، كقول بشر (٢) :
ننت فاضح أمه يغتابني عند الأمير وهل عليه أمير
والرجوع هنا في قوله : وهل عليه أمير .

٤ — حسن الخروج :

والمقصود به عند د ابن المعتز « حسن الخروج من معنى إلى معنى (٣) » ،
ومن أمثله قول السموءل :

وإذا تقوم ما نرى القتل سببة إذا ما رأته إعمار وسلول

(١) البديع : ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) السابق : ٦٠ .

(٣) السابق : ٦٠ ، ٦١ .

وحسن الخروح في البيت يمثل الشطر الثاني، وقد بحثه أبو هلال تحت اسم الاستطراد وقال في تعريفه : أن يأخذ المنسكلم في معنى فبينما يعرفه يأخذ في معنى آخر ، وقد جعل الأول مبدأ إليه (١) .

٥ — تأكيده المدح بما يشبه الذم :

ولم يعرفه « ابن المعتز » وإنما مثل له بقول النابغة الذبياني (٢) :
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتائب
وقول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا
فلاستشهد الواقع بعد الجملة الأولى في كل من البيتين يوهم أن الشاعر مقبل على انتقاص الممدوح في ناحيته ، ولكنه يأتي بعده بصفة مدح على عكس المتوقع ، فيتأكد المدح الأول بذلك .

٦ — تجاهل العارف :

ومن أمثلته عند « ابن المعتز » قول زهير (٣) :
وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
فقد أخرج الشاعر ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ، إيراد كلامه تأكيذا .

(١) الصناعتين : ٣١٦ .

(٢) البديع : ٦٢ .

(٣) السابق : ٦٢ .

٧ - الهزل الذي يراد به الجد :

ومن أمثله عنده قول أبي العتاهية (١) :

أرقبك أرقبك بسم الله أرقبك من يخل نفس لعل الله يشفيك
ما سلم نفسك إلا من يتركها وما عدوك إلا من يرجيها

٨ - حسن التضمنين :

ومن أمثله عنده قول الأخيطل (٢) :

ولقد سمى للحرى فلم يقل بعد الوغى : لكن تضايق مقدي
فالشاعر في هذا البيت ضمنه بعضا من بيت غفيرة العباس وهو قوله :
إذ يتقون بي الأسنة لم أحم عنها ولو أتي تضايق مقدي

٩ - التعريض والكناية :

ومن أمثله ، قال علي رضي الله عنه لعقيل ومعه كبش له : أحدهما الثلاثة
أحق ، فقال عقيل : أما أنا وكبشي فعاقلان (٣) .

ومنها قول بشار :

وإذا ما التقى ابن أعيا وبكر زاد في ذا شبر وفي ذاك شبر

وعلق عليه فقال : أراد أنهما يتبادلان (٤) .

(١) السابق : ٦٣ .

(٢) السابق : ٦٤ .

(٣) السابق : ٦٤ .

(٤) السابق : ٦٧ .

ونلاحظ أنه جمع التعريض والكناية في باب واحد ولم يفرق بينهما ،
وقد سار على منهجه أبو هلال (١) .

١٠ — الإفراط في الصفة :

وهو يقصد به المبالغة ، ومثل لهذا الباب بأمثلة منها قول أبي نواس :
ملك أغر إذا احتسى بنحواده غمر الجماجم والمسايط قسام
وأشار إلى أن بعض الشعراء يسرف في المبالغة حتى يخرج عن المقبول ،
فقال : ثم أسرف الخشعي حتى خرج عن حد الإنسان ، فقال :
يدلى يديه إلى القلب ويستقي في سرجه بدل الرشاء المكرب (٢)

١١ — حسن التشبيه :

وقد مر له بأمثلة كثيرة ، وقال في أول حديثه عنه : نبدأ بإمام الشعراء ،
قال امرؤ القيس :

ومسرودة السك موضونة تضامل في الطي كالسرد
تفيض على المرء أردانها كفيض الأتي على الجد جد
وذكر نماذج أخرى من تشبيهاته ، ثم ذكر بعض تشبيهات النابغة
وزهير وغيرهما من القدماء والمحدثين .

وكانه يرى أن امرؤ القيس رائد هذا الفن في الشعر العربي القديم ،
وقد أفاض ابن المعتز ، في ذكر الأمثلة الجيدة من التشبيهات على خلاف
ما عهد عنه في الأبواب السابقة من محاسن الكلام .

ولا يغيب عنا في هذا الموضع أن تشير إلى أنه من الشعراء المشبهين ،
وأن تشبهاته نالت حظا وافرا من استحسان النقاد ، وإعجابهم ، وقد ساق
الإمام عبد القاهر كثيرا منها (١) .

١٢ — إعانات الشاعر نفسه في القوافي :

وهذا اللون عرى عند المتأخرين بلزوم ما لا يلزم ، وقال ابن المعتز
عنه : ومن إعانات الشاعر نفسه في القوافي ، وتسكفه من ذلك ما ليس له
قول رافع بن هريم اليربوعي :

فإذا تحاموني تصيبكم بعرة مفارقتي أوتقبسوا من شراريا
إذا صار لوني كل لون وبدلت تضارة جهي غضيبا باصفراريا
فمرى كإعلائي وتلك سيجتي وظلمة ليسلي مثل ضوء نهاريا
والشاعر قد أزم نفسه في قافية البيت بما لم يشترده علماء العروض ،
وهذا يزيد من الوقع الموسيقي للقصيدة

١٣ — حسن الابتداءات :

ومن أمثلته قول النابغة (٢) :

كبي لهم يا أمية فاصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
وهذا اللون من محاسن الكلام ينتهي كتاب « البديع » ، وقد رأينا من
الجملة التي أمضيناها في رياضه أنه قد حوى ثمانية عشر لونا من ألوان البديع ،
وإن كان ابن المعتز قد أطلق لفظ « البديع » على الألوان الخمسة الأولى ،
وأطلق على بقية الألوان محاسن الكلام والشعر :

(١) ينظر أسرار البلاغة : ١ / ١٩٨ وما بعدها

(٢) البديع : ٧٥

وهناك ألوان أخرى وردت في كتب السابقين على دابن المعتز ، ،
كالسجع ، والازدواج ، وأسلوب الحكيم ، وغيرها ولم يعرض لها دابن
المعتز في كتابه وهذا لا ينقص من قدر كتابه ، فقد كان - كما قال - يهدف
إلى تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنون البديع ، وفيما
ذكره من ألوان دليل على ما قصده وهدف إليه .

كما أنه لم يدع أنه أحصى كل فنون البديع وخاضع الكلام ، بل ترك
الباب مقترحاً أمام الباحثين لإضافة ما يرون من ألوان .

وبعد أن انتهينا من استعراض كتاب دابن المعتز ، وتحليل موضوعاته
علينا أن ننتقل إلى القسم الثاني من هذا البحث .

ثانيا : بين التأثير والتأثير

مصطلح «البديع» ليس جديداً في كتاب «ابن المعتز» ولكنه عرف قبل ذلك ، وأطلق على الألوان المستطرفة ، والفنون الساحرة في الأسلوب ، من استعارة ، وتشبيه ، وتحليس ، ومطابقة .

ويذكر «أبو الفرج الأصفهاني» أن «سلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ هـ كان أول من أطلق هذا الاسم ، فيقول : وهو — يعني مسلماً — فيما زعموا ، أول من قال الشعر المعروف بالبديع ، هو لقب هذا الجنس البديع واللطيف ، وتبعه فيه جماعه ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي ، فإنه جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه (١) .

ويرى الجاحظ أن الرواة هم أول من أطلقوه ، فيقول معلقاً على بيت الأشهب بن ربيعة :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به
وما خير كف لاتنوء بساعد

قوله : هم ساعد الدهر ، إنما هو مثل ، وهو الذي نسميه الرواة البديع (٢) .

كما يرى الجاحظ أن الشعراء المحدثين قد احتذى بعضهم ببعض فيه ، فيقول :

وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن من المولدين

(١) الأنبي : ١٩ / ٣١

(٢) البيان والتبيين : ٤ / ٥٥

أصوب بديعا من بشار وابن هرمة (١) ، ويقول : والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب شعره فى البديع (٢) .

ومن دفاعه عن العرب ولغتهم جعل البديع من خواصهم فقال : والبديع مقصور على العرب ، ومن أجسده فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان (٣) .

« وابن المعتز ، نفسه يعترف بأن هذه التسمية ليست من ابتكاره ، وإنما هى من وضع المحدثين ، وقد كانت هذه الفنون موجودة فى الشعر العربى القديم ، واسكنها لم تعرف بهذا الاسم (٤) .

ورى مما سبق أن « ابن المعتز » لم يؤلف كتابه من فراغ ، ولكنه كان مسبوقا بإشارات إلى « البديع » وبعض ألوانه ، وهو من غير شك قد طالع ما كتبه سابقوه ، وتأثر بهم ، كما أنه قد ترك أثرا كبيرا فمن جاء بعده ، وهذا ما سنبينه فيما يلى :

١ - تأثره بالسابقين :

من أول الذين تأثر بهم « ابن المعتز » متقدموا اللغويين ، كالحليل بن أحمد ، والأصمى ، وقد استشهد أكثر من مرة بكل منهما (٥) .
كما تأثر كثيرا بالجاحظ ، الذى نشر فى كتابيه « البيان والتبيين » ، والحيوان ، كثيرا من مسائل البلاغة .

-
- | | |
|--------------------------------|--------------------------|
| (١) السابق : ١ / ٥٥ | (٢) السابق : ٤ / ٥٦ |
| (٢) السابق : ٤ / ٥٥ | (٤) ينظر البديع : ١ ، ٥٨ |
| (٥) ينظر البديع : ١٠ ، ٢٥ ، ٣٦ | |

فلقد سبق أجماحظ إلى الحديث عن الاستدارة ، والتعريض والكناية ،
والتشبيه ، وجودة الابتداء وهي من الأبواب التي تحدث عنها
« ابن المعتز » .

وصرح « ابن المعتز » في كتابه أنه تبع أجماحظ في « المذهب الكلامي »
وهو الباب الخامس من أبواب البديع الذي ذكرها « ابن المعتز » (١) .

وعما لا شك فيه أنه قد استفاد من كتابات « ابن قتيبة » و« المبرد » وهما
من مشاهير العلماء في عصره .

وقد عرض « ابن قتيبة » لبعض الألوان التي ذكرها « ابن المعتز »
كالاستدارة ، والكناية ، والمبالغة ، كما عرض المبرد لبعض الألوان ،
وخاصة التشبيه الذي أفاض في الحديث عنه .

بين ابن المعتز وثلعب :

كان أحمد بن يحيى « ثلعب » المتوفى سنة ٢٩١ هـ أستاذ « ابن المعتز »
الأول ، وكان « ابن المعتز » يعتر بتلميذه على « ثلعب » ، وظن يكن له الود
ويعترف له بالفضل ، ويراسله حتى في أشد ساعات الحرج وهو بين
جدران السجون .

وتروى لنا كتب الأدب الأرجوزة التي كتبها « ابن المعتز » من
سجنه إلى أستاذه « ثلعب » ، يبعثه شوقه إليه ، ويفصح له عن مدى تعلقه
به ، وهو يقول :

ما وجد صاد بالخيال موثق

(١) البديع : ٥٣

(٤ - مجلة دمنهور ع ٣)

بماء مزن بارد مصفوق
بالريح لم يكدر ولم يربق
جادت به أخلاق دجن مطبق
بصفرة إن تر شمساً تروق
ماد عليها كالزجاج الأزرق
صریح غيث خالص لم يمدق
إلا كوجدى بك لكن أتقى
يا فاتحاً لكل باب مغلق
وصيرفياً ناقداً للمنطق
إن قال هذا بهرج لم ينطق
إنا على البعاد والتفرق
لنلتقى بالذكر إن لم نلتق (١)

وقد ألف «ثعلب» كتابه «قواعد الشعر» ، وبحث فيه عدداً من المسائل
البلاغية ، والنقدية ، منها : التشبيه ، والكناية ، وسماها «لطافة المعنى» (٢) ،
والاستعارة (٣) ، وحسن الخروج (٤) ، والمطابقة وسماها «مجاورة
الأضداد» (٥) ، والجناس ، وسماها المطابق (٦) ، وغير ذلك .

ولم يشر «ثعلب» إلى تاريخ تأليف كتابه هذا ، ومن هنا اختلف العلماء
حول تأثر «ابن المعتز» بكتاب «قواعد الشعر» لثعلب .

-
- | | |
|------------------------|----------------------|
| (١) زهر الآداب : ٢١٧/١ | (٢) قواعد الشعر : ٤٢ |
| (٣) السابق : ٤٧ | (٤) السابق : ٥٠ |
| (٥) السابق : ٥٣ | (٦) السابق : ٥٦ |

فأستاذنا الدكتور أحمد موسى يرى : أن « ابن المعتز » سابق في تأليف كتابه ، حيث ألفه سنة : ٢٧٤ هـ ، وعلى هذا فلم يتأثر « بقواعد الشعر » (١) .

وأستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي يرى عكس ذلك فيقول : وابن المعتز من غير شك ، مدين لأستاذه « ثعلب » ، في « البديع » فنحن نؤكد نجزم بأن « ثعلبا » ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف « ابن المعتز » كتابه ، لأن « ثعلبا » عالم معمر ، ولو كان « ابن المعتز » سبقه بالتأليف ، لاستفاد من كتابه ، وأكثر من الحديث عن ألوان البديع (٢) .

ودليل أستاذنا الدكتور خفاجي يسهل الرد عليه ، إذ لا يتعين على اللاحق أن يستفيد من السابق ، كما أنه ليس شرطاً على اللاحق أن يزيد على السابق .

ولو كان الأمر كما قال أستاذنا ، فيمكن أن نقول : إن « ثعلبا » تكلم في كتابه عن موضوعات لم يتحدث عنها « ابن المعتز » كفنون الشعر وقواعده ، ولو أنه « ابن المعتز » كتابه بعد كتاب « ثعلب » ، لاستفاد منه ، وذكر هذه الفنون وغيرها .

لقد صرح « ابن المعتز » في كتابه بأنه لم يجمع فنون البديع أحد قبله ، فلماذا فتمه في هذا القول ، ولم يثبت لدينا عكسه .

وإذا كان « ثعلب » أول مؤلف في هذا الموضوع فكيف سكنت على دعوى تلميذه ؟ ولم يكذبه فيها ؟

(١) ينظر الصبيح البديعي : ١٣٨ .

(٢) ابن المعتز وراثته : ٦٠٦ .

ويرد الدكتور حنفى شرف على هذا بدليل غير مقطوع بصحة ،
فيقول : لعل « ثعلب » ، لم ير الكتاب ، أو رآه ولكنه مهم أنه يقصد أنه
أول من ألم تحت هذا الاسم لا أول مخترع ، وربما ظهر المؤلفان في زمن
واحد ، فتكون الأسبقية للأستاذ (١) .

أما قول الدكتور حنفى شرف : لعله لم يره ، فشكوك فيه ، إذ يستبعد
أن يخفى « ابن المعتز » عن أستاذه مثل هذا العمل ، وقوة الصلة بينهما ،
ودوام المراسلة والاتصال حتى في أحلك الظروف تؤيد ما قلناه .

« ثعلب » عاش بعد تأليف « البديع » سبع عشرة سنة ، ألم يتميز له
الاطلاع على الكتاب في هذه المدة الطويلة ؟

وهذه المدة التي عاشها « ثعلب » بعد ظهور « البديع » ليست كافية
لأن يؤلف فيها « قواعد الشعر » وما هو أكبر منه ؟ .

والذى يزيد أن نصل إليه : أنه لا ينفي المغالاة في إثبات تأثر
« ابن المعتز » بـ « ثعلب » حتى نسب إليه فضله الكبير ، وأثره البعيد في بناء
صرح البيان العربى ، في الوقت الذى لم نعر فيه على دليل قاطع بذلك .

والذى لا شك فيه أن بين الكتابين فروقا جوهرية يجب أن نشير
إليها :

(١) أن كتاب « قواعد الشعر » ، « ثعلب » ، تغلب عليه الصبغة النقدية ،
حيث ألف للحديث عن الشعر وفتوته من مدح وهجاء ، ورثاء واعتذار ،
وتشبيه وتشبيب .

وكتاب « البديع » ، لابن المعتز ، تغلب عليه الصبغة البلاغية ، فعمادو
الحديث عن فنون البديع ، ومحسنات الكلام .

(ب) يختلف كل من المؤلفين في بعض المصطلحات ، فثعلب يقول :
« محاورة الأضداد » ، وقد سماها « ابن المعتز » ، « المطابقة » ، وثعلب يقول :
« لطافه المعنى » ، وقد سماها ابن المعتز « السكناية والتعريض » ، وثعلب
يريد بالمطابق الخائض ، وقد فرق « ابن المعتز » بين اللونين .

(ج) كتاب « ابن المعتز » ، فباض بالشواهد الأدبية ، والأمثلة الجيدة
من القرآن الكريم والحديث الشريف والنثر والشعر في القديم والحديث ،
وكتاب « ثعلب » فقير في هذه الناحية .

وعلى كل فالسكتابان — مهما اختلف الباحثون حولهما — لهما قيمة
كبيرة في تاريخ النقد والبيان ، وهما من أول الخطوات الرائدة في
هذا الدرب .

كتاب البديع والثقافة اليونانية :

الذي يطالع كتاب « البديع » ، يحكم عليه بأنه عربي في شكله ومضمونه ،
فقد جمع فيه مؤلفه ألوانا من البديع ومحاسن الكلام ، كانت معروفة
عند اللغويين والأدباء المتقدمين كالخليل بن أحمد ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ،
وغيرهم ، ولكنها كانت مبعثرة في ثنايا السكتب لا يجمعها مؤلف واحد .

وسار في كتابه على منهج أدبي ذوقى قوامه ضرب الشواهد ، وجمع
الأمثلة ، وهو منهج يسير لا أثر فيه للفكر المنهجي ، وللاثقافة اليونانية .

ولكن الدكتور طه حسين أثار شبهة حول كتاب « البديع » ، يرى فيها
أن هذا السكتاب لم يسلم من أثر الغارة « الهلينية » ، ويبدو فيه أثر الثقافة
اليونانية .

وقد ذكر ذلك في مقدمته لكتاب « نقد النثر » فقال : ... وجد منذ

منتصف القرن الثالث يسانان : أحدهما عربي محافظ ، لا يقرب الفلسفة اليونانية إلا في كثير من التحفظ والاحتراص ، والآخر يوناني يحبر بالأخذ عن أرسطو .

على أن من الخطأ البين أن نعتقد أن البيان الذي نعتنقه بالمحافظة قد سلم من أثر الغارة الهلينية ، فقد يكرن عجيبا على أقل تقدير أن يظهر أول كتاب في البيان العلمي في ذات الوقت الذي ظهرت فيه ترجمة « كتاب الخطابة » لأرسطو ، ومع ذلك فهذا الذي كان .

لقد ترجم حنين بن إسحاق « كتاب الخطابة » ، ومن المحتمل أن تكون هذه الترجمة قد ظهرت بعد وفاة الجاحظ ، أي في النصف الثاني من القرن الثالث ، لأن حنين بن إسحاق توفي سنة ٢٩٨ هـ ، في هذه الفترة عينها وضع أمير المؤمنين الشاعر النعس عبدالله بن المعتز كتاب « البديع » .

لم أضلع على كتاب « البديع » هذا ولكن الذين نقلوا عنه أكثروا من ذكره كثرة تمكثنا من تصوره ، فهو عبارة عن تعداد لأنواع البديع مع الاستشهاد لكل نوع منها بشواهد من كلام القدماء والمعاصرين لابن المعتز ، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض ، وهم يقولون إن ابن المعتز أحصى في كتابه ثمانية عشر نوعا من أنواع البديع . من يدرمها في كتاب معاصره قدامة بن جعفر وفي كتب الذين جاءوا بعده يلاحظ فيها لا محالة أثرا يدينا للفصل الثالث من كتاب « الخطابة » وبعبارة أدق ، للقسم الأول من الفصل الثالث وهو الذي يبحث في « العبارة » (١) .

لقد أثار الدكتور طه حسين هذه المقالة من غير أن يطلع على كتاب « البديع » ، وساقدها كثيرون من تلمذوا عليه ، واعتنفوا آراءه ، ومنهم

(١) مقدمة نقد النثر : ١١ ، ١٢ .

الدكتور محمد مندور الذى اطلع على كتاب 'بديع'، وأجهد نفسه فى إثبات
تأثر ابن المعتز بأرسطو، وفى كتابه 'النقد المنهجي'، يقول: من أين أتى
وابن المعتز، بذلك الاصطلاحات؟

يقول ابن المعتز: إنه لم يسبقه إلى ذلك أحد، وأنه قد ألف كتابه سنة
٢٧٤ هـ ولكننا نعلم أن حنين بن إسحاق، قد ترجم كتاب 'الخطابة' لأرسطو،
وما يدل على أن هذا الكتاب قد عرّفه العرب، وليس بغريب أن يكونوا
قد أحاطوا بموضوعه قبل ترجمة حنين. ومع ذلك نستطيع أن نرجع إلى
نص أرسطو نفسه، فنجدّه فى الجزء الثالث من كتابه يتحدث عن العبارة،
وفيه يذكر الاستعارة، والطباق، والحناس، ورد الأعجاز على ما تقدمها،
وهذه أربعة من الخمسة التى ميز بها ابن المعتز، مذهب المحدثين، وأما الخامس
وهو المذهب الكلامي، فقد ذكر ابن المعتز نفسه أنه قد أحذه عن الجاحظ
وهو فى الواقع ليس من خصائص الصياغة الجديدة، بل هو منهج
عقلي (١) . . .

ويتحدث 'مندور' عن الاستعارة ويقول إن تعريف ابن المعتز لها
يكاد يكون تعريف أرسطو، ويتحدث عن الطباق ويقول إن لفظة طباق،
ما هى إلا ترجمة للفظ اليونانية، وابن المعتز على الأرجح - كان يعرف
تحليل أرسطو لهذا الوجه من البديع (٢).

ثم يقول: وابن المعتز لم يقتصر على التعريفات والتقسيم، بل عداها
إلى نقد المعبى من كل وجه من أوجه البديع التى ذكرها، وهو فى هذا
أيضا يشبه أرسطو الذى نجدّه فى نفس الفصل الثالث من 'خطابته'، ينتقد
ما فى بعض الأمثلة من عيوب (٣).

(١) النقد المنهجي: ٦١، ٦٢

(٢) السابق: ٦٣

(٣) السابق: ٦٥

الرد على هذه الشبهة :

من قراءتنا لما كتبه الدكتور طه حسين في مقدمة « نقد النثر » نرى أنه يستند في دعواه إلى دليلين :

الأول : ظهور ترجمه « خطابه » ، أرسطو في عصر « ابن المعتز » ، على يد حنين بن إسحاق .

والثاني : موضوعات الكتاب ومحتواه .

وإذا نظرنا في الدليل الأول وجدناه لا ينهض للحجة لأمر :

١ — أن ترجمة « حنين » ، « للخطابة » ، لم يعرف تاريخها الحقيقي ، وهل كانت قبل تأليف « البديع » ، أو بعده .

٢ — أن وفاة حنين سنة ٢٩٨ هـ أو ٢٩٦ هـ لا تدل على أنه ترجمه للخطابة قبل سنة ٣٧٤ هـ تاريخ تأليف « البديع » . فمن الجائز أن تكون الترجمة بعد هذا التاريخ ، والمدة الباقية في حياة حنين ، كافية لأكثر من هذا .

٣ — على فرض وقوع الترجمة قبل تأليف « البديع » ، هل كان فرضا على « ابن المعتز » ، أن يطلع على هذه الترجمة ؟ ؟ أليس من الجائز أن يكون « ابن المعتز » ، لم ير هذه الترجمة ؟ كما لم ير الدكتور طه حسين كتاب « البديع » ، مع أنه ظهر بتحقيق المستشرق الروسي كراتشكوفسكي سنة ١٩٣٥ .

ومن هذا يرى أن دليل الترجمة لا ينهض للاحتجاج به .

وإذا تأمنا الدليل الثاني وجدناه ساقطا لأمر :

١ — أن الدكتور طه حسين حكم على كتاب « البديع » ، قبل أن يطلع عليه ولا يصح الحكم على شيء إلا بعد رؤيته ودراسته بحيث يصبح الحاكم مؤهلا للحكم .

٢ — أن تصوره لكتاب البديع، من خلال «نقد الشعر» لقدامة، وغيره.
قصور غير دقيق، حيث ذكر أن الكتاب عبارة عن تعداد لأنواع البديع،
مع الاستشهاد لكل نوع منها... ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها
وبعض، والذي يطالع «البديع»، لا يجد فيه هذه الموازات التي تصورها
القاضي.

٣ — أن حكمه على «البديع» من خلال «نقد قدامة»، وغيره، حكم خاطئ.
لأن منهج «قدامة»، يختلف تمام الاختلاف عن منهج «ابن المعتز»،
فمنهج «قدامة» عقلي محض، ومنهج «ابن المعتز» أدبي ذوقي.

وقد فرق الدكتور مندور بين المهجين فقال: ابن المعتز، غير قدامة..
ابن المعتز يبدأ تفكيره من الوقائع والنظر فيها، وهو عربي صميم، سليم
الذوق، يعرف الشعر العربي ويتذوقه... وأما قدامة فعقليته شكلية صرفه،
وهو لا يبدأ بالنظر في الشعر، بل يكون أولاً هيكلاً لدراسته، ويحدد
تفاسيمه، أو إن شئت فقل: إنه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب، ثم
يأخذ في ملء أدرأجه» (١).

ونشاء على هذا يتضح أن مقولة الدكتور حه حسين لا تستند إلى أدلة
صحيحة، وهي شبهة لا أساس لها ولا دليل عليها.

وحينما فنظر في كلام الدكتور مندور نرى أنه يستدل بنفس الدليلين
السابقين دليل الترجمة ودليل الموضوعات.

ولكنه يختلف عن الدكتور حه حسين في الدليل الثاني نتيجة لقراءته
كتاب «البديع»، فقد أجهل نفسه في المقارنة بين التعريفات والموضوعات
ليثبت دعواه، وكلامه منقرض، بأمور:

١ — أن ألوان البديع التي تحدث عنها ابن المعتز، موجودة في كلام العرب وعرفها اللغويون والأدباء من قبله ، وقد وردت على لسان الخليل والأصمعي وأبي عبيدة وغيرهم ، فمن تأثر هؤلاء بخطابته دأرسطو ، ؟

٢ — أن ابن المعتز لم يدع أنه لم يسبقه إلى معرفة هذه الألوان أحد ، ولكنه ادعى أنه لم يسبق إلى جمع فنون البديع (١) . وهذا يدل على أنها كانت معروفة ولكنها غير مجموعة ولا منطجة في كتاب .

٣ — أن المنهج الذي سار عليه ابن المعتز في كتابه ، منهج بسيط لا أثر للمتلقي فيه . ولا يخضع لترتيب عقلي منقول عن اليونان .

٤ — إن القول بأن ابن المعتز نقل هذه الألوان عن خطابته دأرسطو فيه تجريد لعلماء العربية وأدبائها من معرفتهم بخصائص لغتهم ، وموهنتهم الحسن والقبيل فيها .

ولقد فطن لشعراء في الجاهلية إلى معرفة جيد الشعر من رديئه ، وحسنه من قبيحه ... أستبعد على ابن المعتز ، وهو شاعر وأديب ، أن يهتدي إلى معرفة المعيب من الشعر في لغته ، حتى يقلد في ذلك دأرسطو ، ؟ ؟

يقول الأستاذ علي الجندى مؤر كدا وحود الجناس في العربية :

الجناس من البلاغات الفطرية التي تسرى على الألسنة بلا عمل ولا تكلف ، وشواهد غزيرة في الأدب القديم والقرآن الكريم ولم نعر على شاهد واحد من الجناس اليوناني الذي تحدثوا عنه ، وأول من تحدث عنه الأصمعي ، ثم ابن المعتز ولا صلة لهما باليونانية ، (٢) .

(١) البديع : ٥٨

(٢) فن الجناس : ١٤ — ١٧

ولقد نفى الدكتور إبراهيم سلامة تأثر ابن المعتز ، بخطابة أرسطو فقال (١) : وعلى الرغم من أن كتاب « الخطابة » كان معروفاً في نهاية القرن الثالث الذي عاش فيه ابن المعتز ، فإننا لم نر على كتاب « البديع » أية مسحة من الترجمة أو أية لوثة من العقل الهليني . فالألوان التي ذكرها كلها مأخوذة مما نقل عن الشعراء ، والأدباء ، وهو فوق ذلك شاعر رفيع الحاسة ، واسع المحفوظ ، يستطيع أن يورد على النوع البديعي الواحد كثيراً من الشواهد والأمثلة .

ولقد تحدث المستشرق الروسي « كراتشكوفسكي » بهذه الحقيقة ، وبين أن التأثيرات اليونانية في البديع العربي لا يمكن الجزم بها بل من الصعب إثباتها فيقول : وما من شك أنه على صعيد الخلق الأدبي عامة ، لم يكن لأرسطو أي تأثير على اجاحظ أو أي كاتب عربي آخر في القرن التاسع (٢) ...

ويقول : فأسلوب ابن المعتز نفسه ، ومعرفة الخاطر ، والبداية في أعماله ، تتميز بشكل واضح عما نجده في أعمال فلاسفة اليونان (٣) .

ويقول : من الصعب إيجاد آثار للتفوذ اليوناني في نشوء البديع العربي . فقد ولد هذا الأخير في بيئة تختلف عن البيئة التي نشأ فيها البديع اليوناني كل الاختلاف (٤) .

وأكد أستاذة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أصالة كتاب « البديع »

(١) بلاغه أرسطو بين العرب واليونان : ٨٢ وما بعدها

(٢) علم البديع والبلاغة عند العرب : ٥٩

(٣) السابق : ٥٨

(٤) السابق : ٢٣

وبين أنه من أوائل مؤلفات ابن المعتز ، وقد ألفت في مرحلة الشباب قبل أن يلم بثقافة أخرى سوى الثقافة العربية (١) .

وهناك دليل آخر يمكن الاستدلال به في دحض شبهة تأثر «ابن المعتز» بخطابة ، أرسطو ، وهو أن ابن المعتز قد أنكر على معاصريه تفاحرهم بالبديع ، وجمع لهم من الشعر القديم ما أثبت لهم أنهم لم يأتوا بجديد في مجال القول البديع ، وأظهر نفخه بأنه أول جامع لفنون البديع ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد .

وكان من الطبيعي لو أنه تأثر بالثقافة اليونانية أن يهاجمه ، ويقولوا له وأنت أيضا لم تات بجديد ، وإنما نقلت عن أئوفان تراثهم ...

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يصل إلينا .

ومن هنا نرى أن الأدلة الكثيرة التي قدمناها تظهر بجلاء تام أن كتاب «البديع» وليد ثقافة عربية خالصة جاءت من رافدين نه منهما «ابن المعتز» :

الأول : تربيته في أحضان اللغويين والأدباء الذين كانوا عماد النهضة العلمية في هذا الوقت .

والثاني : صفاء أفكاره ، وحوذة قريحته ، وتمتعه بالخيال والشاعرية ، وقدرته على الابتكار والتجديد .

ونتهي كلامنا في تفنيد هذه الشبهة بكلام الدكتور شوقي ضيف في

رده على ما أثاره الدكتور طه حسين : « إن كل ما فى كتاب « البديع » ، عربى خالص ، وقد ألفه « ابن المعتز » ردا على من يلتمسون قواعد البلاغة فى المصنفات اليونانية ، والخارجين على قواعد العربية فى الشعر » (١) .

٢ - أثر ابن المعتز فى الدراسات البيانية :

حينما سبق « ابن المعتز » إلى وضع كتب « البديع » ، كان قد غرس النواة التى نبتت منها رياض هذا العلم ، وآتت ثمرا جنيا فى ميادين الأدب والبيان والنقد .

ولقد أثر كتاب « البديع » ، فى الدراسات البيانية التى ظهرت من بعده ، وترك « ابن المعتز » بكتابه بصمات واضحة المعلم فى تاريخ البيان العربى .

وفى الصفحات الوجيزة التالية نماذج من تأثر العلماء بكتاب « البديع » ، وهى من غير شك دلائل قوى على أثره الكبير فى بناء صرح الدراسات البيانية .

قدامة بن جعفر :

ألف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ كتابه « نقد الشعر » ولم يصرح بالأخذ عن « ابن المعتز » ، ولكن المطالع لكتابه يلحظ أنه عرف كتاب « البديع » واستخدمه واستفاد منه فى كتابه (٢) .

ويبدو أثر كتاب « البديع » فى « نقد الشعر » جليا واضحا ، فى مواضع

(١) البلاغة تطور تاريخ : ٧٠

(٢) علم البديع والبلاغة عند العرب : ٩٦

متفرقة ، فقد عرض د قدامة ، للائتمات (١) ، والتشبيه (٢) ، والإستعارة ،
وذكرها في المعاطلة (٣) وأمثلة ، مع ذكره د ابن المعتز .

كما بحث « الاعتراض » تحت اسم « التتبع » (٤) والإفراط في الصفة
تحت اسم « المبالغة » (٥) والطباق تحت اسم « التكافؤ » (٦) ، وتحدث عن
المطابق والمجانس (٧) ، وهما يدخلان في باب التجنيس عند ابن المعتز .

ويفتقر قدامة عن ابن المعتز باتباعه لمنهج عقلي صرف ، وإنفراجه
بالوان أخرى كثيرة لم يذكرها صاحب البديع .

الأمدي :

وجعل الحسن بن بشر الأمدي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ كتاب ابن المعتز
من مصادره ، وتقل عنه في مواضع كثيرة من « موازنته » ،

فاستشهد بما قاله د ابن المعتز ، في مقدمة كتابه عن سبق المتقدمين إلى
فنون البديع ، ولم كشار المحدثين منها ، وإسراف أبي تمام في سلوك هذا
المذهب حتى أساء في بعض شعره (٨) .

وأشاد بفضل د ابن المعتز ، وعلمه بالشعر . وحسن اختياراته

(١) ينظر نقد الشعر : ١٥٠

(٢) السابق : ١٢٤

(٣) السابق : ١٧٥

(٤) (٥) (٦) السابق : ١٤٤ — ١٤٧

(٧) السابق : ١٦٢

(٨) ينظر الموازنة : ١٨/١

في كتابه (١) ، واستند على أحكام ابن المعتز ، في حكمه بالقبح على بعض تجنيسات أبي تمام (٢) .

وأعجب الأمدى بمصطلح المطابقة ، عند ابن المعتز ، ، وعاب تسمية « قدامة » لهذا اللون بالتحكاف (٣) .

ومن هذا نرى مدى اعتداده بديع ابن المعتز وتأثره به .

أبو هلال :

وتأثر الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى ٣٩٥ هـ بابن المعتز إلى حد بعيد ، ففي كتاب «الصناعتين» جمع أبو هلال الباب التاسع لفنون البديع ، وذكر فيه الألوان التي ذكرها ابن المعتز وزاد عليها كثيراً ثم ذكره قدامة وغيره .

والأبواب التي أخذها أبو هلال من بديع ابن المعتز تكاد تكون صورة من أصلها ، في التعريف ، والأقسام ، والأمثلة ، وذكر المعيب (٤) .

وباب التشبيه عند أبي هلال فيه جل الأمثلة التي ذكرها ابن المعتز من التشبيهات الجيدة ، والتشبيهات المهيبة (٥) .

(١) السابق : ٢٣/١

(٢) السابق : ٢٨٦/١

(٣) السابق : ٢٩٢/١

(٤) ينظر الصناعتين في فصول : الإستعارة والمطابقة ، والتجنيس ، ورد الأعجاز ، وغير ذلك .

(٥) ينظر الصناعتين : ١٨٠ — ١٩٨

ولا تختلف طريقة أبي هلال في تناول أبواب البديع عن طريقة ابن المعتز . فهو يعرف انون البديعي ، ويقسمه ، ويذكر له أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر والنثر في القديم والحديث .

وعلى الجملة فآثر ابن المعتز ، في أبي هلال ، واضح تمام الوضوح ، ومن السهل إدراكه بمقارنة الأبواب المشتركة بينهما .

الباقلائي :

وتأثر أبو بكر محمد بن لطيب الباقلائي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ببديع ابن المعتز ، حيث ذكر في كتابه دإعجاز القرآن ، كثيراً من الأمثلة التي أوردها ابن المعتز ، ونقل صراحة في حديثه عن المطابقة (١) والتجنيس (٢) .

ابن رشيق :

ومن المتأثرين إلى حد كبير بابن المعتز أبو علي الحسن بن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، ويظهر ذلك جلياً حينما عرض في كتابه دالعمدة ، الألوان التي ذكرها ابن المعتز ، فقد نقل عن ابن المعتز كثيراً من تعاريفه للألوان ، وشرايدها (٣) .

وفي حديثه عن التصدير يذكر تقسيم ابن المعتز لهذا الباب ، ويذكر أمثله (٤) .

(١) ينظر الصناعتين : ١٨٠ — ١٩٨

(٢) ينظر إعجاز القرآن على هامش الإتيان : ١١٧/١ ، ١٢٠/١

(٣) ينظر العمدة : ٢٣٢/١ (٤) ينظر العمدة : ٣/٢

وفي تناوله لالتمعات يدخل فيه الاعتراض ، ويقول ، وقد جعل
« ابن المعتز » الاعتراض بابا على حديثه بعد باب الالتمعات (١) .

وفي باب الاستثناء يشير إلى أن ابن المعتز سماه « توكيد المدح
بما يشبه الذم » (٢) .

ويسوق كلام « ابن المعتز » في المذهب السكلاي ... ثم يقول : وقد
نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله المعتز ... واضطررت إلى ذلك فلة
الشواهد فيه (٣) .

بن منقذ :

وتأثر أسامة بن منقذ المولود سنة ٤٤٨ هـ و كتابه « البديع في نقد
الشعر » بابن المعتز وصرح بذلك في مقدمة كتابه فقال : هذا كتاب جمعت
فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر ، وذكر
محاسنه وعيوبه ، فلم يفضيلة الابتداع ، ولي فضيلة الاتباع ، والذي
وقفت عليه ، كتب « البديع » لابن المعتز ، وكتاب « الحالى » نجاتى (٤) .

وبالمقارنة بين الأبواب المتشابهة في الكتابين نرى شواهد
« ابن المعتز » تطل زاهية في كتاب « ابن منقذ » ، مما يدل على الاستفادة
والتأثر .

(١) السابق : ٤٥/٢

(٢) السابق : ٤٨/٢

(٣) السابق ٤٨/٢

(٤) البديع في نقد الشعر : ٨

ابن أبي الإصبع :

أما زكي الدين عبد العظيم بن الواحد المعروف بابن أبي الإصبع المصري ،
المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .

فقد تأثر في كتابيه « تحرير التحبير » و « بديع القرآن » ، إلى درجة
كبيرة ببديع ابن المعتز وقد جعله إمام البديع ، وصرح بأن كتابه من
المصادر التي اعتمد عليها (١) .

وسمى الأبواب التي وردت في كتابي ابن المعتز ، و « مقدمة الأبواب
الأصول (٢) » .

وبدأ كتابيه بذكر أبواب « ابن المعتز » ، ولما فرغ منها أخذ في ذكر
الأبواب التي أضافها « مقدمة » (٣) .

هذا ، وقد ظل المتأخرون من البلاغيين ، ينهلون من معين ابن المعتز ،
الفياض بالشواهد الأدبية ، فيسوقون أمثله ، ويرددون شواهد
في مؤلفاتهم .

ومن كل ما قدمناه نرى أن كتاب « البديع » أثر تأثيراً كبيراً
في الدراسات البيانية ، وظل مصدر آهاماً للمؤلفين في علوم البلاغة (٤) ،
ومن هنا كانت قيمة هذا الكتاب جليلة ، ومكانته لا ينكرها باحث .

(١) ينظر بديع القرآن : ٥

(٢) السابق : ١١٤

(٣) السابق : ٦٤

(٤) ينظر علم البديع والبلاغة عند العرب : ٣١

قيمة كتاب البديع :

بعد أن رأينا أثر كتاب « البديع » ، واطلعنا على تأثر البيانين به ، فإننا نستطيع بيسر أن نعرف قيمته ، ومكانته في تاريخ البيان العربي .

فهو أول مؤلف في البيان العربي على هذا النحو المنظم ، درس فيه « ابن المعتز » ، عناصر الجمال في الأسلوب العربي ، وجمع فيه محاسن الكلام التي ازدان بها كلام الفحول ، وترجع قيمة كتاب « البديع » ، إلى قاحيتين (١) .

الناحية البلاغية ، وذلك أنه أول كتاب ألف في البلاغة العربية على نحو منظم مفصل ، دون تشويش أو خروج عن موضوع التأليف .

والناحية النقدية : وذلك أنه أول كتاب تناول الأدب تناولاً فنياً ، وشرح بعض عناصر الحسن فيه ، وبه انتقل النقد إلى طور جديد ، هو طور العناية بالصورة وقد كان الجهد كله موجهاً إلى نقد المعاني والإشادة بقوتها ونفائتها .

وقد كشف « ابن المعتز » ، بهذا الكتاب عن ميزات المذهب الجديد في الأدب وهو مذهب البديع ، وحدد خصائصه (٢) . ودعا أصحابه إلى التزام الوسط فيه والاعتدال في استعماله اقتداءً بالقدماء الذين كانت تجري هذه الفنون على أسفتهم من غير عمل ، أو تكلف .

ويحاول بعض الباحثين أن يقلل من قيمة كتاب « البديع » ، بدعوى أن

(١) قدامة والنقد الأدبي : ٣٦

(٢) ينظر النقد المنهجي : ٦٠

الفنون التي تحدث عنها قد ذكرها العلماء السابقون ، ولم يكن لابن المعتز من فضل غير تحليل الأسماء والتعريفات تحليصاً جنى على تلك الفنون ودمغها بالشككية ، ووجه هم علماء البلاغة إلى ظاهر الدراسة الأدبية ، فتركوا اللب ، وأعجبوا بالجزئيات ، وأغرموا بالتزبد في الأسماء (١) .

وهذا الكلام يشتمل على قضيتين :

الأولى : أن فضل ابن المعتز ، ليس إلا في تحليل الأسماء والتعريفات .

والثانية : أنه بجمعه هذه الفنون قد جنى على الدراسات البلاغية ووجهها إلى الشككية والاهتمام بالجزئيات . . .

وهذا الكلام مردود عليه بأمور :

١ — أن ابن المعتز ، لم يقف عند الفنون التي ذكرها السابقون ولكنه أضاف فنونا جديدة لم يسبق إليها ومنه : رد الأعجاز على ما تقدمها ، والاعتراض ، وتأكيده المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهلزل الذي يراد به الجذ ، وغيرها .

٢ — أنه لو لم يكن له إلا تحليل الأسماء والتعريفات كما زعموا لكفاه لأنه من المعلوم أن العلوم لا تقدم ولا تنهض إلا بعد تحصيل مصطلحاتها وتعريفاتها ، ووظلت المصطلحات غير محدودة لما تقدم البيان العربي .

٣ — أن جمع ابن المعتز لهذه الفنون لا يؤخذ منه اهتمامه بالشكل ، ولا يحمله وزن الاهتمام بالجزئيات ، والتزبد من الأسماء . لأنه وجمعه لهذه الفنون قد اهتم بالمضمون وأكبر دليل على ذلك تحذره عن الخيب وإشارته إلى القبيح ، إذ أن الخيب في استعمال هذه الفنون يأتي من الاهتمام بالشكل دون المضمون .

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ٢٢٤ ، ومفهيم الأستعاره : ٥٢

ومنهج ، ابن المعتز ، في دراسة هذه الفنون منهج ذوقى يقوم على عرض الأمثلة ، وسوق الشواهد الكثيرة مما يساعد على تربية الممسات الأدبية ، وتنمية الحاسة النقدية ، وهذا من أهم أهداف دراسة علوم البلاغة .

وبعد : فإن الحقائق تنطق بأن لكتاب «البديع» قيمة كبيرة في تاريخ البيان العربى ، بمنهجته التى رسمه لدراسة فنون البلاغة ، وبتوجيهه الأذهان للبحث المنظم فى الدراسات البلاغية ، وهذا ما جعل أثره قوياً مشاهداً فى جل كتب البيان العربى على مر العصور .

وبهذا نصل إلى نهاية بحثنا عن كتاب البديع وأثره فى الدراسات البيانية ، ضارعين إلى الله عز وجل أن يسدد خطانا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دكتور / الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت
مدرس البلاغة والنقد

جَوْلَتِ وَرَأَى فِي شِعْرِ الْعُلَمَاءِ

الدكتور حلمي حسن أبو العز

مدرس الأدب والنقد
في كلية اللغة العربية بدمهور

ليس شريفاً عن تراثنا العربى لما نل بصروب الفن ، وألوان المعارف والعلوم أن يتكشف لنا فيه كل يوم جديد ، وأن تتراعى للباحثين فيه صنوف من الجلال العلمى والجمال الأدبى فى شتى المجالات ، حتى إن الشئ ليميدو جديداً مع قدم نشأته وبعد زمنه .

وموضوع بحثنا هذا عن شعر العلماء ، هو أحد الموضوعات الجديدة القديمة فى وقت واحد إن صح هذا .

فلطالما قرأنا وعاشنا كثيراً من العلماء داخل مؤلفاتهم أو خارج علومهم ومعارفهم ، وكنّا نعجب دائماً من كثرة ما حصله هذا لعالم أو ذاك من مختلف العلوم والفنون ، حتى بدت جموعهم بمعارفهم المتعددة . وعلومهم المتباينة ، أشبه الأشياء بشمس هائلة ، تصدر عن كل قرص منها أشعة مضيئة ومتعددة ، وإن خرجت من أصل ضوئى واحد .

ولقد راقى أن أقنأول أحد الجوانب الأدبية لدى نخبة من هؤلاء العلماء الأعلام . وهو الشعر بحاصة ، حتى أنهم ملاحظه الفنية ، وأذوق بحسى الأدبى التواضع بعض ثمراته ، رغبة فى الوقوف على ماهية هذا اللون الصادر عن نبأينت فى مجالات المعرفة قدراتهم ، وغمرت بالإبداع العلمية والمحصلات الفكرية حياتهم . فبدأ كل منهم أمة بمعارفه ، وموطننا يأوى إليه ذور البصائر فى مختلف الميادين .

وفى الحقيقة أن هناك شيئاً آخر كان له نفس الدور والأهمية فى دفعى إلى البحث فى هذا المجال ، وهو ما قرأته وسمعته من بعض النقاد المحدثين عن سمات الضعف البادية فى أشعار العلماء ، وحشد منظوماتهم بالكثير من القواعد . أو المصطلحات ، أو الأحكام ، أو النظريات ، إلى آخر ما لعلماء به صفة ، مما يحول بينهم وبين اللحاق بفردان الطلبة ، ممن صناعتهم الشعر دون سواه .

وما كدت أجمع غير قليل من المادة التي سأتناولها ، حتى راعني ما وجدته في تراثنا الجليل هؤلاء الكفء من أشعار ، بن من آيات منظومة في مختلف الفنون والأغراض ، صاعتها يد صناع ، وشملت - بجانب قدراتهم العلمية ومؤلفاتهم الفريدة في موادها وطرق معالجتها - عن مهارات في التنظيم ، وقدره على الإبداع والابتداع أيضا لدى الكثير منهم في تبحرهم الشعرية ، حتى فاقوا بقريضهم كثيرا من منظومات المتخصصين في الشعر ، والمتفردين بعمله في مختلف العصور .

وفي الواقع أنني كنت أشعر بالثشوة الغامرة في كثير من الحالات التي كانت تقع فيها تحت بصري إحدى التجارب الأدبية أو المنظومات الشعرية لأحد هؤلاء العلماء ، الذين تهيات مواهبهم لاستيعاب هذا الحشد الهائل من العلوم والآداب على وجه سواء حتى أصبح من المؤلف أن أجد النادرة الشعرية ، أو الطريقة الأدبية المستعملة ، لإمام في الفقه ، أو عالم في النحو أو حاذق في الفلك ، أو بصير بأمور الطب ، أو رائد في الرياضيات ، أو في الفلسفة ، أو غير ذلك من المواد العلمية ، مما يؤكد لنا أنه لا مناقضة بين الفقه والآدب مثلا ، أو بين الشعر في سائر الاتجاهات ومختلف الأغراض مادام الفقيه أو العالم متتبعا من المادة العلمية أو الأدبية ، إذ له على قدر هذا التثبت والاستيعاب للمواد ، تكون القدرة على دوام الإعطاء والإنتاج ، واختيار الملائم من الألفاظ ولعبارات لتعبير عن القصد وتوضيح الغاية إن كان الموضوع علميا ، أو الترجمة عن الشاعر والاحساسيس مما يناسبها من الكلمات أو الجمل إن كان الموضوع أدبيا .

ومن الطريف أن جل متطوعات هؤلاء العلماء لم تلق اهتمام مؤرخي الآدب أو النقاد كما يجب أن يكون الاهتمام ، فظل الكثير منها مغفورا بين ضيات الصحف والمكاتب ، تتجسد من خلالها ملاحظهم ، وتسكاد تسمع من بين السطور استغاثتها للأخذ بيدها .

ولعل ذلك يرجع إلى تلك النظرة غير المستأنية التي درج النقاد على توجيهها إلى أشعار العلماء ورميهم بضعف الملكة الشعرية ، وتحلفهم في هذا الميدان عن مطاولة تلك المسكاة المرموقة التي يحظى بها غيرهم من صنّاع القريض .

وعلى هذا ، فحسب المنظومة صعدنا — في نظر هؤلاء النقاد — أن تكون لعالم ، أو أن يحتوي بيت فيها على هذه العبارة أو تلك مما علب استعماله في أقوال العلماء (شرعيين أو لغويين أو غيرهم)

ومن هنا نرى عناية الإنصاف لأشعار العلماء ، إذ ليس مجرد استعمال عبارة فقهية ، أو لغوية .. الخ ، جديرا بإخراج أشعارهم عن تلك المدارات الفلسفية التي اصطفتها النقاد لأشعار الأدباء وحدهم .

فقد تعلب مادة من العلوم بذاتها على باقي المواد لدى الفقيه أو العالم ، أو يكون اشتغاله بمادة علمية معينة أكثر من سواها ، فلا ضير عليه إذا ما تحركت موهبة الشعرية آنذاك نجسها خاطرة بذاتها ، أو غرض بعينه ، أن ينظم أو يسجل مشاعره ، بأي الألفاظ أو العبارات ، أو الصور والأخيلة التي يراها ملائمة لموضوعه أو أبياته ، دون تحفظ من ألفاظ خاصة أو اقتصار على جمل معينة ، أو حرص على عبارات دون غيرها ، أو التزام بأخيلة محددة ، فهو بهذا يفقد نظامه الروح ، ويبقى جسداً هزئلاً يترقب يوم البحث والتشور .

فالعبرة كما نرى ليست في إدخال عبارة أو أكثر من مادة العالم التي كان يعايشها وقت نظامه لأبيات قصيدته ، ما دام غيرها لا يفي بمطلوبها في توضيح غايته ، فمن الضرورة أن تترك آثارها في شعره ، وإعنا الحيرة بقدرة العالم أو الشاعر على الترجمة الصادقة لما يعتل في نفسه تجاه هذا

الحديث أو ذاك ، بما يراه ملائماً للذوق الأدبي الرفيع من الأساليب وطرائق التعبير ، بأى الألفاظ أو العبارات شاء .

وبناء على هذا ، فأعتقد أنه لا يعد من الغريب الفنى ، ولا من المآخذ السيئة على هؤلاء العلماء وجود عبارة أو أكثر في منظوماتهم تلفت النظر إلى معرفتهم بهذا العلم أو ذاك ، بل إن من حق العالم الشاعر أن يبدى في بعض أبياته ما يشير إلى ملامحه العلمية ، ويذبه الغافلين إلى سعة إداركه ، وتعدد مواهبه وثقافته ، وإن كنت لا أتصور حرص هؤلاء العلماء على مثر هذا الحق ، إذ تناسب تلك الإشارات البرقية ، أو العبارات العلمية عفواً في منظوماتهم ، دون قصد منهم ، لغلبة هذه المسادة أو تلك عليهم ، وذلك أن لم يكن ميزة لهم فليس مأخذاً عليهم .

ومن هنا ، فلا يمكن أن يعيب مثلاً قول الفقيه الشافعى : حمد بن محمد بن إبراهيم السننى : (١)

تسبح ولا تستوفى حقه كله
وأبقى فلم يستقر قط كريم
ولا تغل فى شيء من الأمر واقصد
كلا طرفى قصد الأمور ذميم

إذ ليس بالغريب على فقيه عالم بأحكام الشريعة أن يقتبس هذا المعنى من قول الله الكريم : « ولا تجعل بك مغلوله إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً » (٢) .

(١) قيمة الدهر — للشعالى ج ٤ ص ٢٣٦

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٩

كما لا يجب على أب القاصم الزنجشري قوله في عتبه عن ارم و تقسيم
من هو دونه عليه :

وأخرى دهرى وقدم مشرى على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومذ أفلمح الجهال أيقنت أنى أفا الميم ، والأيام ، أفلمح أعلم ،

فإذا ما عرفنا أن « الأفلمح » هو مشقوق الشفة السفلى ، وأن الأءلم ،
هو مشقوق الشفة العليا (١) ، فإن من كان كذلك لا يستطيع أن ينطق
بحرف « الميم » ، التى رمز بها « الزنجشري » ، إلى نفسه ، حيث يريد أن يقول :
لأنه لم يعد حنيا بهذا الدهر ، لدى علت فيه الأسافل مع حيلهم ، وهوت فيه
منزلة الأعالى مع علمهم ، فأصبح بهذا الوضع « المقلوب » ، نسيا منسيا ، وكأنه
حرف الميم بين الشفتين المشقوقيتين للدهر الجهول .

أقول : إتنا مادمتا نعرف « الزنجشري » ، العالم بأصول اللغة ومخارج
حروفها ، والعلامة فى النحو ، والبلاغة ، والأدب ، والتفسير ، فوق حذقه
الشعر ، فإننا لا يمكن أن نعد هذه الألفاظ اللغوية مأخذا عليه ، أو قدحا
فى شعره كما يقول النقاد . بل من الإنصاف للرجل أن يقال : إن تعبيره هذا
وما احتواه من الخيال ، يعد من التشبيهات النادرة التى قد يمز على سواه
من فحول الشعر صوغها بهذا الأسلوب .

وفى إطار هذا المعنى أبيض ، تطالعنا أبيات أخرى جيدة لتعبير
والتصوير لعالم الطب ، والرياضيات ، والفلك ، والهندسة ، والفلسفة
أبى يعقوب الكندى يقول فيها (٢) :

أناف الذنابى على الأروى ففمض جفونك أو نكس

(١) انظر مادة « ملح » ، و « علم » ، فى كتب اللغة .

(٢) الحكم والأمثال — لابن سعيد العسكرى — ص ١٠٥

وعند مليكك فابغ العلو وبالوحدة اليوم فاستأنس
فإن الغنى في قلوب الرجال وإن الشوز بالأنفس
وإن تطعم النفس ما تشتهى تقشك جميع الذي تحتسى

خير للعلماء وأفاض الناس الاعتكاف والوحدة ، حتى لا تقع أبصارهم
على م في الحياة من المهازل وقلب الأوضاع الصحيحة ، إذ علت الأدفاب
على الرؤوس . وتبوا الأراذل أسمى المنازل في مجتمعنا الإنساني ، ولم يعد
للصفوة من العلماء غير الاستئناس بالوحدة ، وابتغاء مكانتهم ممن لا تخفى
عليه منزلتهم ومكانتهم سبحانه وتعالى .

ولو أننا نظرنا في بيته الأخير لوجدنا تدرسه لعلم الطب ، واشتغاله به
قد غلب عليه وقت إنشاده . « فشخص الداء ، و « أعطى الدواء ، خلال
هذا التشبيه الضمني الجدير ، الذي يدعو إلى الإعجاب بصوغه وحسن تأتبه
الألفاظ . وروعة ملامته للمعنى .

ومن هنا أيضا ، نرى أن من عدم الإنصاف رمى أشعاره بالضعف ،
لإتيانه بمثل كلمات : « تطعم ، و « تحتسى ، و « تقشك ، إذ قرشد إلى عمله بالطب
كما يشف تخبرها وحسن صوغها عن قدرات قر نظيرها عند من تفردوا
وبنسخ أردية القريض .

وعلى هذا ، فينبغي ألا نغيب كلمات : « الغربية ، و « البر ، و « البحر »
و « القفر ، و « الناس ، و « الأرض ، خلال ما يلي من أبيات مادام منشدها
أحد العلماء الجغرافيين وهو : محمد بن عبد الله الإدريسي الأندلسي وذلك
في قوله (١) :

ليت شعري أين قبري ضاع في « الغربية » عمري

لم أدع للعين ما تشاء — تناق في دبر ، و د بحر ،
 وخبرت الناس د والآر — ض ، لدى خير وشر
 لم أجد د جاراء ، ولا ددا — را ، كما في طي صدرى
 مكأنى لم أسر إلا — بميت أو د بفقر ،

إذ لا تغفلنا تلك الكلمات في مظهرها عن جلال معناها ، وجمال صوعها ومدى ملامتها دون غيرها في الوفاء بمقصود الشاعر ، حيث يشهد مصرع الوفاء بين الناس ، وتحول دون غيته غايات الآخرين .

وهكذا نجد أن هؤلاء العلماء قد عبروا عن أحاسيسهم بصدق وأدوا ما حال نحو أغرهم في كلمات منطومة ، وأبيات جيدة انصوع بحكمة النسيج ، جذبتنا نحوهم ، وجعلتنا نعائش أحاسيسهم ومشاعرهم إلى حين ، دون أن يكون لإحدى الكلمات أو العبارات العلمية ، أو اللغوية أثر في الحيلولة دون بوع قصدهم إلى مشاعر غيرهم . وحسبنا من العلماء ذلك ، وإلا فهاذا يمكن أن نحكم على من عنايتهم الشعر من بعض الفحول المتقدمين ، حين تبدو في منظوماتهم أمثال هذه التعبيرات الفقهية ، أو ما هو أكثر من تلك العبارات اقترابا من أقوال الفقهاء أو العلماء ؟

ولنفقرا — على سبيل المثال — قول الشاعر العباسي الشهير : محمد
 ابن عبد الله المهلبى ، حين يهجو إسماعيل دوح إلى مصادقته فترة ثم تبين له
 لؤمه ، وضعة نفسه ، فأعرض عنه وقال مخاطبا إياه (١) :

ما كنت إلا كلعيم ميت دعا إلى أكله اضطرار

يذ نجد لشاعر قد استغل تلك القاعدة الفقهية التي لا تبيح للإنسان أكل الميتة أو الجيفة إلا في حالة الاضطرار من أجل الحياة .

أقول : إن المهلبى قد استغل تلك القاعدة في هذا التشبيه الذى جسد الحاجة إلى مصادقته مع كراهيته له وبذنه فيه .

ثم لنقرأ قول حكيم الشعراء أبى الطيب المتننى ، و إحدى مراثيه فى عمر بن سليمان الشرايى (١) :

وذارك نى دون الملوك تخرجى

إذا عن بحر لم يحز لى التيمم

فهو يتجنب الحرج وفعل ما يلام عليه ، حين يخفى سيف الدولة وحده بالزيارة ويعدل عن زورة من عداه ، لأنه البحر ، وغيره من الملوك فتم و تراب ، وهل يباح في وجود البحر تيمم ؟

إن المتننى أيضا يستغل تلك القاعدة الفقهية التى تبطل التيمم فى حضرة الماء ايضاً ، غلب تلك الصداغة الرائعة فى هذا التشبيه الضمنى البليغ .

ثم لنقرأ بيتى الشاعر المهجاء : دعبل بن عى الخزاعى (الذى لم يسلم من لسانه أحد) حين يقول (٢) :

يأليت شعرى كيف نوميك يا صاحبي إذا دمي سفكا

لا تأخذنا بظلامتى أحداً قلبى وطرفى فى دمي اشتركا

فحين أراداه مهم لسيابة لم يزد أن يظلم غيره فى سفك دمه ، أو يشهد شاهد إلا على قلبه وعينه ، إذ ارتكبها وحدهما ذلك الجرم ، وجرأه إلى ذلك المصير ، وشاهدك قاتلاك ، كما نعلم .

فهل يمكن أن نتهم أحداً من هؤلاء المفحول فى شعره ، أو نقول

(١) دوان المتننى (شرح البرقوقى) ج ٤ ص ٢١٣

(٢) الأغانى - للأصفهاني - ج ٢٢ ص ٧٧٨٢ (دار الشعب) .

إن أعمارهم تعد من أشعار الفقهاء لصياغتهم بعض الأحكام الشرعية في بعض الآيات ؟

أعتقد أنك توافقني على الإجابة بالنفي ، وإلا فأي حكم أيضا يمكن أن تطلقه على أشعار أبي الطيب المتنبي ، حين يأخذ معنى بيت لفقيه الشافعية : منصور بن اسماعيل ، ثم يصيغه في أحد أبيانه ؟

فلنقرأ معاً قول الفقيه الشافعي (١) :

أقول إن سألوني عن سماحته ولست ممن يطيل القول إن مدحا
لو أن مافيه من حود تقسمه أولاد آدم عادوا كلهم سمحا

ثم لنقرأ قول حكيم الشعراء (٢) :

لو فرق الكرم المفرق ماله
في الناس ، لم يك في الزمان شحيح

إذ لا يخفى ما بين ثلثي أبيات الفقيه وبين بيت المتنبي من وشائج القرى بل والاتصاف في بوثقة واحدة .

من يرى بشعر المتنبي لهذا التضمين ، أو لأنه أخذ معنى يتيه من الشاعر العالم دون أن يرميه بالضعف أو يعيبه لمجرد أنه شعر فقيه ؟ أرى أنك توافقني على الإجابة بالنفي هنا أيضاً .

وأعتقد أن هذا القدر من الأضواء كاف لتوضيح الرؤية تجاه ما تحيرناه من نماذج شعرية لبعض العلماء ، والأدباء ، وكيف طعمت بعض منظوماتهم بمصطلحات علمية ، أو أحكام شرعية ، أو قواعد نحوية ،

(١) التبيان ج ١ ص ٢٥٠

(٢) ديوان المتنبي ج ١ ص ٣٧٤

أو دلالات لغوية ، وغير ذلك مما له بالعلوم صلة حيث تدعو الحاجة إلى هذا عند الأديب . أو تغلب المهنة بذلك لدى العالم ، إذ لا ضير ولا حرج عن أيهما في هذا ، مادامت الألفاظ والمعاني ليست مأكلا لفئة دون غيرها أو أن للعلماء ما ليس للأدباء من وسائل التعبير والتصوير ، فالعبرة كاهنة فيما لدى الشاعر — عالما أو أديبا — من القدرة على تخيير الألفاظ وانتقاء العبارات ، وجودة الصياغة ، وملائمة التصوير ، وذلك لا يتأتى بغير تمكن الناظم وثبته من المادة ، وعلى قدر ثقافته وعمق معرفته ورسوخ قدمه فيها وإلمامه بها ، تكون قدرته على الإبداع في النظم ، والسمو في الغاية ، ومواصلة الإعطاء .

وبناء على هذا ، فليس من حق الناقد أن يقذف المنظومة الشعرية بالضحالة أو بالضعف لأن نظمها من العلماء ، أو لمجرد احتوائها على بعض الكلمات أو المصطلحات العلمية ، بنفس القدر الذي لا يبيح له الحكم بالجوادة أو بالقوة على منظومة أخرى ، لأن صاحبها ليس من العلماء وإن تخللت أبياتها بعض العبارات أو المصطلحات مما سبق الحديث عنها ، وذلك لأن المهمة الحقيقية والمثالية للناقد هي أن يعمم النظر في النص (للعالم أو الأديب) فيجيبه إذا ما بدت الكلمة أو العبارة المقتبسة نافية عن الدوق الأدبي السليم ، أو تهاوت من الضعف بين جاراتها في البيت الشعري فأحدثت به هزة في المعنى ، أو اضطرابا في الفكرة ، أو خللا في الصياغة والتركيب ، وإلا حكم لصاحب النص بالجودة والشاعرية .

كل هذا دون تحيز لفئة ، أو لشخص ، أو سير وراء الهوى ؛
فذلك ادعى للحكم على الناقد ، أو له أيضا ، من الآخرين .

ومادمنا في وياض الأدب — وما أجملها وأسعد القلوب بها — فلنخط

بضع خطوات في رحباتها الزاهرة النضرة ، ولتأمل بخاصة فيما أفضاته
وتعهدته أيدي علمائها الشعراء ، حيث فتخبر لهم بعض الجنى ، ونقطف
من غراسهم المتباينة خير الثمار .

ولعل من أكثر الأغراض طرافة في منظومات العلماء هو : الاعتداد
بالنفس ، أو ما يسمى بغرض ، الفخر ، لدى غيرهم من الشعراء .

إذ نجد للعلماء في هذا المقام أو الغرض الفنى ما يبين أفعالهم
وأفكارهم ومعانيهم ، وأحيلتهم في نفس الغرض .

فعدنا بالشعراء أن يفتخروا ، أو يفاخروا بالنسب ، والجاه والغنى
والشجاعة .. إلخ

ولكن ما نجد لعلمائنا الشعراء ، يسمى فوق هذه الغايات إذ يناون
ياقوالهم عما يقال من هيبتهم ، أو يخش وقارهم ، ولا يصدر عنهم ما يخل
بوزعهم ومكانتهم بين سواهم ، فهم يفاخرون بفقرهم ، ويباهون بعلمهم
ويكثرون من القول في الترفع بذواتهم ، وتحقير كل ما يجد غاية لخيرهم من
ألوان المتع والتعظيم والجاه في الحياة ،

فها هو ذا سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب ، يكتب إلى الخليل بن
أحمد الفراهيدي — وكان سليمان من المحبين له ، والمقدرين لفضله وعلمه
يستزيه إلى السند ، حيث كان سليمان واليا عليها ، فيرفض الخليل تلبية
دعوته ، ويكتب إلى حامل الدعوة من سليمان هذين البيتين :

أبلغ سليمان أنى عنه في سعة

وفي غنى غير أنى لست ذا مال

الرزق عن قدر ، لا الضمف ينقصه

ولا يزيدك فيه حول محال

وعندما بلغ قوله هذا سليمان ، أرسل إليه بهدية ومال كثير ، ولكن الخليل يردّها إليه ، وينشد قوله : (١)

وخصلة يكتر الشيطان إن ذكرت
منها التعجب ، جاءت من سليمان

لا تعجبن خير زل من يده
فالكوكب النحاس يسقى الأرض أحيانا

إد روى الخليل بن أحمد في كلماته قائما برزقه المقدر له ، وأنه ليس بحاجة إلى عطاء مخلوق ، لأنه يعلمه و سعة وغنى عن ذوى الجاه حتى وإن افتقد المال ، أو عصب الحياة كما نقول .

وما هو ذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة (أحد الفقهاء السبعة في المدينة) يغضب من الخليفة العالم الراشد : عمر بن عبد العزيز ، وذلك حين يذهب إليه عبيد الله مستأذنا في الدخول عليه ، فيقفه الحاجب محيلا بينه وبين الدخول ، محتجا بأن الخليفة يتفرد بعبيد الله بن عمر بن عثمان بن عثمان لأمر من الأمور ، فيعود عبيد الله إلى بيته ، ويكتب إلى عمر بن عبد العزيز أبياتا يقول فيها : (٢)

ولم ي امرؤ من يصفنى الود يلفنى
وإن نزلت داريه دائم لوصل

(١) الأوراق - المصولى - قسم أشعار أولاد الخلفاء ص ١٥ وفيه نسب هذان البيتان لاسماعيل بن سماعة في ذم والى الرقة : سليمان بن المنصور وفيه كلمة «وزلة» بدلا من كلمة «وخصلة» .

(٢) الأغاني ج ٩ ص ٣٢٦٤

عزبز إخائي ، لا يغفل مودتي
 من الناس إلا مسلم كامل العقل
 ولولا اتقائي الله قلت قصيدة
 تسير بها الركبان ، أبردها يغلي
 بها تنقضي الأحلاس (١) في كل منزل
 وينفي الكرى عنه بها صاحب الرحل
 كفاني يسير إذ أراك بحاجتي
 كليل اللسان ، ما تمر وما تحلى
 تلاوذ (٢) بالآبواب مني مخافة إل
 - ملامة ، والإخلاف شر من البخل
 ابن لي ، فكن مثلي ، أو ابتغ صاحباً
 كشك ، إنى تابع صاحباً مثلي

يعول الرواة : إن عمر لما أخبر بأبيات عبيد الله الفقيه ، تأثر تأثراً
 شديداً ، ثم بعث إليه عراك بن مالك ، وابن أبي خيثمة ، يعذرانه عنده ،
 ويقولان له بلسان عمر : إن عمر يقسم بالله ما علم بمجيئك ولا برد الحاحب
 إياك ، وأقبل عذره ، فعذره .

فأمّ تقدير من خليفة يطاول هذا التقدير لرجل مكفوف البصر ؟ إنه
 العلم وفضله ، وصدق الحق القائل : دبر مع الله الذين آمنوا منكم ، والدين
 أوتوا العلم درجات .

ثم لنعد إلى الآيات ، وشتأمل قليلاً فيما قاله عبيد الله الفقيه للحليمه

(١) الأحلاس (جمع حلس) وهو ما يلي ظهر البعير أو الدابة

(٢) تلاوذ : تراوغ وتهرب

فيها . أنت ترى معنى كيف استطاع هذا العالم ، أن يسلك بقصيدته مسائل المطبوعين من الشعراء ، فيتدرج بالفاظه ، ومعانيه ، وأخيلته ، في رجة مشاعره ، وتجسيد أثر فجيئته في نفسه ، إذ أمى تقديره من حاجب الخليفة ، ظاناً علم الخليفة بذلك ، ود إن بعض الظن إثم .

فأراه في بيتيه الأولين يرسم بعض حاله وصفاته التي جعلها عنه الخليفة ، إذ لم يكن جديراً بأحوته ومودته غير المسلم الكامل العقل .

وهكذا ، وبهذا لندر من الغلظة والقسوة يجازي الخليفة عمر بن عبد العزيز ، مقابل رفض حاجبه السماح له بلقاء عبيد الله الفقيه .

ثم يبدى نفسه في ثالث الأبيات ورابعها وهو يحاول كظم غيظه ، وكأنه لم يرق بالجزاء إلى ما يليق بفعل الخليفة ، حيث تحول خشية الفقيه من الله دون هجاء عمر ، بما ينفي الكرى ويقض المضاجع من الكلمات .

ثم تسبب الألفاظ القاسية ، والعبارات القارضة الموجهة في خامس الأبيات وسادسها ، موجهة إلى جسد الخليفة ، إذ يبديه كليس اللسان ، قليل الحيلة أمام الحاجة اليسيرة . وأن لقاء عمر به مع بخله كان أهو على نفس عبيد الله من تهر به منه وخشيته مواجهته .

وفي النهاية يختم أبياته بتلك النصيحة القاسية التي لا يتحملها غير عمر بن عبد العزيز ، وظنى أنها لا تصدر آنذاك أيضاً إلا من عبيد الله الفقيه .

فأله در الخليفة عمر عبد العزيز ، حين سمع هذه الأبيات من الرجل ، فلم يأمر بمقابله ، وإنما يطلب منه الصفح وقبول العذر .

ولله در العالم الفقيه والشاعر المطبوع ، إذ لم يخش إلا الله فأعلن غضبه في هذه الأبيات ، التي حفظت للألم ، وللعلماء في عصره مكانتهم .

وهو هو ذا أيضاً : أبو القاسم الشاطبي (الفقيه الزاهد) يرسل إليه أحد
أحد أمراء عصره رسولا يستدعيه عنده ، ليستفتيه في أمر ضاق به من
حواله ، وكان الأمير قد علم مكانة أبي القاسم وفضل منزلته في العلم والقضاء ،
فيرد الشاطبي رسول الأمير بورقة صغيرة ، طالبا إعطاءها لأمره . بعد
أن نظم فيها هذين البيتين :

قل للأمير مقالة من عالم نطق نبيه
إن الفقيه إذا أتى أبوا بكم لا خير فيه

فأى إعتداد بالنفس وإعتزاز بالعلم يسمو فوق هذه السكامات الموحزة
والمنظومة في بيتي الشاطبي الفقيه ؟

ثم لنستمع إلى صوت الإمام الشافعي رضي الله عنه في هذه الأبيات
التي تمجد همته العاليه ونفسه الحرة الأبية ، وتجدد قناعاته ورضاه بالقليل
من القوت والمال ، وكيف أن ذلك لا يلجئه لغير الله ، ولا يشعره بالحاجة
إلى أي مخلوق ، فيقول (١) :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أهدم قبرا
همي هممة الملوك ، ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما قنعت بالقوت عري
فلماذا أزور زيدا وعمرا

والشافعي وأمثاله من العلماء في هذا المقام منظومات غير قليلة تؤكدها

(١) ديوان الشافعي ص ٥٨ تحقيق الدكتور عبد المنعم خفاجي

أنهم يتجهون بمش هذه الألوان الفنية من الفخر أو الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالعلم اتجاهات هندية ، وينشون به منحى جليلا من الرفع والسمو بالنفس البشرية لا يعرفه غير ذوى البصيرة والفاهين فى الحياة .

ولنقرأ للشاعى أيضاً هذه الأبيات لنرى هذا اللون الغريب من الفخر حين يقول (١) :

على ثياب لو يساع جميعها
فلس ، لكان الفلاس ههنا أكثر
وفيهن نفس لو يقامر ببعضها
نفوس الورى ، كانت أجل وأكبر
وما ضر نصل السيف أخلاق غمده
إذا كان عضيا حيث وجهته فرا

فليست غاية الإمام وأمثاله المباشرة بما يزدان به غيره من فاخر الثياب وإنما مطلبه الكمال ، وعايته معالى الأمور ، وما عليه بعد ذلك أن يستره من الثياب مالا يقدر بفلس واحد ، ففى كان النمد الخلق أو الجفن البالى مفقدا قيمة السيف القاطع ؟

إنه نخر العلماء بالعم ، وز هوهم بالخلق الكريم ، خلال كدات منظومة ، وأبيات من سحر البيان .

ثم لنجتم هذا اللون الفنى من نظم العلماء ، بما أنشده القاضى الشاعر :
أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى (صاحب الوساطة) حيث يقول (٢) :

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٧ ص ٢٢٠

(٢) بديعة الدهر ج ٤ ص ٢٣

يقولون لى فيك انقباض وانعما
رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
ولكن نفس الحر تحمل الظما
ولم أقض حق العلم إن كان كذا
بدا مطمع صيرته لى ملما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتي
لأخدم من لاقيت ، لكن لأخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة
إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
بحياه بالأطماع حتى تمهما

إنها كلمات مدادها التواضع فى روعة ، أو الرفة فى تواضع ، وهذا
شأن العلماء لا المتعلمين ، وسعادة الزهاد لا المتزهدين ، حيث لا يعدل
ابتهاج نفوسهم بالعلم وتقرغهم إليه أى جاء أو سلطان .

وبهذا نرى القاضى الشاعر قد جمع فى أبياته القليلة غايات كثيرة ، يتوجها
شرف المعنى ورقة الأسلوب . وروعة التصوير ، وحسن تأت للفكرة
بما يشهد له بالجودة وسلامة الطبع الشعرى .

وهكذا يتراى لنا اعتداد العلماء بأنفسهم وبعلمهم غرضا مستقلا ،

احتوته منظوماتهم وباينت فيه أفكارهم ومعاينهم وأخيلتهم غرض الفخر
المعهود لدى غيرهم من الشعراء .

ومع ذلك فقد وجدنا لغير قليل منهم أيضا منظومات في الفخر ،
يجادون بها سواهم وتميز بسمة التطاول على أقـدار الناس . والترفـع
بذواتهم عن غيرهم .

ولا شك في أن لتنفس البشرية دورها في هذا الأمر ، وإلـهم ليسوا
بمأنى عن الزال والوقوع في بعض الهذات والاختـاء كغيرهم من الناس
في دروب الحياة .

ومن منظومات هذا اللون الفخرى لدى العلماء قول أبي المظفر : محمد
ابن أحمد الأبيوردى الخرساني ، وهو أموي النسب ، وكان عالم فقيها ،
وشاعراً أديباً (١) :

الناس من خولى والدهر من خدى
وقفة المجد عدى موطىء القدم

والنسر يتبع سيفي حين يلحظه
والدهر ينشد ما يهوى به قلبى

لو صيفت الأرض لى دون الورى ذهباً
لم ترضها - لمرجى قاتلى - همى

وهو كما ترى ضرب من المغالاة في الفخر بنفسه ، بل والإعراق فيه
حسب ما كان سائداً في عصر بني أمية . حيث كانت تتأجج نيران العصبية
وبخاصة لمن كانوا ينتمون إلى بني أمية كفقهاءنا الشعراء .

فهم بقاء له هذا يدور في قلبك قومه عن بدهم أمر الدولة كما نرى ،
ولإفاني لعالم فقيه أن يتحدث عن نفسه هذه الصورة ، حيث تلاحق
النسور غزواته ويردد ازمن أحداثه ، وتزل تحت قدمه أسنى الغايات ،
وتخضع أمامه الحياه والأحباء ويستجير بذهب الأرض عطاء لمن يطلب
منه النوال ؟

إنها نفس الإنسان ، وملكة الشعر ، ودلن النفس لأماره بالسوء ،
صدق الله العظيم .

وما هو ذا إمامنا الشافعي رضي الله عنه يفتخر ببعض أبيات يقول
فيها وإن بدامة حفتنا شديد الحذر (١) :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكتبت اليوم أشعر من لبيد
وأشجع في النوري من كل ليث وآل مهلب وبني يزيد
ولولا خشية الرحمن ربي حسبت الناس كلهم عبيدي

فانظر إلى ما أحدثه صدر البيت الأخير من إعتدال ووقوف على
حدة الطريق المستقيم . في الوقت الذي تسالت فكرته وما يرمى إليه من
رغبة وهوى بشرى إلى غيره من الناس .

إن التمسك من العلم والشعر معاً وحسبه أمام الله والناس هذا .

وإذا ما إنتقلنا إلى فن آخر كالمدح مثلاً ، وجدنا للعلماء فيه أيضاً
ما ليس لهم ، فهم لا يمتدحون - كباقي الشعراء - لطلب دفا . أو
لتحقيق غية ، أو ترافاً إلى ذي جاه وسلطان وإنما الجديد في هذا الفن أن
العلماء يرفون بمدائحهم فوق تلك الغايات ، حتى لا يظلمون بها النوال أو

العطاء ممن يسعى غيرهم إليه ويريقون أمامه بمدائحهم ماء أروجه والكرامة في غالب الأحيان ، وإنما كان العلماء يرجون بها رضا الله سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام فقصر مدائحهم وتوسلاتهم التابعة من قلوبهم الخاشعة . على ذات الله ورسوله وأحبائهما من آل البيت النبوي الطاهر .

وبذا سميت مدائحهم ، وارتقت غايتهم ، وكان لهم في هذا اللون ما لا يماول مدحات غيرهم من المتكسبين .

ومن هنا فلم يكن العالم الشاذ عن الجماعة ، والذي دعت الضرورة ، أو جلب عليه الهوى وقتا فامتدح غيره من أولى الأمر في الدنيا ، بمنأى عن النيل منه أو التعريض به من سواه ، ومقصورة أبي زيد المكودي (العالم السجوي) في العتب على ابن دريد بمدحته ، أو مقصورية في أبي ميكل الشهيرة ، وكذلك في العتب أيضا على حازم القرطاجني ، بمدحته أو مقصورية أيضا في المستنصر الحفصي ، تعدد شهاداً على إتخاذ العلماء سبيلاً موحداً في مدحاتهم ، وأنهم لا يسرون من خرج عن الجادة دون توجيه أو تعديل للمسار ، فبدت إنجازات العلماء في مدائحهم وهي تعرج دائماً على مدارج الكمال ، حيث تنصهر دواتهم في تلك المدائح للذات العلية ويتغنى فيها بالحب الإلهي الطاهر ، فتتدى أقوالهم فيها حللاً خاصه من السمو الروحي ورفعة الغاية والمراد .

وإن شئت فقرأ معنى قول أبي القاسم السهيلي (صاحب الروض الأنف) وهو يمتدح من بيده الأمر ويسأل من يملك الإعطاء (١) :

سأله ما شئت ، إن يمينه تسح دقاها بالمني والرهائب

فحسى ربي في الهزائن ملجأ
وحرزا إذا حيفت مهام النوائب

إن، دون شك صفات قدسية وكلمات منظومة بليغة صعدت أنفاس
فقية من قلب مؤمن زاخر بصدق العمودية لمن رفعت دونه الحجب حيث
لا حشية أمام فيوصات رحمته من نوازل الأيام وحدثان الدهر .

ومنظومات هذا اللون من المدائح النقية وقصائد العشق والتفاني في
الذات الباقية تنفذ دونها الكلمات ، وحسبنا ما رمزنا به في هذا المقام ،
فلصاحب السيرة العطرة أيضا عليه الصلاة والسلام مدحاته التي فاقت كل
فتون الشعر عند هؤلاء العلماء ، حيث لا تملق من مدحه ، ولا رياء في مرد
حلائل أعماله ، وكيف لا يرقون بأشعارهم الغاية في هذا المقام ، وهم
الذين يحشون الله من عبادته ، ويمتدحون من لا تداني بأسمى صفات العالمين
صفاته صلوات الله وسلامه عليه .

ومن هنا أيضا فحسبنا بعض أبيات نجزتها من إحدى المطولات في
مدح الرسول ﷺ حيث يتردد البصر في حيرة ، ويقف المرء مشدوها
أمام عشرات القصائد والمطولات ، دون قدرة على اختيار إحداها أو جزء
من أبيات بعضها .

ولعل فيما أنشده العالم الأديب ابن أبي الحصال الذي كان يعمل كاتباً
لعلي بن يوسف بن قاشفين بمراكش في القرن السادس الهجري ما يروى
بعض الظام الروحي ويخفف من غلواء الصباية والحب لساكن المدينة
الحبيب عليه الصلاة والسلام وذلك بذكر أبيات من مدحته النبوية التي
يستهلمها بقوله (١) :

إليك فهمي والفؤاد يثرب
 وإن عاقى عن مطلع الوحي مغربي
 أعلل بآمال نفساً أغرها
 بتقديم غاياتي وتأخير مذهبي
 ودينى على الآيام زورة أحمد
 فهل ينقضى دينى ويقرب مطلبي
 وهل أردن فتمس الرسول بطيبة
 فبادر أحشائي وباطيب مشربي
 وهل فضلت من مركب العمر فضلة
 قبلغنى أم لا بلاغ لمركبي
 ألا ليت زادى شربة من مياهها
 وهل مثلها ربا لفلة مذنب
 ويا ليتنى فيها إلى الله صابر
 وقلبي عن الإيمان غير مقلب

ثم يطول نفس العام المحب لرسول الله ﷺ بأبياب يتحسر فيها على مافات
 من عمره دون أن يشتري الجنان بعزمه في سبيل الله ، وكيف أن التوفيق
 أخطاه وفاز غيره بما كان يرجو التقرب به ، ثم يعود إلى ما كان يبنى
 به نفسه من زورة الرسول الحبيب عليه السلام فيقول :

أمانى قد أفنى الشباب إنتظارها
 وكيف بما أعيأ الشباب لأشعب
 وقد كنت أسرى في الظلام بأدهم
 فما أنا أغدو في الصباح بأشهب
 فمن لى وأنى لى بريح تحطى إلى ذروة البيت الرفيع المطنب

إلى الهشمي الأبطحي ، محمد
إلى خاتم الرسل المكين المقرب
إلى صفوة الله الأمين لوجيه
أبي القاسم الهادي إلى خير مشعب
إلى ابن الذبيحين الذي صيغ بحسبه
ولما تصغ شمس ولا بدر غيب

ومن كلمات النور المدحى أيضا تطالعنا هذه الأبيات التي يرويها
الصفدي في كتابه : « نكت الهميان » (١) ، مع غيرها للعالم الفقه المحدث
الأديب الرباني : جمال الدين أبي زكريا يحيى بن يوسف المصري ،
الذي يقول عنه ابن تغري بردي : (٢) إن مدائح في النبي ﷺ تقارب
عشرين مجلدا ، وهي استعراض نظمى رائع للسيرة العطرة ، بما فيها من
من المعجزات ، والغزوات ، والإشادة بالخلفاء الراشدين ، وحسبنا هذه
الأبيات من « خائيتة » الطويلة في مدحه عليه السلام حيث يقول فيها :

يا خاتم الرسل الكرام وفاتح الدخيرات ، يا متواصعا شاما
يا من رست وسمت قواعد دينه وبه هوى أس الضلال وساما
يا خير من شد الرحال لقصده حادى المطى وفي هواه أبا
عظفا على عبيد تعاق حبيكم صفلا وفي صدق المحبة شاما

والحق أن باب مدائح العلماء في هذا المقام رحب فسيح ، وللفقهاء فيه
صولات وجولات تقعد دون اللحاف بالكثير منها غرر القصائد لدى غير

(١) نكت الهميان - للصفدي - ٣٠٨

(٢) « انجوم الزاهرة - لابن تغري بردي ج ٨ ص ٦٦

القليل من فحول الشعراء ، بل لعله خير الأبواب التي وجدوا فيها منطلقهم
الروحي الحقيقي حيث صاعوا دون غيرهم من الشعراء — هذا فتحهم
بروحانية وصدق إيمانهم إلى من يستحقها .

ومن هنا ، فلا عراة أن تجد الخليفة العباسي الثاني : أبا جعفر المنصور
ينظر فيمن حوله يوما فلا يحسد إلا مطربا له أو منزلا إليه من الأمراء
أو الوزراء أو القواد أو الشعراء ، ولكن شخصا واحدا يحالسه الخليفة
ويرى فيه ما لم يره في غيره . وهو العالم الزاهد : عمرو بن عبيد ، فيضيل
النظر إليه ، ثم يقول لمن حوله جميعا :

كلكم يمشي رويدا كلكم يطلب صيدا

غير عمرو بن عبيد (١)

وحسب هذا العالم أن يمدح بلسان من يتهافت فحول الشعراء على مدحه
أو التقرب إليه .

ولا عجب أن يكون لمثل هؤلاء العلماء الاتقياء ضروب من شعر الزهد
ترقى بهم إلى منزلة سامية في هذا اللون الفني أيضا ، حيث تشعر في منظوماتهم
تمام اليقين بآله سبحانه ، فوق معرفتهم المؤكدة لما في الدنيا من زائل
المتاع .

ومن نماذجهم الزهدية ، ما نراه في قول الفقيه الزاهد : ابن العسال
الطليطلي (٢)

انظر الدنيا فإن أبصرتها شيئا يدوم
فأعد منها في أمان إن يساعذك النعيم

(١) أدب الفقهاء ص ١٤٣

(٢) نفع الطيب — المقرئ — ج ٤ ص ١٩٥ ، ٢١٣

وإذا أبصرتها منك على كره تهيم
فاسل عنها وأطرحم وارتحن حيث تقيم

ثم لنستمع إلى هذه الخاطرة السريعة التي نظمها العالم الفقيه المحدث :
أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف (صاحب كتاب أحكام الفصول في
أحكام الأصول ، وكتاب التعديين والتجريح) يقول : (١)

إذا كنت أعلم عنها يقيناً بأن جميع حياتي ساعة
فلم لا أكون ضئيلاً بها وأجعلها في صلاح وطاعة

ولقد عمد كثير من العلماء إلى أسلوب المناجاة الصوري الخالص ، سالكاً
سبيل أهل الطريق تأملاً وتشوقاً وسكراً وفناءً وكشفاً وحنيناً وأنيناً
وارتياحاً كما نجد ذلك في قول الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عيسى
الالبيري : (٢) .

شربت بكأس الحب من جوهر الحب
رحيقاً بكف العقل في روضة الحب
وخامر ماء الروح فاهتزت القوى
قوى النفس شوقاً وارتياحاً إلى الرب
ونادى حنيناً بالأنبياء حنينها
إلهي إلهي ، من لعبك بالقرب
تخاطبه وحياء إليه مليكه
سأكشف يا عبيد لعبك عن حجي

(١) وفيات الأعيان — لابن خلكان — ج ٢ ص ١٤٢

(٢) الذخيرة — لابن بسام — قسم أول مجلد ثان ص ٢٤٢

فأعلن بالتسبيح : مثلك لم أجده
تعاليت عن كفء يكافيك أو صعب
أجول ببعضى فوق بعضى كأننى
ببعضى لبعضى كأنه جائب والركب
نخذ بزمام الشوق منى تعطفنا إليك ولا تسلم زمامى إلى لى
لعنى نسقى ثم أسقاه دائماً رحيقاً يكف العقل من جوهر الحب
وأشعار العلماء الزهدية والصوفية كثيرة وجميلة ، وتعمل كغيرها من
أشعارهم سمات الجودة ، وتباهى منظومات الشعراء المتخصصين بالمهارة
والإبداع .

و حين ملفت أنظارنا إلى أحد الألوال الأدبية الأخرى التى تناو لها
الشعراء من قديم كفى الغزل ، وكيف تطور : (الإباحى) وما فيه من
تهتك وفحش فى التعبير إلى الغزل بالمدح فى العصر العباسى . (العفيف)
وكيف وصل بنقاء لفظه وسمو غايته ومعناه إلى مرحلة المناجاة والتصوف ،
أقول : إن علماءنا كان لهم فى فن الغزل أيضا مقام ومنظومات ، وإن
لم تتجاوز اللون العفيف إلى غيره إلا قليلا إذ بدوا فى أشعارهم الغزلية
على جانب غير قليل من التحفظ واتخاذ بعضهم الرمز وسيلة للافصاح بها
عما تكنه صدورهم تجاه الحبيب ، فارتقوا بهذا اللون فى غزلهم ونسبهم ،
دون تخبط أو إسفاف أو فحش فيما تناو له من أقوال .

ولعن من أرق ، لا يبات فى هذا المقام ما أنشدته عروة بن أذينة (الفقيه
المحدث) فى بيتين له يقول له الرواة بشأنهما : د لى سكنة بنت الحسين
مرت بعروة وهو بغناه واره . فقالت له أنت ابن أذينة ؟ قال : نعم ،
قالت : أنت الذى يقول الناس إنك امرؤ صالح وأنت الذى تقول : (١)

(١) الأغاني ٢٠٧ ص ٧١٦٦

إذا وجدت أوار الحب في كبدي
عمدت نحو سقاء القوم أترد
هبتى بردت ببرد الماء ظاهره
فمن النار على الأحشاء تنقد
قال لها : نعم .

ومن الأبيات السائرة والمنسوبة إليه قوله : (١)

قالت وأبثتها وجدي فبحت به
قد كنت عندي تحب السر فاستتر
أست تبصر من حولي فقلت لها
غطى هواك وما ألقى على بصرى

وقوله في هذا المقام أيضا . (٢)

لن ألقى زعمت فؤادك ملها	حملت هواك كما جعلت هوى لها
فبك التي زعمت بها وكلا كما	بيدي لصاحبه الصباية كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها	لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها	بوما وقد ضحيت إذا لأظلمها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة	شفع لفؤاد إلى الضمير فسلها
بيضاء باكرها النعيم فصاعها	بلبساقه فأدقها وأجلها
لها عرضت مسلما لي حاجة	أرجو معاونتها وأخشى ذلها

(١) الشعر والشعراء — لابن قتيبة — ج ٢ ص ٥٧٩

(٢) شرح الحماسة (لتبريزي) ج ٣ هامش ص ٢١١

منعت تحيتها فقلت لصاحي ما كان أكثرها لئسا وأقلها .
فدنا فقال : لعلها معذورة من أجل رقيتها فقلت : لعلها
وأبيات ابن أذينة كما تجسد حركات وجدده ولوعات صبابته وهواه
وتبرر في يسر وبساطة تعبير ما أصمرت له الجوانح وأحفته الأقدار .
ولعبد الله بن عبد الله بن عتبة (أحد الفقهاء السبعة في المدينة) قوله
في التودد والحنين إلى زوجته : (١)

أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لوان إنسانا يطير
غنى النفس أن ازداد حبا ولكني إلى صلة فقير
وأفقد جارحاك سواد قلبي فأنت على ما عشنا أم — ير

ومن رقيق غزل القاضي : علي بن عبد العزيز الجرحاني قوله : (٢)
أفدى الذي قال وفي كفه مثل الذي أشرب من فيه
الورد قد أيقع في وجنتي قلت : فلي باللائم يحقبه

فالفكرة والأسلوب والتصوير في بيتيه ينساب كل منها دون تعثر
أو غرابه بما قد يعز على كثير من المتفرغين لعمل الشعر .

من أبيات التودد والحنين أيضا تلك الأبيات الرقيقة التي نظمها أبو الأسود
الدؤلي (التابعي الفقيه المحدث النحوي الشاعر) قوله : (٣)

ليت شعري عن أميري ما الذي غاله في الود حق ودعه

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٢٧١

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٩

(٣) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٧٢٩ وما بعدها .

لا تنفى بعد إذ أكرهتني فشد يد عادة منــــــزع
لا يكن برقك برقاً خلياً إن خير البرق ما البرق معه
ومن أبيات الصبابة والحنين إلى الماضي وما فيه من ذكريات . قول
أبي بكر الشبلي الصوفي : (١)

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فن
ذكرت إلها وعيشا مألفا فبكيت حزنا فهاجت حزني
فبكائي رعب أرقمــــــا وبكاهها ريماء أرقــــــني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفهمــــــا وهي أيضا بالجوى تعرفني
أتراها بالبكاء مولدــــــة أم سقاها اليبس ما جرعتني

وأنى لشارح أن يعنى بمدلول هذه الأبيات أكثر مما وى به صاحبها
أو يتأتى له مثل ما أوتيته ناظمها من رقة اللفظ ودقة المعنى وجودة الصياغة
وروعة التصوير ؟

وحتى لا يطول بنا المقام في هذا اللون الفني عن سابقه ، فسوف
نكتفى بما ذكرناه من الغزل (العفيف) وهو السكثرة الغالبة و عزل
العلماء حتى يتسنى لنا إنقاء الضوء أيضا على الجانب الآخر من الغزل (غير
العفيف) لدى بعض العلماء ، لأنه مع (قلته أو قدرته وشدوذه في أشعائهم)
لون أدبي له سمائه وملاحيه وقدرات قائله . وحتى لا ترى باع الفقهاء
وقد قصرت عن الكتابة في هذا اللون أيضا .

ومن هنا فسوف نكتفى بهذه الأبيات التي أنشدها قاضي أشبيلية
أبو حفص بن عمر والتي يقول فيها :

مشت كالغصن يثنيه النسيم ويمدوه النسيم فيستقيم
لها ردف تعلق في لطاف وذاك الردف لي ولها ظلوم
يحدثني إذا فكرت فيه ويتعبها إذا رامت تقوم
وما حي لها إلا عذاب عليه من تضارثها نعيم

وهي أبيات لا راعا تقل عما نظمها العلماء في هذا الغرض وسابقه من
الأغراض ، كما تنطق بها سمات القدرة على الصياغة والسلامة في الطبع الشعري
بما لا يقل عن نظيره لدى حاملي لواء الفريض من الأدباء

ولسوف نطوف مسرعين في باقي الرياض الأدبية لعلمائنا بعد أن
انضمحت مهاراتهم في ضروب الشعر ، وتعدت جوارب الإبداع الفني في
منطوقاتهم خلال ما تناولناه من سابق الفنون والأغراض حتى تكتمل دائرة
المضوء من حوطم فبري غير المنصفين لهم ما خفي من حوافب عظمتهم
ودلائل قدراتهم وتمسكتهم من الإجمادة في العلوم والآداب على حد سواء .

فالهجاء مثلا يعد من الأغراض التي قد يترأى للكثيرين بعد العلماء عنه
وعدم التعرض له ، خاصة وأن غير القليل ممن صناعهم الشعر كانوا
بحر زون منه ، أو تحول أخلاقهم دون الكتابة أو التنظيم فيه ومع هذا نجد
لبعض الفقهاء في هذا المقام بعض المنظومات ، وإن بدت أقل الأغراض
كتابة لديهم ، فهي خارجة دون شك عن مألوفهم وحقيقة طباعهم ، ولذا
فإن مناواه من هجاء الفقهاء يتأى عن الإسعاف وسوء التناول أو المبالغة
الممجوجة ، كما نراه عند غيرهم من المتخصصين في صناعة الشعر .

فها هو ذا الشيخ الفقيه : محمد بن سعيد المسكي يهجو بعض أهل عصره
فيقول : (١)

اترك العجب فما أنت سوى رجل إما لضحك أو لغم
كغراب تسود يمشي مرحا معجبا وهو أخو الشوم الأذم
يغسل الثوب وفي أكشافه وسخ العرض وآلات التهم
في باطن التقريع والهجاء يمكن النصيح والإرشاد، وهذا دائما شأن
الراغبين في الخير من العباد.

كما نجد في منظومات الفقهاء الهجائية أيضا ألوانا من الطرافة والملح
المستعذبه ومن ذلك ما يروى : أن الحافظ بن حجر العسقلاني، وبدر الدين
العين (العالمين الحليين) لم يكونا على وفاق في الرأي، فشبت بينهما علاقة غير
حسنة، وحدث أن مالت منارة المدرسة المؤيدية بمصر، على برج باب
زويلة، وكان الشعراء في ذلك منظومات غير قليلة، فانهز ابن حجر العسقلاني
هذه الفرصة وأقشد هذين البيتين معرصا فيهما «بالعين»، فقال (١) :

لجامع مولانا المؤيد رونق
مشارقه بالحسن تزهو وبالزین

تقول وقد مالت على البرج أمهلوا
فأيس على جسمي أضر من «العين»
ويبلغ ذلك «لعيني»، فيرد على ابن حجر، بهذين البيتين ويقول فيهما :
منارة كعروس الحسن إذ جلست وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا : أصيب «بعين»، قلت ذا غلط
ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

والتعريض في قول كل من العالمين بصاحبه لا يحتاج إلى بيان، مع
ملاحظة قوة البديهة وحسن الصياغة وسلامة العرض وجودة النظم.

و في مقام قدرات العلماء على النظم أيضا في مجالات الفنون المختلفة بالإصافة إلى مهاراتهم العلمية وثقافتهم المتباينة ، نجد أن كثيرا من الفلاسفة قد نظروا أفكارهم العميقة ونظراتهم الدقيقة في الكون والحياة ، وقد كثر ذلك في العصر العباسي وخاصة حتى بد اظاهرة من ظواهره .

ولعن من أشهر القصائد أو المنظومات في هذا الزمان وأسبرها ، تلك الراجزية ، التي نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له ، وهي في الحقيقة لابن الشبل لبعدادى الحسين بن عبد الله بن يوسف ، الذي تميز بالحكمة والفلسفة ، كما كان حبيباً بصناعة الخطب قوي أنه كان أديباً وشاعراً ، وهو يستهلها بقوله (١) :

ربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك فل لنا في أى شيء وفى أفها مننا منك انبهار
وفيك رى القضاء وهل قضاء سوى هذا القضاء به تدار
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدركها البوار
فابن الشبل يبدو في حيرة وقلق أمام تلك الحركة الانتهائية للفلك المدار وهو كما يتصور بعض الفلاسفة يسير دوراته المنظمة للكون عن قصد منه أم أن دوراته بيد الله ولا حيلة للفلك في ذلك ، ثم يتساءل ابن الشبل إن كان هناك قضاء آخر لهذا الفلك ؟ وهل الأرواح حية تخلده بها في العالم العلوى حيث ترفع إليه ، أم يلحقها الفناء مع أجساد المخلوقات في العالم السفلى ؟ ثم يستمر في استعراض حيرته وألغازه فيقول :

ودهر ينثر الأعمار نثرا

كما للورد في الروض انتشار

ودنيا كلها وضعت جثيتنا غفلة من قرائنها ظنوا
هي العشواء ما خطبت هشيم هي العجباء ما جرححت جيار
فن يوم بلا أمس ويوم بغير غد إليه بنا يسار
فالأعمار ورود تستطها يب الدهر . والدنيا أم عثوم قلب ولا ترصع،
وما تنانه بحراها لا يصلح للبقاء ، وما الحياة غير يوم مشئوم لا أمس له
ولا غد .

وهذه الألوان من الشعر الفلسفى موجودة بكثرة لدى العلماء ، ولعل
من أشهرها وأكثرها سيروية ، ما أنشده أبو النغيص ، أحد الفلاسفة الشعراء
فى القرن الرابع الهجرى إذ يقول (١) :

فى النفس والجسم إن فكرت معتبر
بل دون ذلك صل الرأى والفكر

وحمار كل لبيب فى اتحادهما
وتلك عين وهذا حكمه الأثر

يأبى شعرى إذا الأبدان أضمرها
يسد البى وحواها الترب والمدر

هل للغفوس التفات نحو عالمها
كما تلفت نحو المركز الحجر

ليحصن الفوز فى دار الخلود لها
وتنتفى دوتها الآفات والغير

(١) صوان الحكمة — لأبى سليمان المنطقى السجستانى — ص ٣٥٩
(تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى.)

أم تضمن كل ما قد بان هيكلها
ولا يحس لها ورد ولا صدر
هذا الذي صدت منه خواطرها
وليس يحلو صداها العلم والخبر

فلا علم بمصير النفس بعد فناء الجسد إلا الله وحده ، أما كونها تفنى مع
الجسد أو ترقى بعد انتهاء دورته في الحياة إلى المليكوت الأعلى ، فذلك هو
الأمر المحير والمشكلة المعقدة لدى جماعة الفلاسفة كما نرى .

وعلى كل فتلک صياغات محكمة لأفكار عميقة ومعان دقيقة ، تدل على
تمكن من التنظيم لا يقل عن تمكن هؤلاء الفلاسفة في علومهم ، إن لم يميزهم
بتلك المنظومات عن غيرهم من المتخصصين في الشعر ، إذ لا وجود لمثل
هذه الألوان الفنية في منظوماتهم .

وحين ينتقل بنا المقام إلى الحديث عن الشعر التعليمي ، نستجد أن
العلماء قد تميزوا بجدارته عدارة هذا الفن ، إن لم يكونوا قد ضيقوا المكان
على غيرهم فيه حتى لم يك يترك في كل أزمته ومنظوماته سواهم ، مما يدل
على طول باعهم فيه ، وتمكنهم من صناعته الشعرية في مختلف المواد والعلوم
وان تفاوتت القصائد والمنظومات في عدد الأبيات فله أو كثرة

ولعل من أشهرها تلك الألفيات من الأبيات التي تذكر منها : في النحو
والصرف : ألفية بن مالك وألفية السيوطي وألفية ابن معطي ، وفي
الأصول : ألفية البرهان ، وفي علوم البيان : ألفية السيوطي وألفية
القباقبي ، وفي المنطق نجد ألفية أبي الزملاء المصري ، وهي مصطلح الحديث
نجد ألفية السيوطي وأيضاً ألفية العراقي ، كما نجد في الطب ألفيته داود
الأنطاكي ، وفي تعبيد الرؤيا ينظم فيها ابن الوردى أيضاً ألفيته .

وتعد منظومة الدمشقي (بدر الدين) : من أطرف وأحكم ما كتب عن
العلاقة بين الرجل والمرأة وما هي حياتهما من الأدب والأحكام حيث
تجاوزت اثني عشر ألف بيت .

وكلمها دون شك ترقى بأصحابها إلى سماوات العلم الأدبي والفني حيث
القدرة على سرد الحقائق العلمية ، أو الأحكام الشرعية ، أو القواعد اللغوية ،
أو غير ذلك بتعبير فني دقيق ، وإحكام في الصياغة والنظم دقيق ، مع
الإيجاز ، وقرب المأثي ، ورفع العناية التي لا يطلبون لها الأجر إلا من
الله وحده ، إذ لا هم لهم سوء ، إفادة المتلقي وطالب المعرفة ، بأيسر لمظ
وأفصح كلمة ، في سلاسه وعذوبة ، تبيت من حلالها الحكمة أو الموعظة
الحسنة ، كلما استطاع الناظم ذلك .

حسبنا أن نذكر من حشدهم النظمي الزاخر بالمعرفة في هذا المقام ،
بعض المطالع النظامية التعليمية لجرد الاستيفاس ، وعدم الغفلة عن كثير
من مزاياهم الشعرية .

ومن ألوانهم المتعددة في مجالات العلوم ، ما أنشده ابن دريد ، في المقصور
والممدود ، إذ نراه يبدوها بما يفتح أوله فيقصر ويمد ، والمعنى مختلف ،
وهكذا ، فيقول (١) :

لا تركن إلى الهوى واحذر مغارقة الهواء
يوما تصير إلى الثرى ويصير غيرك بالثراء

فانظر كيف يسدى النصح داخل هذا الفسج العلمي التعليمي الدقيق ،
والذي ينساب في منظومته برقة إلى آخرها .

ثم لننظر أيضا إلى منظومة العلامة د ابن شقرون ، في الطب، ولنتأمل في أبياته التي يقول منها :

وبعد ، فالقصد ههنا الجمل ذكر مزاج قوتنا المستعمل
طبع الحبوب ومر كب الغذاء وماله نفع وماله أذى
ويقول فيها أيضا :

وربما نذكر من مياه أمرا كثير الناس عنه ساهى
نتبعه أدوية نفيسه تذهب أمراضا بدت خبيسه
كما نجيد القول في اللباس وفي المساكن وماوى الناس
ونبسط التعبير في المقال كما يرى مطابق السؤال

وهكذا تنساب أبيات ابن شقرون ، على سجيته وبطبعه البعيد عن التكلف أو الصنعة مع احتواء نظمه هذا على تلك الأمور النافعة والمتعددة، والتي ذكرنا جاذبيتها في إجمال يتبعه بتفصيل وقدرة على النظم وجمال في التعبير والتصوير .

أما في مقام الرثاء فقد بد الكثير من العلماء آيات منظومة تقطار كلماتها أسي ولوعه لشهورهم بجلال الفقد وأثر الفجيعة عندهم .

ولا غرابة في ذلك ، إذ كانت تصدر منظوماتهم في الرثاء عادة من المحبين وذوي العاطفة للصادقة تجاه من يرثونهم من آلهم أو إخوانهم أو رفاقهم في الحياة ، أو من تربطه بالرائى رابطة العلم المتينة كان يكون شيخه أو تلميذه وهكذا .

ومن هذا اللون ما أنشد به شهاب الدين محمود القرشي في رثاء شيخه نجم الدين الطبري قاضى مكة حيث يقول في مطلعها (١) .

(١) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين - ج ٣ ص ٢٢ .

ما للجنون بهما التسميد قد نزل
وما لطيب الكرى عن مقلتي رحلا
ما بال قلبي بتذكّار الهموم له
شغل ودمعي إن كلفته هملا
نجم أضاء علينا صبح طرقة
حتى إذا ما انجملت أيامه أفلا
مفتاح كنز علوم الدين كم فتحت
به بصائر قوم للورى ذللا

و نظر إلى هذا الاستهلاك المؤثر و كيف يهيء نفس المتلقى لمشاركتة
آلامه و يشد انتباه السامع إلى عظم خطبه و فادح أثر الفقد على عين الشاعر
و قلبه (ترجماني المشاعر و الأحاسيس عند الناس أجمعين) .

ثم لمقرأ ما أنشده العالم الصوفي : أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري في
وئام صديقه الوزير ابن بقية بهذه القصيدة الشهيرة والتي يبدوها بقوله (١) :

علو في الحياة وفي المعات لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك معين قاموا وفود نذاك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام . للصلاة
مددت يدك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالهبات

فأي تعبير و تصوير يبلغ من القلب ما بلغه الشاعر في هذه الايات ؟
إنها دون شك من كلمات القلوب ،

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٢٠ .

وعندما تسقط مدينة « يربشتر » الأندلسية أمام النور مائدين (في عهد الخليفة المقتدر بن سليمان) تتفعل في نفس العالم الزاهد الفقيه المحدث : ابن العسال مشاعر الإيمان والغيرة على بلاد المسلمين وأبنائها ، فيرثيها بهذه الآيات التي يدفع بها القلوب إلى الذود عن حياض البلاد ، معرضاً بما ارتكبه الغازون فيها من فضائح وأهوال يتدى لها الجبين ، فيقول (١) :

ولقد رمينا المشركون بأسهم
لم تخط ، لكن شأنها الإصماء
هتكوا بخييم قصور حريمها
لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلم يها
في كل يوم غارة شعواء
باتت قلوب المسلمين برعبهم
فحسبنا في حربهم حنياء
كم موضع نغموه لم يرحم به
طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من أمه
فله إليها ضجعة وبكاء
ولرب مولود أبوه مجدل
فوق التراب وفرشه اليداء
ومصونة في خدرها محجوبة
قد أبرزوها ما لها استخفاء

(١) الروض المعطار — للحميري — ص ٤٠ وما بعدها (طبعة لجنة

ثم نختم جولتنا هذه بمنظومة الفيلسوف والطبيب والفاسكي والأديب :
« ابن الشير البغدادي » في رثاء أخيه ، يحتزين منها هذه الأبيات التي
يقول فيها (١) .

يا أخى عاد بعك الماء سما وسموما ذاك الفسيم الرخاء
كيف أرجو شفاء ما بي وما بي دون سكنى فى ثراك شفاء
شطر نفسى دفنت ، والشطر باق يتمنى ، ومن مناه الغناء
إن تكن قدمته أيدى المغايا فإلى السابقين تمضى البصاء
إنما الناس قادم إثر ماض بدء قوم بآخرين انتهاء

وجنوح العالم الشاعر إلى الفلسفة يبدو بوضوح فى : عمق الفكرة
ودقة المعنى وتمكنه من اللغة يترامى فى : قدراته على تحوير الألفاظ وملائمتها
التامة لتوضيح فكرته ، وسعة ثقافته وتعدد معارفه يتجسد فى : روعة
تصوره ، وتخليق خياله ، ومشاركتها فى الوفاء بمراده ، وأصالة موهبته
وطبعه الشعري يتجلى فى : تدرجه المقصود بالمعنى إلى الغاية خلال الأبيات
فى يسر وبساطة ، ثم فى حتمها بالحكمة التى يترامى بها فصل الخطاب .

وهكذا تبدو الكلمات والعبارات والأخيلة ، وقد انضمت بوعى
وإدراك فى سلك الأبيات ، بما يشهد له ، كما يشهد لكثير سواه من العلماء
بالقدرة والتمكن من النظم ، بنفس القدرة والتمكن من المواد العلمية التى
عرفوا بها وأنفوا أعمارهم فى سبر أغوارها .

(١) معجم الأدباء ج ١٠ ص ٢٣ وما بعدها .

وبعد :

فقد كانت هذه جولة سريعة في رياض الأدب لعلمائنا الشعراء، أمتعت
الأيصار فيها بالتطلع إلى عراسهم النضرة المتباينة وخشعت القلوب الواعية
إلى همس كلماتهم ، وسحر بياتهم ، وذلك خلال ما تناولناه من أغراض
وفنون شعرية . نسجت أيديهم لها مختلف الأردية وتميزت برفعة الغاية
وسمو الهدف . كما رأينا في مدائحهم ، وعزلهم ، وهجرتهم ، ونثرهم فوق
مالم نره في أشعار غيرهم ولا يطاول بنظم سواهم من نقول الشعراء
كما رأينا في الشعر التعليمي ، والشعر الفلسفي ، والاعتداد بالنفس . الخ .

وهذا يمكن القول : إن ما قدمه العلماء في منظوماتهم من مهارات
وإبداع وابتداع ، فوق ما لهم من قدرات علمية ، ومعارف وثقافات
متعددة ، يحسد لهم بافتخار ملاح الجلال والعظمة من خلال إنتاجهم
الشعري الذي يعد من أخصب المواد الأدبية للدراسة والتحصيل ، وأجدرها
بالبحث والتنقيب في تراثنا الجليل ، لاستخراج ما لا شك في نفيه ولا جدال
في طرافته وعظيم أثره :

دكتور / حلمي أبو العز

مراجع البحث

- ١ - ابن المعتز و تراثه في الأدب والنقد والبيان ، د محمد عبد المنعم خفاجي - الحلبي .
- ٢ - ابن المعتز العباسي - ذ أحمد كمال زكي - أعلام العرب .
- ٣ - أثر القرآن في تطور النقد العربي - د محمد زغلول سلام - ط - دار المعارف .
- ٤ - أمرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق د خفاجي .
- ٥ - إعجاز القرآن - الباقلاني - بهامش الإتيان .
- ٦ - بديع القرآن - ابن أبي الإصبع - ط - نهضة مصر .
- ٧ - البديع - ابن المعتز ، ت - كراتشكوفسكي . العراق .
- ٨ - البديع في نقد الشعر - أسامة بن منقذ ط - مصطفى الحلبي .
- ٩ - بغية الإيضاح - الخطيب القزويني - شرح عبد المتعال الصعيدي .
- ١٠ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان - د . إبراهيم سلامة .
- ١١ - البلاغة تطور وتاريخ - د . شوقي ضيف - دار المعارف .
- ١٢ - البلاغة عند الجاحظ - د . أحمد مظلوم - الدار الوطنية بالعراق .
- ١٣ - البيان والتبيين - الجاحظ ت - عبد السلام هارون .
- ١٤ - قأوين مشكل القرآن - ابن قتيبة ت - السيد صقر .
- ١٥ - تاريخ الأدب العربي - الزيات - دار الثقافة بيروت .
- ١٦ - دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - ت محمود شاكر .
- ١٧ - زهر الآداب - الحصري .
- ١٨ - الصبغ البديعي في اللغة العربية - د . أحمد موسى .

- ١٩ - الصناعتين - أبو هلال العسكري - الأسنافة .
- ٢٠ - علم البديع والبلاغة عند العرب - كراتشكوفسكى - ترجمة الحجيرى .
- ٢١ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده - ابن رشيق - ت - محمد يحيى الدين .
- ٢٢ - قدامة والنقد الأدبى - د. بدوى طياته .
- ٢٣ - قواعد الشعر - ثعلب ت : د . خفاجى .
- ٢٤ - مفتاح العلوم - السكاكى - ط - مصطفى الحلبي .
- ٢٥ - مفهوم الاستعارة فى بحوث اللغويين . . د . أحمد عبد السيد الصاوى .
- ٢٦ - الموازنة بين أنى تمام وابجترى - الأمدى - ت السيد صقر .
- ٢٧ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر - ت - خفاجى .
- ٢٨ - نقد النثر - ت . العبادى .
- ٢٩ - النقد المنهجى عند العرب - د. محمد مندور - ط - نهضة مصر .

مكتبة التراث

لناصيل المواهب السقريّة الجادة

د. محمد كزيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين
محمد بن عبد الله ، المبعوث رحمة للعالمين .

أما بعد

فلنسترك لنا شعر أؤنا العرب من لدن العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي
تراثا شعريا يعد وثيقة حياتية دقيقة لأجيال هذه الأعصر ، ومعدنا تاريخيا
لطبيعة النفس البشرية الواعية في مواجهتها للتيارات الفكرية والصراع
الحضاري رغبة في الأفضى وطمعا في البقاء .

ومما يسترعى الاقتباه : حقا أن هذا التراث الشعري قائم على أصول
فنية وطاقات تعبيرية ، يقف أمامها الملتقى النواقي ، والقاريء الحصبف
هاجرا عن تطويقها أو حتى عن استيعابها ذلك الاستيعاب الذي يفيض
بكرتها ويجعلها لقمة سائغة لكل من تسول له نفسه اقتناصها دون التزود
بما يؤهل له ليكون جديرا بها .

ولا أحسبني مبالغا إذا ما قلت: إن هذه الأصول الفنية وتلك الطاقات
التعبيرية تمثل رافدا من روافد الفصاحة التي من الله بها على العرب
وجعلها سمها خاصا لهم دون غيرهم ، وإلا لما نسب الشاعر العربي القديم
إبداءه إلى الشياطين - وقد كانوا ينسبون كل شيء خارق إلى الشياطين
لأنهم كانوا يعتقدون حسب زعمهم أن ما يعجز عنه الإنسان لا يمكن
حدوثه إلا عن طريق الشيطان وذلك على نحو قول أحدهم :

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبو عن
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في شعر كل فن

ووصل بهم زعمهم إلى أن جعلوا الشياطين قبائل ، فشيطان حسان بن ثابت من بني الشيصبان ، وذلك على حد قوله :

إذا ما ترعرع فينا الغلام فما إن يقال له من هو ؟
إذا لم يشد قبل شق الإزار فذلك فينا الذي لا هـ
ولي صاحب من بني الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هـ (١)

وقد غفل الشعر العربي على امتداد هذه الأعصر متمتعاً بهذه الأصول و تلك الطاقات تباها بها ، مجسداً لها ، وذلك بفضل شعرائه الذين وضعوا قصب أعينهم أشعار من سبقهم مستلهمين لأصولها مسترفعين لطاقتها ، واعين لأينيتها وتراكيبها ، مقدرين ما فيها من جهد في سبيل تطويع ألفاظ اللغة إلى ما يريد الشاعر ، وحرصه على استثمار خصائص الكلمة ، واعتصار أكبر كمية من الإيحاءات المجازية .

وكان من نتاج ذلك أن شهدت ساحة الناصفين بلغة الضاد على امتدادها المتزامن مع الفتوحات الإسلامية طوال هذه الأعصر شعراء عمالقة ساهموا بإبداعاتهم في جعل الأدب العربي قمة شائخة ومنازة هادية بين آداب الأمم الراقية من حولنا .

والباحثون في تاريخ أدبنا العربي قدامى كانوا أو محدثين ، عرباً كانوا أو مستشرقين لم يصلوا إلى طفرلة محققة للشعر العربي وإنما كشف لهم بحتمهم ونقصهم الدائب والمستمر عن شعر زاهر بأمرار الفصاحة متمتع عروفاً بالبلاغة اشعراء فحول . . . استمدوا نخوانهم من تراث لم تعرف أصوله بعد .

وما هم أولاء شعراء العربية الأول ، والذين يعدون أقدم ما وصلت

إليه حمود الباحثين يصرحون في أشعارهم بأنهم لم يتبعوا . . تلك المكانة
السامية في ميدان الشعر وقرضه إلا بفضل تتبعهم لآثار السابقين عليهم .
وهاهو ذا امرؤ القيس يقول (١) :

عرجا على الظلال المحمل لأننا نيك الديار كما بكى ابن خدام

وهاهو ذا زهير يقول (٢) :

ما نرانا نقول إلا معارا أو معادا من قولنا مكرورا

وعنتر بن شداد يقول (٣) :

من غادر الشعراء من متردم أمهل عرفت الدار بعد توهم ؟

وقد أدرك الشعراء بعامة ، والتواقون إلى الشهرة والتفوق . . بخاصة —
وذلك في كل عصر شهد فيه الشعر تقسما وازدهارا — قيمة تتبع إبداعات
السابقين ، بل والمجيدين من المعاصرين لهم ، فأنكبوا عليه متذوقين
مستلهمين .

ولا تذهب بعيدا إذا ما قلنا: إنه وجد من بين عمالقة الشعر في عصوره
الذهبية الأولى من ثاروا على بعض الأطر والتقاليد للقصيدة العربية كل في
حينه ، وذلك على شاكله بشار وأبي نواس في القرن الثاني الهجري ، إذ
دعا كل منهما إلى الخروج بالقصيدة العربية — من إطار الكلاسيكية الجديدة
التي شهدتها القصيدة الأموية إلى إطار جديد تكون فيه قدرة على التعبير
عن المجتمع الجديد (٤) .

(١) ديوان امرؤ القيس ١١٤ تقديم حسن السندوني

(٢) ديوان زهير ٩٥ تقديم أكرم البستاني

(٣) ديوان عنتر ٧٣ تقديم فوزى عطوى

(٤) تاريخ الشعر في العصر العباسي ٧ د/ يوسف حنيف

والناظر لشعريهما يجد فيه ما يوحى باعتداد الشعاعين بما ذهبوا إليه
في ميدان الشعر ، وهادو ذا بشار يقول ماذج واقعته الخلقى المشاهد —
بكسر الخاء — باعتداده بدكائه — حسب زعمه — بعمه وما ذهب إليه
في ميدان الشعر بخاصة (١) :

سمت حنيننا والذكاء من العمى خُثت عجب الفن للعلم معقلا
وغاض ضياء العين للقلب فاعتدى بقلب إذا ما ضيع الناس حصلا
وشعر كنور الأرض لاءمت ببنته بقول إذا ما أحزن الشعر أمهلا
وهادو ذا أبو نواس يسخر بعنف من تلك المطالع الطلبيه للقصيدة
العربية وذلك في قوله (٢) :

عاج الشقى على دار بسائلها وعجت أسأل عن حمارة البلاد
لا يرقأ الله عيني من بكى حجرا ولا شفى وجد من يصبو إلى وتد
دع ذا عدمتك واشربها معتقه صفراء تعتق بين الماء والزبد

وفي القرن الثالث الهجري . تصادم صيحات الداعين إلى الوحرف
اللفظي والعمق العقلي بصيحات الداعين إلى الحفاظ على عمود الشعر وسمته
... المسطح الواضح ، وكان على رأس التيارين أبو تمام والبحتري .

ثم يطالعنا القرن الرابع الهجري شعاعه — المتنبي — الذي شغل الوسط
الأدبي وما زال — ليدعو إلى عودة القصيدة العربية لروحها البدوي في غير
انفصال عن روح العصر الجديد مما يحمله من ثقافات عقلية فحق هذا من أوجه
عبقريته بين بساطة البداوة وصفاتها وفطريتها وبين ؟ ثقافة عصره العقلية
بقضاياها المعقدة (٣) .

(١) الأغاني ١٣٦/٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) ديوان أبي نواس ١٨١ تقديم أحمد عبد المجيد

(٣) تاريخ الشعر في العصر العباسي ٨ د/ يوسف خليف

وبما تجدر الإشارة إليه أن ما قادى به مثل هؤلاء الشعراء ، ودعوا إليه ، قد لاقى قبولا وتقديرا من النقاد المعاصرين لهم والذين وقفوا على قناعاتهم من بعدهم ، يتضح ذلك من تلك الألقاب التي أطلقوها عليهم .

قد شار أبو المحدثين ، وأبو تمام زعيم المجددين ، والبحتري زعيم المحافظين ، والمتنبي شاعر العربية الأكبر أو جبار الشعراء .

والواقع ، أن الفضل الأكبر لهذه الزعامات يرجع إلى وفوف هؤلاء الشعراء طويلا أمام تراث سبقهم مستوعبين هاضمين ، ولولا ذلك لما تمكنوا من أن ينسب إليهم مجد ، أو يضيفوا إلى تراثهم من المضامين الفكرية والقيم الجمالية ما يتفق مع أزماتهم وتطورها .

وهاهو ذا أبو نواس — يتزود باللغة على يد خلف الأحمر ثم يوصى إلى البادية فيقيم بها حولا كاملا ينهل اللغة من ينابيعها ثم يقبل على دواوين الجاهليين والإسلاميين فيحفظها ، ويقول الجاحظ عنه : ما رأيت أحدا كان أعلم باللغة من أبي نواس ، ولا أفصح لجة مع حلاوة ومجانبة الاستكراه . ويقول عنه أبو عمر الشيباني : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرفث لاحتججنا بشعره لأنه محكم القول (١) .

وهاهو ذا أبو تمام يتجاوز مرحلة التزود والحفظ إلى اختيار أشعار لعدد من الشعراء الجاهليين والإسلاميين وتدوينها في كتب خاصة إعجابا بها وحملها منارة يسير على هديها الطامحون في تأصيل ملكاتهم لإبداعية . فكان منها — الاختيار القبائلي الأكبر — وقد اختار فيه قطعا من بحاسن أشعار القبائل ... ومنها الاختيار الذي تاقط فيه بحاسن شعر الجاهلية والإسلام وأخذ من كل قصيدة شيئا حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة .

(١) الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية ٣٢ د / محمد أبو الأنوار

وهو اختيار مشهور معروف بـ « اختيار شعراء الفحول » ومنها اختيار تالقط فيه أشياء من الشعراء « المقلين » شعراء المغمورين غير المشهورين ويوبه أبو إيا وصدره عما قيل في الشجاعة وهو أشهر اختياراته وأكثرها في أيدي الناس ويلقب بـ « الحاسة » ومنها « اختيار المقطعات » وهو مرتب على ترتيب الحاسة إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين وصدره بذكر الغزل ، ومنها اختيار محرد في أشعار المحدثين (١) وعلى منوال أبي تمام نسج ليحترق فجمع مختاراته المعروفة بـ « حاسة البحترى » معجبا ومرشدا .

لذا لا نعجب من أن تحرم ساحة الشعر العربي لقرون طوال عقب انهيار الخلافة العباسية من شعراء باهين لأسباب شتى تكاثفت جميعها لقطع صلة الشعراء بدينا بيع لشعر الأصلية انقطاعا أفسد أذواقهم وأخذ قرائحهم فعمت في أشعارهم التعبيرات الركيكة المبتذلة والمعاني السقيمة والأساليب الملتوية ، وتحول الإبداع الشعري إلى قوع من المهارات اللفظية المصطنعة والألغاز واللعب بالكلمات ، حتى وصل إلى مرحلة من الانحدار جعلت الكثيرين من المهتمين بالأدب العربي والغيورين عليه يعتقدون أن العودة بالشعر إلى عصوره الأولى والتي عرف فيها بقوة نسجه ومثانة تراكيبه صرب من الوهم والخيال ، فما كان من « البارودي » إلا أن فاجأهم بما لم يكن في الحسبان إذ وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة إلى طريق الصحة والمثانة وأوشك أن يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد كأنه القمة الشاهقة تنبت في متون الطود عما قبلها فينقطع بينها وبينه طريق الوصول إلا أن تستدير لها من لقم التي قليها وتقرب منها ، فإذا أوصلت بصرك نحو خمسمائة سنة وراء عصر

(١) السرقات الأدبية ٥٤ در بدوى طهانة .

البارودى لم تذكر تنظر إلى فئة واحدة تساميه أو تدانيه . وكنت
كن قف على رأس الطور المنفرد فلا يرى أمامه غير التلال والكشبان
وأنوها إلى أقصى مدى الأفق البعيد (١) .

وشىء ضيقى أن تشهد الساحة الأدبية آنذاك الكثيرين من المعجبين
بصنيع البارودى وبخاصة هؤلاء الذين سيطر عليهم القلق والفرع على
الأدب ولغته ، فما هو ذا شكاب أرسلان أحد الأدباء اللبنانيين يعبر عن
إعجابه بصنيع البارودى حينما قرأ شعره بقوله :

فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ورقصنا على سيقه وبعث لنا
نساء روحية لم نعهد لها فى أنفسنا من قبل أن عرفته وعلينا أن فى المعاصرين
من قدير أن يضارع الأولين وأن يسامى بنفسه أنفاسهم (٢) .

وعلق د / سامى الدهان على شدة إعجاب شكيب بشعر البارودى وحلفه
لشئ الخيل والوسائل التى تمكنه من الاتصال به فيقول :

واعترف بأنه كان يتلو شعر البارودى كل يوم بعد تلاوة كتاب الله
ويتنم به فى بحواه ويجعله نقل أسماؤه وعبقوق ليله وصباح نهاره فما
أبت أن أهتدى إلى وسيلة يبلغ بها مراسلته وهو أن يستشهد بشعره
فى مقالاته التى كان ينشرها فى الأهرام بذكر اسمه وبغير ذكره مرة
أخرى وأخته بلقب أمير الشعراء (٣) .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٣١ وما بعدها عباس محمود العقاد

(٢) شوقى أو أصدقاؤه أربعين عاما ١٠١ شكيب أرسلان

(٣) الأمير شكيب ١٤٥ د / سامى الدهان

ومما قاله الأديب - حليم مطران - ولا نفسى له أى لبارودى فضلا
جديرا بالذكر الخاص وهو أنه أول شعراء البعثه الحديثه بمعنى أنه أول
من رد الديباجة إلى بهاتها وصعائها القديمين ، وما ابن فريضة لقريض
جيله ، وإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعدا إلى أرقى أزمنة العرب
هى كالحبال الشامخة وحولها القصائد الأخرى كالأركان المقامة من حجارة
أضلال بلا اختيار ولا نسق ولا هندام (١).

على أن البارودى لم يقبوا هذه المكانة فى دنيا الشعر إلا لإصابته فى
اختيار ضيق الشهرة والتفوق الممثل فى دواوين الشعراء من لدن العصر
الحاضر حتى العصر النباشى ، حيث تتبع مراحل تطورها ومارافقها من
أزياء وقفا ليد فى الأسلوب والمعانى والأعراض والموسيقى والصور ولتظم
عن غرارها حتى تمكن من توطيد الصلة بيننا وبين شعراء هذه الأعصر
وجعلنا نعيش وكأنما حياتهم لم تنقطع عنا .

وقد أشار البارودى إلى هذه الحقيقة كثيرا فى شعره مع حرصه على
أن يبين أنه لم يكن يوقا هؤلاء الشعراء فى تلك العصور فحسب وإنما
كأبت له شخصيته الشاعرة والكاشفة عن رؤيته الخاصة للحياة والأحياء
وذلك فى مثل قوله (٢) :

مضى « حسن » فى حلبة الشعر سابقا
وأدرك لم يسبق ولم يأل « مسلم »
وباراهما ، الطاقى ، فاعترفت له
شهود المعانى بالتي هى أحكم

(١) المجلة المصرية العدد الرابع ٤٣٥

(٢) ديوان البارودى ج ٣ ٤٢٩ وما بعدها

وأبداع في القول والوليد ، فشعره
على ما تراه العين وشئ منمن

وأدرك في الأمثال ، وأحمد ، غاية
تبر الخطي ما بعدها متقدم

ومرت على آثارهم ولربما سبقت إلى أشياء والله أعم
وحق له أن يفخر بعمله هذا ويتبعه على شعراء عصور مضت ضلوا
طريق الأسئلة والإبداع الخيد فو أدوا مواهبهم للبكر وقدموا حياتهم
قربانا لزوايا الإهمال ومرارة السيان وذلك على نحو قوله (١) :

أحييت أنفاس القريض بمنطقى
وصرعت فرسان العجاج بلهمنى

وقوله (٢) :

قومته بعد اعوجاج قناته . والريح ليس يروق غير مقوم
ولم يقف البارودى عند حد تتبعه لثرائنا الشعرى في عصوره الراهية
والوهوف على أسراره مسئلتها مستفيدة وإنما أراد أن يفيد غيره — فاختار
ثلاثين ديوانا لثلاثين من الشعراء العباسيين يبدأون ببشار بن برد وينتهون
بشرف الدين أبي العباس بن عثين، واقتحب من هذه الدواوين مارق لفظه
ودق معناه وخللا من الخشوع والتعقيد مرقبا ذلك على سبعة أبواب : الأدب
— المدح — الرثاء — الصفات — النسب — الهجاء — الزهد (٣) .

وقد أراد البارودى من وراء ذلك — أن يتحف الأدباء من أهل عصره

(١) ديوان البارودى ج ٣ ص ٤٨٧ وما بعدها

(٢) مقدمة مختارات البارودى ٣

بمجموعة مختارة من شعر فحول الشعراء المولدين لتسكون عونا للناتئين
على طبع ملكة البلاغة (١).

أضف إلى هذا تشجيعة لإقبال الشعراء عليه في بيته حتى بعد عودته من
منفاه وقد ضعف جسمه ووهن نشاطه وذهب نور عينيه أو كاد ، يقول
د/ عبد الحميد الجندى :

وكان حافظ إبراهيم يذهب إلى أستاذه — يعنى البارودى — فى داره
الفيححة يحيط العدة بالقرب من باب الخلق بعد أن آب من منفاه وهناك
كان يلتقى بلفيف من شباب شعراء ذلك العهد فيتحدثون حول أستاذهم
العظيم ويهرصون عليه ما أفتجته قرأهم ، وكان الأستاذ لا يرضى عليهم
بتوحيهاته الغالية (٢) وذلك رغبة منه فى تبصير المواهب الشابة نحو الطريق
السوى لتأصيل الملكات الإبداعية وقدرتها على استلهاهم الماضى فى التعبير
عن إيقاع عصرها .

ومن هذا المنطلق فإنه يمكن القول : إن البارودى فتح لمعاصريه من
الشعراء الناهين أهم روافد التألق والنجومية وبدلاً من أن يقفوا عند حد
تراثهم اتجه الكثيرون منهم إلى الجمع بينه وبين آداب الأمم الأخرى
فأضافوا إلى الشعر "عربي ما جعلهم فى سجل الخالدين .. وها هو ذا شوقى
على سبيل المثال يمزج بين استيعاب للتراث العربى وآداب الأمم الأخرى
وبخاصة الأدب الفرنسى ، فيضيف إلى شعرنا ما لم يكن يعهده من
قبل ، وقد تمثل ذلك فى مسرحية الشعرى هذا فضلاً عن تجديده فى جوانب
كثيرة من الشعر من حيث بناء القصيدة وتكوين الصور الشعرية ،
ومما قاله د/ طه حسين فى هذا الصدد : كان شوقى يحسن التركيب وكان
متقناً للفرنسية قد يرع فيها نطقاً وفهماً ، وكان أول أمره كثير

(١) مقدمة مرثى الشعراء ٢٢ خليل مطران

(٢) حافظ إبراهيم شاعر النيل ٩٢ د/ عبد الحميد الجندى

القراءة حريصاً على الفهم فقرأ كثيراً ، وتمثلت نفسه ما قرأ وما فهم .
وانضم إلى هذه العناصر التي كانت تركيب طبيعته عنصر جديد هو العنصر
الفرنسي الذي عمل في عقله وخياله ومزاجه كله ونمت العناصر الأخرى
بالقراءة والحياة ، عاشر شوقي العرب في شعرهم وأدبهم فعظم حفظه من
العربية ، وعاشر الترك في حياته اليومية واتصل بهم أشد اتصال فعظم
العنصر التركي فيه ، ولسوء حظ الأدب الحديث لم يعاشر شوقي قدماء
اليونان كما عاشر قدماء العرب ولو قد فعل لأهدى إلى مصر شاعرها
الأكبر ، (١) .

وقد حدث أن وجد أدباء جمعوا بين الشعر والنقد فكانت لهم
إبداعاتهم الشعرية ونظرياتهم النقدية وغالباً ما كانت نظرياتهم هذه تنسم
بطابع التمرد على بنية القصيدة التراثية وما جاء على غرارها من أشعار
المعاصرين لهم ، إلا أن هؤلاء الأدباء لم يغفلوا عن إلزامهم بالقرائن شأبه
في ذلك شأن اهتمامهم بأداب الأمم الأخرى والتي كانت تعد محرراً أساسياً
في تكوين نظرياتهم النقدية .

وهام أولاء عبد الرحمن شكري ، وعبد القادر المازني ، وعبد المحمود
العقاد يحاولون التجديد في الشعر العربي ليكون مسيراً لما درسوا من آداب
الأمم الأخرى وبخاصة الأدب الإنجليزي وجعلوا من اتجاههم هذا مدرسة
نقدية إبداعية أطلق عليها مدرسة الديوان ، ومع ذلك احتل تراثنا الشعري
جزءاً كبيراً من مكونات مواهبهم النقدية وملكاتهم الإبداعية .

فالمازني - عن سبيل المثال - نرى في شعره فطرته السوداء إلى
الحياة وتذبذبه بين الإقبال عليها والتمرد منها ، كما نرى فيه استخفافه بالحياة
والأحياء وتهكمه من كل شيء وسخريته بكل شيء وذلك لا يمكن أن نجعلنا
نغض الطرف عما يحتويه من تقليد ومحاكاة ، فنحن نرى أن المازني على

الرغم من تجديده ، وعلى الرغم من تطويعه الشعر لوجدانه يقلد شعراء
بعضهم ، فتجده يحاكي دابن الرومي ، بل تجده يعارضه في قصيدتين من
مطولاته هما الحمزية ، والنونية مع أن المازني قد صرح في أكثر من موضع
أن التشطير والمعارضة لا علاقة لها بالشعر الأصيل ، ولكنها تدريب على
النظم فحسب ، ونجده كذلك يحاكي مقطوعات مشهورة لشريف الرضي ،
والحق أنه تأثر بهذا الشاعر و كان يعود إلى شعره بين الفترة والفترة (١).

ويفسر — العقاد — مر اتسكاه المبدعين الواعين على فتاح سابقين
والمجيد من معاصريهم تفسير المبدع الحصيف والذواقة الماهر في استثمار
فتاح غيره والوصول به إلى أرقى مستوى من العمق والوضوح وذلك حينما
سئل ، لماذا يهرى القراءة ؟ فأجاب :

أدوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة واحدة
لا تكفيني ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة ، والقراءة دون
غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد
لأنها تزيد هذه الحياة من فاحشة العمق وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب ،
فكرتك أنت فكرة واحدة ، شعورك أنت شعور واحد ، خيالك أنت
خيال فرد إذا قصرته عليك ، وليكنك إذا لاقيت بفكرتك ففكرة أخرى
أو لاقيت بشعورك شعوراً آخر ، أو لاقيت بخيالك خيال غيرك ،
فليس . فصار الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أو أن الشعور يصبح
شعورين أو أن الخيال يصبح خيالين ، كلا وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي
مئات من الأفكار في القوة والعمق والامتداد ، وأن الفكرة الواحدة جدول
منفصل أما الأفكار المتلاقية فهي المحيط الذي تتجمع فيه الجداول جميعاً (٢)

لذا لم يكن بدعاً أن يمتتن العقاد بصنيع البارودي في انجاده إلى

(١) مجلة الهلال عدد سبتمبر ١٩٧١

(٢) ساعات من حياتي : ٢٠١ طاهر الصناحي

التنقيب عن تراث الشعري وإحيائه وأن يتجه هو الآخر إلى السير على نمط شعراء العربيه النابيين في كثير من نظمهم فله على سبيل المثال قصيدة قوتية نظمها على نمط قصيدة لابن الرومي وله قصيدة خمرية نظمها على نمط ابن القارض .

وبما تجدر الإشارة إليه أن شعراءنا العرب الذين هاجروا بعيدا عن ساحه الأدب العربي وكونوا الرابطة القلبية ثم العصبية الأندلسية وتميزوا بطابع خاص في أشعارهم لم تلمهم ثقافت الأمم التي نزحوا إليها من الوقوف على أمرار التراث الشعري العربي والاستفادة منه ، يدلنا على ذلك تناجحهم الشعري واحتفاؤهم بالعياصرة من الشعراء العرب التراثيين .

فها هو ذا — إلياس فرحات — لم يخل شعره من خبايا الحكمة والمثل يرسلها في خلال القصيدة وتكثر هذه الظاهرة في شعر فرحات كثرة تذكرنا بالحكم والأمثال في شعر المتنبي (١) .

وذلك في مثل قوله داعبا إلى الإصلاح الإجتماعي بعد أن لعب شيطان الإستعمار دوره الآثم في نشر الفساد بين أبناء البلد الواحد (٢) .

من ربي لبنان يعلو صوت أحرار البلاد
إن مر الموت يحلو في سبيل الإتحاد

لا تطبق الشام ضيا من عتاة معتدين
فرقوا الإخوان كيما يستمروا حاكمين

ليس لبنان المغدى غير صدر الشام
لا يقيم الدين حدا بين إخوان كرام

(١) أشعار وشعراء من الممجر ٩٢ محمد عبد الغنى حسن .

(٢) تاريخ الشعر العربي الحديث ٣٢٢ ، ٣٠٥ أحمد قيش .

وها هو ذا إبليها أبو ماضى — بذكرنا يابى لعلاء المعرى ووقوفه
متأملاً فى أصل الوجود وذلك فى قصيدته، لست أدرى، وبما قاله فيها، (١) :

كلما أيقنت أنى قد أمطت الستر عني
وبغت لى سرى ضحككت نفسى .. متى
قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم أجدنى
فهل الجهل نعيم أم حليم : ست أدرى
لأننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم
أما لغز وذهابى كمجئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا نحادل ! ذو الحجا من قال إنى : لست أدرى

وها هى ذى العصبية الأنسلبية تقيم فى عام ١٩٣٥ م مهرجاناً تذكارياً
لمرور ألف سنة على وفاة المتنبى (٢) وقد قامت هذه العصبية املة — فى تجديد
طبيعة الشعر العربى ولكن فى هدوء وفى غير م، عنف أو ثورة كما أنها لم
تحمل من أهدافها قطع انصبة تماماً بين الشعر الحديث والشعر العربى القديم
بأن كانت على العكس من ذلك راعية فى بهاء شىء من القديم يصل الماضى
بالحاضر ولا يقطع العرب عن التراث الفكرى لأبائهم الأقدمين (٣) .

ولعل فيما قدمت ما يؤكده أهمية التراث الشعرى ومواكبته لكل
تجار تجديدى فى ميدان الشعر حتى تتحقق للشاعر أصالته ونحو مبته دونما
أى أكثرات بتلك الدعاوى الهادفة — بقصد أو بغير قصد — إلى تحطيم

(١) تاريخ الشعر العربى الحديث ٣٢٢ ، ٣٠٥ أحمد قبش .

(٢) التجديد فى شعر المهجر ٥٢ د / محمد مصطفى هدارة .

(٣) المجلة — عدد أكتوبر ١٩٦٣ .

تراثنا ومقومات لغتنا والتي اشتدت حدتها منذ أواخر العقد الخامس من القرن العشرين وذلك على شاكلة ما نشره — لويس عوض عام ١٩٤٧ م تحت عنوان «حطوا عمود الشعر» ، حيث أكد — حسب زعمه — أن الشعر العربي قد مات وأن من يشك في هذه الحقيقة فليقرأ جبران، وناجي وأمثالهما ، أما شعائر الدفن فقد قام بها أبو القاسم الشابي ، وإيليا أبو ماضي ، وطه المندس ، ومحمود حسن إسماعيل ، وعبد الرحمن الخميس ، وعلى با كثير (١) .

والواقع أن مثل هذا الادعاء قد لاقى قبولا من بعض الذين خرجوا على نظام القافية في الشعر ، وخيل إليهم أن طسريق الشهرة إنما هو في استدبار الماضي لأنهم يعيشون حساسية جديدة في الشعر لا يمكن أن تنمو وتؤتي أكلها إلا ببذ التراث والإقبال على المترجم من آداب الأمم الأخرى ، فضلوا وأضلوا وأتوا بالغاز وأحاج وشعوذة لفظية وتعقيدات معنوية أصابت التيار الشعري العام بالضمور والقصور ، وأصبح الشعر مهنة من لا مهنة له .

ولو فطن هؤلاء إلى صنيع رواد حركتهم الشعرية مع التراث لتبين لهم ، أنهم كانوا ولا يزالون على صلة وثيقة به ، فذاك الملائكة التي تعد الرائدة الأولى لحركة الشعر الحر عند الكثيرين من النقاد والمؤرخين — لم تغفل تراثها الشعري ولم تتخل عن الشطرين .

وهاهي ذي تقول من إجابة على سؤال وجه إليها : إن هناك فرقاً بين وبين شعراء الشعر الحر ، هو أنهم تركوا شعر الشطرين تركاً تاماً ، وكان أوزانه تهيمهم ، وهذا يخالف موقفى . فأنا لم أترك شعر الشطرين الخليلي في أية فترة من حياتي الشعرية ، وإنما مضيت أستعمل الشكاين معاً حسب

(١) آفاق عربية عدد يوليو ١٩٧٥ — «مجلة» .

الحاجة الفنية للقصيدة وذلك واضح حتى في « شظايا ورماد » - اسم ديوان لها - الذي بدأت به الدعوة الحارة إلى الشعر الحر عام ١٩٤٩م (١).

وها هو ذا صلاح عبد الصبور يعكف عاين كاملير على التراث الشعري العربي يقرؤه ويتمثله ويعجب بأصوات منه ويرفض أصواتا أخرى ، وها هو ذا أدونيس في سوريا يعكف طويلا على الشعر العربي في مختلف عصوره ويمتدح لما فيه مختارات ينشرها في ثلاثة مجلدات ضخمة تحت .. عنوان ديوان الشعر العربي . وغيرهما كثير قاموا بالصنيع نفسه أو قريب منه (٢)

هذه ناحية ، وناحية أخرى أن هؤلاء الذين ضلوا وأضلوا لو تأملوا التراث الشعري من لبن العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي وما جاء بعده من شعر اعتمدت أصوله وصاقلته ومتطلبات حينه على التراث استلهاما واستر قادا لعلوا أنهم ليسوا بدعا في امتلاكهم الحساسية شعرية جديدة ، وإنما وجدت حساسيات شعرية - حسب إطلاقهم - منذ العصر الجاهلي ، وذلك بدءا من زهير بن أبي سلمى ومدرسته ومرورا على بشرى وأبي نواس ثم أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبو العلاء ثم البارودي وشوقي ورواد مدرسة الديوان ، وجماعة أبولو ، وغيرهم . إلا أن هذه الحساسيات أضافت إلى الشعر من القيم الجمالية والمضامين الفكرية ما يؤكدها صلتها بالماضي ، ويوثق مساهمتها للحاضر .

وبون شاسع بين استراتيجيات هذه الحساسيات وتلك الحساسية .. التي يعيشها كثير من مثشاعري اليوم والامس القريب .

والمتتبع لتصرفات رواد هذه الحركة الشعرية بشعر بنوع من الإحباط

(١) آفاق عربية عدد يوليو ١٩٧٥ - مجلة ،

(٢) استثناء الشخصيات التراثية ٣٢ د / جلال العشري

والياس قد سطر عليهم نتيجة ما أصاب حر كتبهم من إسفاف وابتذال في مبناها ومحتواها على أيدي من حددوا في تحمل هذه الحر كما من إطلاقة ألقاها به ، وما علموا أنه ما زالت ضوابط ونظم ... لا يكون الفن هنا إلا بها - في داخل الإنتاج الشعري نفسه لا يستطيع تحقيقها إلا من ملك أدوات الشعر وعمله .

وبما قالته - مازك الملائكة - روائع على سؤال يدور حول أسباب الابتذال في الشعر الحر وما فيه من غموض وتعمية .

أما أسباب الابتذال في الشعر الحر فتكمن في جهل كثير من الشعراء للغرض منه ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الشعراء لا يعرفون شيئاً عن أوزان الشعر العربي ، فهم يخرجون على الوزن في شعرهم الحر دون أن ينتبهوا أو يلاحظوا ، فضلاً عن أنهم يتحمسون في شعرهم تشكيلات وزقية غير مدسجة مثل الخلط بين «متفاعس فعلس» و «متفاعلس متفاعلس» ، و «و بدسها» ، بون شامع يجعل شعرهم قبيح الوقع والسمع العربي المدرب ، وأبرز عيوب شعرهم الحر أن فيه تقليداً كبيراً يقلد الواحد منهم الآخر في الصور والأفكار والبناء ظاناً أنه يأتي بشعر رابع مع أن شعره مهمل ضعيف ، ومن الابتذال عندي أن يفان هؤلاء الشعراء أن شعر الشطرين قد مات إلى غير جملة : وأن المستقبل كله لشعرهم الحر . فالواقع أن شعر الحلبي أن يموت مصفاً ، وأن له مستقبلاً عظيماً يكتمل حين ينضج الشعر في عصرنا

ثم نقول : ليس الغموض إلا ظاهراً من ظواهر التقليد ، يقلد شاعر الحديث ما يقرأ من شعر عربي ، وأنا أحب الشعر الانكليزي والفرنسي وأجد لذة عميقة في قراءتهما غير أنني أدقت أن يقلد شعراؤنا هذا الشعر (١)

وبما قاله الشاعر البياتي : إنني أتساءل ما الذي حققه هؤلاء على صعيد

أشكال الشعرية خاصة الشعراء الذين جاموا بعد جيل الرواد ، لقد عرق معظمهم في الرمال المتحركة لترجمات الشعرية من آداب الأمم الأخرى ، واستعاروا لغتها وأزياءها وديانها وبيدها، بن يبدو لي أحياناً أن الغرض الناتج عن قصور و الرؤية وعجز في الأدوات الفنية أصبح ينعت بأنه محاولة ... لإيجاد أشكال جديدة .

كما أنشأ من جديد : من هو الذي يستطيع إيجاد أشكال شعرية جديدة ؟ هل هو لشاعر المبتدئ الذي لا يحسن حتى استخدام لغته التي يكتب بها ؟ قلت منذ البداية : إن إيجاد أشكال شعرية جديدة هو نتيجة من نتائج ثورة المضمون . ولا يمكن أن تتأق مثل هذه المحاولات إلا لشاعر مبدع أصيل وليس لكل من هب ودب (١)

لذا فإننا نشاهد هؤلاء الذين أفحموا أنفسهم في دنيا الشعر أو تجنوا على مواهبهم بانحرافهم عن طريق الحداثة والصواب قائلين لهم :

قبلوا على أدبكم العربي بعامة وتراثكم الشعري بخاصة ، متابعين لقيمة .. اجمالية وأصوله الفنية وطاقاته التعبيرية وقدرته على مواكبة ما يطرأ على مسرح الحياة من تطور فكري فتيحة تفاروت الأزمنة وتباين الأمزجة .. انتهى لكم الهدرة على الإبداع الجيد ، وإن كان لابد من آداب الأمم الأخرى فليس هناك ما يحول دون الإقبال عليها سوى إعفان حصائص الأجناس ، والموازنة بينها وبين قيمنا وأذواقنا ، ولكم فيمن سبقكم من عمالقة الشعر الذين جمعوا بين التزود من أدبنا العربي وآداب الأمم الأخرى القدوة والمثل ، وبذلك نفد تراثنا تقدير آداب الأمم الأخرى لتراثها ونصل إلى ما نريده من أصالة وإبداع ... خلاق

ولقد وقع من نفسي ما قاله « جوستاف لانسون » ، من مقال عن منهج دراسة الأدب موقع القبول والرضا إلى حد كبير إذ يقول : نحن نسعى إلى تحديد أصالة الأفراد أى الظواهر الفردية التى لا شبيه لها ولا تحديد ولكن مهما يكن الأفراد من العظمة والجمال ، فإن دراستنا لا يمكن أن تقتصر عليهم ، وذلك أولا لأننا إن نعرفهم إذا لم نرد أن نعرف غيرهم فأمعن الكتاب أصالة إنما هو إلى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته فلسكى نجده لا بد وأن تفصل عنه كميات كبيرة من العناصر الغربية ، يجب أن نعرف ذلك الماضى الممتد فيه وذلك الحاضر الذى تسرب إليه . (١) ولا يختلف الشاعر عن الكاتب فيما ذهب إليه — جوستاف لانسون — من تحديد لماهية الأصالة .

(١) النقد المنهجي عند العرب ٤٠٠ د / محمد مندور

الرواية الجديدة
دراسة تاريخية من بداية العصر الحديث

دكتور أحمد الحفناوي

تشتمل هذه المحافظة على حدود من واحات الصحراء الممتدة عربى واد النيل بمصر ، وكان بعض هذه الواحات يتبع من الناحية الإدارية محافظة الصحراء الغربية التى تكونت سنة ١٩٤٦ م ، وكانت قاعدتها مرسى مطروح ، وفى سنة ١٩٦٠ م ، فصلت الواحتان : البحرية و الفراهرة عن محافظة الصحراء الغربية التى تغير اسمها وأصبحت تعرف باسم محافظة مصر و صحت إلى الواحتين : الداخلة والخارجة وأصبحت تكون محافظة الوادى الجديد ...

وكان للباحثين العرب من قبل - كالباقون والمسيود وأنى الفدا والمقرين وغيرهم - شرف الأولوية و أرتياد الصحارى والسياسة بمجاهلها مستهدفين لأخطارها فى وقت لم يعرف عنها غيرهم إلا النزر اليسير ...

وكانت هذه الصحارى - ولا تزال - حجابا - مقفلا ، ومراحمولا مهبها قال عنها العارفون ، فللصحراء هديرها وللرمال المنبسطة سكورها ، ولتلك الجبال الشامخة عظمتها ، وهذه الصخور الخرافية تعدد ألوانها من حمراء قانية إلى زرقاء صافية ومن صفاء سمائها ولمعة نجومها وضيائها خلال لياليها الساحرة ، ثم من جفاف هوائها ، وطلاقتها ومن اتساع أراضيها وفراغها ، ومن سكون القفار وهديرها ، كل هذه العوامل تلفت نظر الباحث ، وتخلب لب الرواد ، وتجذبهم نحو أرتيادها ..

وكلمة صحارى تطلق على تلك القفار الممتدة ذات المساحات الواسعة ، وكثبان الرمال الحالية من الماء والنبات ، كالصحارى الكبرى وصحراء جوبي ، لكن صحراواتنا فى مجموعها أبعد - إلى حد ما - من ذلك ، فالآبار فى بعض مناطقها متقاربة ، والواحات فى بعض أجزائها متعددة يأنه تجيب إلى الإنسان أرتيادها والتمتع بمناظرها بشوق مهما كلفه الشوق من مشقة وعناء ، أما ساكنوها من البدو وما طروا عليه من

البساطة في المعبودة والسهولة في التعبير ، يعطينا فكرة حقيقية عن حالة هؤلاء القوم ويصور لنا سر عظمتهم ، وبساطه حكمهم ، كما يفسر لنا ذكاهم وبعد تظلمهم في معرفة النجوم واتجاهاتها وهبوب الرياح وعلاماتها وأوقاتها ، مما يجعلهم سادة هذه الصحارى وأدلتها .

ومن المدهش حقاً ، أن يرى المسافر ذلك اتباین العجيب بين تلك المروج الخضراء التي تحيط بوادي النيل وبين هذه الصحارى المقفرة التي تحده من الجانبين ،

أن قارات العالم (كآسيا وأستراليا وغرب أمريكا) ، بها الصحارى الشاسعة المجهولة والأرضى المقفرة ، ولكنك إن تجرد في مختلف بقاع العالم ما يماثل بعض مناطق صحرائنا لغريبه في صمتها ووحشيتها وحالة الخدب التي تغطي عليها ، وليس من الضروري أن ترتادها لمسافات طويلة لتدرك هذه الحقيقة ، فإن خطوات قليلة بين رمالها اللينة يمكن أن تنقل الإنسان من المروج الخضراء ، والأرضى الخضراء اليانعة الغنية بمياه النيل السعيد إلى هضبات متسعة مقفرة تسكت نفثها الرمال والصخور على ما ي البصر .

ويمكن تقسيم صحرائنا هذه إلى مناطق ثلاث :

١ - المناطق الساحلية :

وهي الشريط الأحمر الذي بطرق ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويشمل الأرضى المتماوجة التي تتخللها الخضرة والقواقع ، وهو أكثر الأقسام عمراً وأزدهاراً بالسكان ،

٢ — المنطقة الوسطى :

وتشمل هضبة ليبيا والجرب الكبير ، ومنخفض القنطرة ، وأراضيه وهضبات وأراضى منخفضة ذات تربة خشنة وعرة تتخللها أحياءاً الجروف والأخاديد البازقة المدببة ذات الأحجار الجراتينية والبالورية .

٣ — المنطقة الجنوبية :

وقد من الله عليها وعوضها خيراً عن الأمطار بهورد من الواحات المنتشرة فيها ذات التربة الخصبة والمياه العذبة .

ولقد عرف المصريون القدماء من الواحات سبعاً كانوا يطلقون عليها في كل عصر اسماً يتناسب مع ما كانت تستخدم فيه في ذلك العصر، ولم تكن التسميات قديمة إلا إلى تمييز هذه المنخفضات الحية عما يحيط بها من أرض قاحلة موات .

أما تلك الواحات فهي :

١ — كيفيم أو واحة راس : أي الواحات الجنوبية وهي المعروفة بالواحة الخارجة .

٢ — تسنيس : وهي المعروفة بالواحة الداخلة .

٣ — ويت أي الراحة ولا يعرف لها اسم ولا موضع .

٤ — سكة أمو أو حقل النخيل : وهي المعروفة بواحة سيوة .

٥ — ويتمحت أو واحة الشمال : وهي المعروفة بالواحة البحرية .

٦ — سكة همام أو حقل الباح : وهي المعروفة بوادي القطرون .

وفي الفقرة التي زار فيها المؤرخ اليوناني هيروديت مصر كان المصريون

القدماء يطلقون على الواحات اسم « جزر الرحمة » لأنها الملاذ الرحيم الذي يقدم الراحة والطمأنينة هبة لكل مرتحل في درب الصحراء القاحلة الوعرة . بعد تلك الرحلات الطويلة الشاقة ، يشعره بحال الحياة في حداوله الرقراق وظلاله الورافة ، فهي الأمر الباسم والرجل المرتقب الذي قيمه القافلة بين ذلك البلقع العريض الموحش .

لذا كان الرومان يسمونها « ويسز » أي نهاية الرحل أو محطة الاستراحة . كذلك عرفها بعضهم « زوزماس » بأنها جزيرة بعيدة وسط الصحراء كل من رسا عليها لا يمكنه الإفلاع عنها ، إذ لا يستطيع أن يتخذ سبيله إلى الهرب في طرق صحراوية قاحلة جرداء . وليس لأقدم البشر بها أثر يمكن الاهتداء به إلى سواء السبيل .

ولعله عبر عنها بالجزيرة ، لأنها مقصد الضارب في الصحراء . كما هو الحال في جزر البحار ، إذ هي مقصد كل ممتط للبحر مرتحل فوق العباب الطمأنينة والهدوء والصحراء والبحر نهايتهما قريبنا الشبه في الخطورة عندما فففيهما يضل الساري أو تعصف به الأنواء .

ولسنا ندري على وجه التحقيق متى عرف المصريون الواحات ، ولكن الذي نستطيع أن نثبته بعد التحقق منه هو أن أول من تعامل مع الواحات من ملوك مصر الملك « سينستريس الأول » ، إذ أرسل أحد أمنائه المدعو « أكوديدي » لعقد معاهدة تجارية مع الواحات الخارجة فاقتم أكوديدي هذه الفرصة وأقام لنفسه حجراً مقدساً بمعبد « أوزوريس » بالعرابة المقدسة ، وهذا هو اقدم أثر يشير إلى حدوث مثل هذه الزيارة وكان ذلك سنة ١٩٣٥ ق.م .

ولقد لعبت الواحات بموقعها الجغرافي وظروفها الطبيعية أدواراً شتى في حياة الشعب المصري ، فالمصريون القدماء اتخذوا منها مستعمرات لقنى الأسياف والمحرمين ومقبرة لجشهم عندما يموتون حتى لا تلوث بأدرانهم أرض مصر

المقدسة ، ولهذا الإجراء قصة دينية تفسره ، ذلك أن « سيت » إله الشر والجرمة عندما قتل «أوزوريس» إله الآخرة المتولى بحكمة الموتى وحماستهم ، قام الإله حوريس رب الأرباب بمطاردة إله إلى أن تمكن من القبض عليه وقتله في مدينة قفط ومن ثم عهد إلى أعوانه في نقله إلى مكان ناء سحيق تائه وسط الصحراء يقال له «أوتوء» وهو اليوم : الواحة الخبازجة كبرى الواحات المصرية وقتذاك عقاباً له على ما ارتكب من جرم !!

وبمرور الزمن أصبحت الواحات ملجأ لجماعة المضطهدين والمضطرودين ، كما صارت مواضع صالحة للرهبنة والتشف والصوفية والرهادة الدينية . ويقال أن كلمة «واحة» مصرية قديمة معناها مكان للراحة والواحة مفرد جمعها «واحات» ، وهي عبارة عن قطع متفرقة من الأراضي الزراعية وسط الصحراء تروى أراضيها من ماء يخرج طافياً من عيون تتفجر من باطن الأرض .

ولما جاء العرب إلى مصر وجدوها مسماة بهذا الاسم ، فلم يحاولوا تغييره وأدخلوا هذه التسمية في العربية كما هي مثلما أدخلوا كلمة بستان وينزهير الفارسيين دون تبديل .

واقدر كانت منطقة الواحات بصفة عامة وثيقة الصلة والروابط بحوض وادي النيل ، نظراً لأهمية المنطقة بموقعها على مسالك التجارة عن طريق القوافل التي كانت تخرج من حوض وادي النيل وتعبث المنطقة إلى الأقاليم الإفريقية في الشمال والغرب والجنوب الغربي .

وعلى الرغم من أن تاريخ المنطقة وتطورها قد أسدلت عليه الفترات المظلمة ستاراً كثيفاً ، فإننا نجد توضيحاً لذلك في تطور الوضع المناخي الذي حول الأقاليم الخصبة إلى مناطق جرداء انحصرت أراضيها الخصبة تدريجياً في مناطق صغيرة هي التي عرفت بالواحات ، وقد أخذت هذه في التآكل المدمر الذي دفع السكان إلى الهرب إلى مناطق أكثر رخاءاً ، واستوحشت

الحيوانات التي كانت تعيش في الواحات ، وانقرض العدد الأكبر منها ، كذلك فإن طرق القوافل قد أغلقت بسبب سافيات الرمال التي كانت تغطيها ، وكان من هذه الطرق ، الطريق إلى الشمال والغرب والطريق من الواحة الداخلة والكفرة ، وقد أفقلا في عهد أحمد بن طولون . وتنا كد خطورة هذه السافيات الرملية من قدرتها على دهن الحملة العسكرية الضخمة التي أرسلها قبيل تدمير واحة سيوة أو الواحة الداخلة على خلاف في الروايات . وهذه العواصف الرملية تمثل أهم مظاهر الطبيعة في الواحات حيث تأتي على هيئة رمال سائلة تتحرك بطيئاً نحو الجنوب تتخذ شكلاً هلالياً .. ولذا فهي ذات خطر عظيم على المزارع والمباني ، وكم من بلدة زالت ونخيل نمس وضريق ردم تحت رمال هذه الغرود التي تعد أخطر أسلحة ضد الإنسان في هذه المناطق وتتجمع هذه الغرود الرملية في شكل محاميع كالبحر المتناوح وتختلف في الارتفاع ، وقد تصل أحياناً إلى ٥٠ متراً وفي الاتساع نحو ١٠ كيلو مترات ، وقد ردمت هذه الغرود كثيراً من العيون والآبار بحفرة باريس بلواحة الخارجة واكتسحت النخيل بإحبة عين القضاء بالواحة الداخلة وهي الآن تهدد بلدة جناح بالواحة الخارجة أيضاً .

لقد أطلقنا على المنطقة الشرقية للصحراء الليلية مسبات عديدة ، اختلفت باختلاف للفترات التاريخية التي مرت بها ولا شك في أن ذلك كان يرجع إلى الصراع الذي كان دائم الوقوع بين السكان الضعاف والنازحين من الأقوياء ، وعرفت المنطقة التي تضم الواحات الثلاث : الخارجة والداخلة والفرافرة باسم « موريتانيا » وكانت تحكم من قبل أسرة بيده التجارة .

ويرجع لفظ « موريتانيا » إلى جماعات من الميديين « الذين جاءوا من الشام إلى الساحل الليبي ، وامتد نشاطهم إلى منطقة الواحات للتجارة والسيطرة على طرقها ومراردها .

وقد وقع تصحيف على اللفظ « ميري » فتغيرت الدال إلى راء ، وظهر اللفظ « ميري » ثم حدث أيضا تغير في الصورة والصوت وظهر اللفظ « موري » .

ومن الأمور الطبيعية أن تحدث التطورات اللغوية بسبب الهجرات ، وكما سبق أن قلنا فإن الصراع كان مستمرا بين السكان الضعاف في هذه المنطقة وبين النازحين من الأقوياء .

وقد جاء اسم « موريانيا » الذي عرفت به الواحات التي ذكرناها في كتاب حنا النيقومي كذلك جاءت الإشارة إليه في كتاب « برنو » و«صحاري والسودان » الذي ألفه السير ريتشارد بالمر ، حيث ذكر : أن الصحراء الواقعة شرق برفوج (برنو) تمتد إلى أثيوبيا (حوض وادي النيل الأسفل) و«موريانيا» شمالا وأرض المازكس (أليجا) في الشمال الشرقي .

كذلك يذكر أيضا : أن المازكس ثاروا سنة ٣٧٣ م ودخلوا أرض «موريانيا» فأرسل الإمبراطور ثيودوسيوس حملة قصد تأديبهم وهم في أرض «موريانيا» ، وقد وردت أسماء القبائل التي سكنت «موريانيا» في الوثيقة التي كتبت في عهد ديوقلتيان .

كذلك تحدث بروقيوس عن الروم الذين نزحوا في صحراء ليبيا ، فقال : أنهم اشتبكوا في قتال مع الموريثانيين واستسلموا إخضاعهم بعد أن هزمهم الموريثانيون بسبب استخدامهم للخيال التي كانت سبب في فرار خيل الروم من ميدان القتال (١)

وفي سنة ٤٣٥ م احتلف «البحا» نسطوريوس ، الذي كان قد احتجز في الواحة الخارجة في غزوة لهم عليها وفكروا أمره قرب أخميم في صعيد مصر .

(١) الشاطر بوصيلي عبد الجليل : تاريخ وحيضات السودان الشرقي والأوسط : القاهرة ١٩٧٢ : ص ٣١٣ ، ٣٤١

على أن هذا البحث يهتم بمجموعة الواحات التي أصبحت تمثل الوادي الجديد وما يتبعها من الواحات الصغيرة التي ذكرتها المصادر العربية بأنها حارات . . وهذه الواحات كانت تحت مركزا (استراتيجيا) له خطورته على المواصلات بين حوض وادي النيل وقلب بقارة إفريقيا ، حيث ارتبطت مع حوض النيل بعدد من الطرق التي كانت تسلكها القوافل ومن أهم هذه الطرق من الجنوب إلى الشمال أي من أسوان إلى شمال أسبوط . كانت القوافل تخرج من حوض النيل في المناطق الآتية :

- ١ — منطقة أسوان — دراو
- ٢ — من أدفو
- ٣ — من استا
- ٤ — من لزيقات
- ٥ — من فرشوط
- ٦ — من العلوانية
- ٧ — من الكوامل
- ٨ — من الغنائم
- ٩ — من الزرابي
- ١٠ — من أسبوط — بني عدي

كانت هذه المسالك تتصل بدرب الأربعين الشهير الذي كان يستخدم قديما بين أسبوط ودارفور .

ولعبت هذه الطرق — بوجه عام — دورا هاما في نقل الحضارة إلى قلب بقارة وأجزائها الغربية ، كما سلكتها الهجرات المتتالية من حوض النيل .

التطور التاريخي :

يذكر ابن حوقل أن جميع الواحات بيعاً قديمة أرايه معمورة ، لأن البلد كان نصرا في الأصل قديماً ، (١)

وتتفق المصادر التاريخية على قيام الرومان بحفر الآبار لتعمير البلاد كما أنهم شقوا الجداول المغطاة لسريان المياه إلى الأرض الخصبة ، ويرجع تغطية هذه الجداول لحفظها من الرمال ، كذلك أقاموا المعابد وأنشأوا القلاع والحصون لحاية الاقليم والقوافل . . ولوحظ أن الهجرات قد ازدادت إليها في العهد المسيحي بسبب الاضطهاد السني . . وهناك مقبرة في البجوات في الواحة الخارجة ستحدث عنها فيما بعد ، وكذلك في واحة الفرافرة . ويذكر ابن حوقل (أن الغالب على أهل الفرورون الفرافرة ، القبط النصاري) (٢) .

ونقل الأنصار ، في كتابه نخبة الدهر (أن الواحات كانت من قبل مملكة قائمة بذاتها ، ثم صارت مضافه) (٣)

ولا يعم عن تاريخ الواحات في العصر الإسلامي أكثر مما أشار إليه ابن حوقل ، حيث أشار إلى أن السلطنة التي كانت تتولى حكم هذه المنطقة كانت في أيدي أسرة آل عبيدون ، وذلك منذ الفتح الإسلامي لمصر حوالي عام ٦٤٠ م (٤)

(٢٠١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض . ليدن

١٩٣٨ : ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

(٣) الدمشقي (٧٢٧ هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب نخبة

الدهر في عجائب البر والبحر : ليبرزج ١٩٢٣ : ص ٧١

(٤) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ليدن

١٩٣٨ : ص ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

وجاء في كتاب البلدان للياقوتى : (أن الواحة الخارجة هي بلاد فيها
حصون ومزارع وعيون مطمورة ومياه جارية وأصناف الشعير والمكروم
ومزارع أرز) (١) .

وذكر المسعودى أن بلاد الواحات وهي بن مصر والإسكندرية وصعيد
مصر والمغرب وأرض الأحباش من النوبة وغيرهم وصاحب الواحات
في وقتنا هذا وهو (سنة ٣٣٢ هـ ، ١٩٤٣ م) عبد الملك بن مروان وهو
رجل من العرابية ، إلا أنه مروانى المذهب (أن يميل إلى الحكم الأموى
المروانى) ويركب في العرف مع الناس حيلاً وحلاً وبينه وبين الأحباش
« النوبة » نحو ستة أيام . . . وفي أرضه خراس وعجائب ، وهو بلد قائم
بنفسه غير متصل بغيره ولا مفتقر إليه ويحمل من أرضه القمح والزبيب
والعنب ، وقد رأيت صاحب الرجب يقيم بباب الأخشيدي محمد بن طفج ،
وذلك سنة ٣٣٦ هـ ، وسألته عن كثير من أخبار بلده (٢) .

وكان ابن حوقل أكثر توفيقاً من المسعودى ، حيث كتب جملة من
خير رحاله وأوصافه وأشار إلى الملك القائم بالأمور وقتئذ وهو عبدون
وذكر أن الملك الذى سبقه كان اسمه أبو الحسن بكر بن عبد الصمد
ابن عبدون .

ومن منتصف القرن العاشر الميلادى لا يعلم شيء عن تاريخ هذه المملكة ،
فقد ذكر الإدريسى : (الواحات الداخلة خراب الآن لا ساكن فيها)

-
- (١) ليعقوبى (٧٢٧ هـ) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب :
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : ليبرز ج ١٩٢٣ ص ١٩٧١
(٢) المسعودى (٣٤٦ هـ) على بن الحسين بن على أبو الحسن : مروج الذهب
ومعادن الخوهر : القاهرة : ١٨٨٢ م : ج ٢ ص ٢٢٣

والواحات الخارجية معمورة فيها قرى كثيرة يسكنها أخلاط من الغاس ،
وهى بين أرض مصر وبلاد السودان وتعرف بأرض سنقرية^(١) .

وهذا يدل على أن الواحد الداحمة عاصمة آل عبدون قد تركت
فى زمن لا يزيد عن أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهل كان هذا الترك
للعاصمة بسبب انقطاع القوافل إلى الغرب والشمال أم كان لغزوات من
القبائل التى دخلت المنطقة من الشمال إلى الغرب ؟ .

لقد كانت هناك مجموعات من بنى هلال و بنى سليم وغيرهم ..

ويقال أن السلطان برقوق أقام مهجراً فى صعيد مصر وذلك فى سنة
١٣٨٢ م ، وممروف أن الهوارة زحفوا جنوباً وخربوا مدينة أسوان
سنة ١٤١٢ م^٢ .

وأشار ابن دقاق (أوائل القرن الخامس عشر الميلادى) أن الواحات
كانت بيد أمير من طيخانانات أحدهم : العلانى والثانى أمير هرج نائب الوجه
البحرى^(٣) .

نظام الحكم :

أشرنا فيما سبق إلى ما ذكره ابن حوقل من أن أسرة آل عبدون هى
التي كان لها الحكم والسيطرة على الواحات منذ زمن سابق على دخول

(١) الأدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس :

ص ٤١ .

(٢) ابن دقاق (٨٠٩) إبراهيم بن محمد المصرى : الإقتصار لواسطة عقد

الأمصار ، القاهرة ١٢٠٩ م : ص ٣٥ ، ٣٧

العرب إلى مصر في عام ٦٤٠ م ، وأن الحاكم في زمنه كان عبدون بن محمد
ابن عبدون . . كذلك أشرنا إلى ما ذكره المسعودي من أن صاحب
الواحات في (٣٣٠ هـ - ١٩٤١ م) كان اسمه عبد الملك مروان . . ويتضح
من هذه الأقوال أن الحاكم كان وراثيا ومحددأ في أمر معينة . .

وقد أضاف ابن حوقل : (أن ملوك هذه الناحية يرجعون إلى مروءة
قاشية ومظاهر بالحرية ورغبة في القاصد بين ومحبية للمنتجين على جميع
ضروب القصد مكرمين للتجار نازلين على أحكامهم و الأرباح ، وكان من
أحرصهم على هذه الوتيرة يتقبل المحاسن ويجب حسن الاحدوثة و لشكر
وبرعب في جميل الذكر أبو الحسن مكبر بن عبد الصمد بن عبدون يزيد
على من سلف له من أهله في جميع المقاصد السكرية ، ويركب منها الطرقات
الصعبة الجسيمة ، ولم يمتضى قام مكافه وعمر مروضه عبدون بن عبدون
في ضمن عمد له يعرف بمصبيح بن ميمون مغربي الأصل ، ولد بالواحات
وبلادهم كثيرة المياه والأشجار والعياض والعيون الحاربه العذبة متصرفه
في نخيلهم وزرعهم وأحبيتهم وأكثر غلاتهم القمح والشعير والارز ،
ولديهم من العناب الكثير والقوة الواسعة الغزيرة ما يغدق به على الكثير
من النواحي ، وهي كالناحية المعتزلة في مركز دائرة من النيل ومن أي
بحر قصدت الواحات من أبحاثها كان الوصول إليها من ثلاث مراحل إلى
أربع مراحل ، والناحية الخارجة منها المعروفة ويحيط دويريس ، أقرب
إلى النيل .

ولآل عبدون بالفرفرون (الفرافرة) والبهنسا قصران ومساكن :
لا حرم فيها ولا دخيرة ولكنها أعدت للنزول فيها وقت الحاجة ، للزهوة
وطيها مساكن الأكره بالهنسا ويحيط وييريس ولا يمد آل عبدون

وخدمهم أيديهم في شيء من الجباية سوى الخراج والحزبة من نصارى
وليس بجميع الواحات يهودى واحد فما فوق (١).

ولم نستطع الوصول — بما أمكننا الحصول عليه من مصادر ومراجع
إلى شيء مؤيد عن النهاية التى أنتهت إليها هذه الأجرة ، اللهم إلا أن هناك
العديد ممن يحملون اسم دعيون ، و هناك الواحات والنوبة .

لقد اعتمدت هذه المملكة على إيراداتها على جباية : الخراج والحزبة
إلى جانب ما كانت تعود به القوافل التى كانت تمر عبر طرقها إلى السودان
وغانة والمغرب وفزان من رسوم على الخدمات التى كانت تقدم للتجار
ومعروف أن آل دعيون اشتهروا بحسن معاملتهم للتجار كما ذكر ابن حوقل .
ويدلنا هذا على أن هذه الدولة كانت تعتمد على عدد من الوكلاء عنها هنا
وهناك في إدارة جهازها الإدارى والمالى .

يقول المسعودى : بأنه في سنة تسع و ثلاثين وثلاثمائة سار ملك الموابة
في جيش عظيم إلى الواحات ، فأوقع بأهلها وأمر كثير (٢) .

وتحدر الإشارة إلى أنه قد حدث نزاع بين ملك (المقرة) دنقلة
والواحات (موضوع هذا البحث) وذلك في عام ١٦٩٠ م بسبب قيام
الأخيرة بحظر سفر الأساقفة (رجال الدين المسيحي) وغيرهم عن طريق
المملكة مابين الإسكندرية ودنقلة ، كما كان متبعاً من قبل .

وبوجه عام لم تكن العلاقات بين النوبة ودنقلة إلى حوض النيل

(١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ، أيد ١٩٣٨ .

ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

(٢) المسعودى (٣٤٦ هـ) عني بن الحسين بن علي أبو الحسن : مروح

الذهب ومعادن الجوهر : القاهرة : ١٨٨٢ م : ج ٢ ص ٢٢٣

وبين مملكة الواحات ، بل كانت الحروب متتابعة بينهما (١) ، ويبدو أن هذه الحروب كانت ترجع لأسباب اقتصادية وسياسية ، فقد هجم النوبة على الواحات ووقعت بينهما هدنة سنة ٩٥١ م .

احضارة في الواحات :

كانت تسكن الواحات - في هذا العصر الذي نتحدث عنه - مجموعات من المصريين الأقباط والمسلمين إلى جانب مجموعات أخرى من البربر ، وأيضاً جماعات قليلة منها بنو هلال.

يقول ابن حوقل أن الواحات من بنى هلال عدة غزيرة وأمة كثيرة ، وهي مصيفهم وقت الغلة وميرتهم منها .. . (٢) .

وكان هذا الإقليم يشمل حلقة متصلة بالصحراء الكبرى في الوقت الذي كان فيه أرضاً زراعية تجري في وديانها المياه وتمطر عليها الأمطار وملتقى لهجرات من مصر ومن الشمال من ساحل البحر المتوسط ومن الجنوب : من السودان والأقلية الإفريقية الأخرى ، والمعروف أن مجموعة كبيرة من النوبة انتقلوا في القرنين الثالث والرابع الميلاديين إلى المنطقة الواقعة على حوض النيل جنوبى السلال الأول استجابة لدعوة دققد يانيوس الذي أراد أن يجعل من هؤلاء حماة لحدوده الجنوبية ، وكان يدفع للنوبة إتاوة سنوية على ألا يقوموا بعمل ضد مصالح الرومان .

ومن الطبيعي أن تنقل هذه الهجرات مجموعة من الحضارات والثقافات المتباينة ومن الصعب تحديد مراحل هذه الثقافات نظراً للحاجة إلى مسح شامل

(١) الشاطر بوصيلي عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط : القاهرة ١٩٧٢ : ص ٣١٣ ، ٣٤١

(٢) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ، ليدن

١٩٣٧ : ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

في أرجاء الأقليم يكشف به عن المدن وغيرها من الآثار التي عظمها الرمال التي تتزايد عاماً بعد عام .

ويذكر ابن حوقل : « أن غلات الواحات فوق حاجاتها وبها من القمح والتمور الجميلة السكر الحلب والعناب والقطاني إلى جميع الفاكهة والبقول ما يزيد على حاجاتهم ، أي حاجة سكانها » وينيف على فاقتهم واراادتهم ، ...

ثم تعرض لمورد هام في الواحات حيث قال : « وليس بجميع الواحات حمام ، ولا فندق يسكنه الطارق ولقادم إليها ، وإذا قدم لتجار والزوار على آل عبيدون أزلوهم أين كانوا من قرارهم ودارت عليهم الضيافات إلى حين رحيلهم ، وعندهم بجميع نواحيهم المطاحن باليابس والبقر وقبأ يمشرون ومياه عيونهم حارة ، فهي تقوم لهم مقام الحمامات ، (١) .

ويتضح من ذلك أنه قد بقيت في الواحات من الآثار ما يرجع إلى عهود قديمة ، كذلك يرجع أيضاً إلى ما استحدثه المسلمون وما انتقل عن طريق القوافل ، استحدث المسلمون بهذه الواحات نحواً من خمسة عشر منبراً ولكل قرية من قرى هذه الواحات مساجد معمورة بالصلوات الخمس ، ويدين جميع من بها بالولاء لآل عبيدون .

وبما تحذر الإشارة إليه ، أن هناك صلة واضحة من الناحية المعمارية بين قباب مقبرة البجوات في الواحة الخارجة وبين قباب مقابر أسوان ، وفي هذا ما يؤيد وجود علاقة بين المنطقتين (٢) .

(١) ابن حوقل (أبو القاسم محمد) : كتاب صورة الأرض ، ليدت

١٩٣٨ : ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤

(٢) المقرئ (٨٤٥ هـ) تقي الدين أحمد بن علي : المواقظ والإعبار

بذكر الخطوط والآثار : بولاق ١٢٧٠ م : ج ١ ص ٢٨٠ ، ٢٧٧ ، ٢٢٧

الواحة الخارجة :

تتضمن الواحة الخارجة على أربع قرى ، هي الخارجة ، وهي القعدة ، وجناح وبولاق وباريس ويوجد بهذه الواحة ٦٦٣٠ نخلة كما يقول على مبارك في الخطط ... عليها من الخراج ٥٢٧ جنيتها وفي أوائل القرن العشرين ، كما يوجد ٦٥ عينا للماء تدفع كل عين خراجا سنويا مقداره ٣٥٩ قرشا ، وبذلك يكون مقدار خراج العيون ٢٢٣ جنيتها ، وإلى الجنوب من الخارجة ، على مسيرة ثلاثة أيام من عين الماء المرة التي توجد جنوب بلدة باريس يوجد المكان الذي يستخرج منه معدن الشب من أقدم العصور ، فقد ورد في خطط المقرئى : « أنه كان على الواحات في أيام الملك الكامل محمد بن العادل وأيام ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب من ألف فنطار من الشب كل سنة إلى القاهرة (١) .

ويقول ابن عساق أن (الشب حجر محتاج إليه في أشياء كثيرة أهمها الصبغ ومعاديه بصحراء الصعيد بمصر وعادة الديوان ، ديوان الخراج ، أن ينفق في تحصيل كل فنطار منه ثلاثين درهما وربما كان دون ذلك وتهبط به العرب من معدنه (موطنه) إلى ساحل قوص وإلى ساحل أخميم وأسيوط إلى الهندسا) ، ويحمل من أي ساحل كان إلى الاسكندرية أيام جرى الماء في خليجها (٢) .

وكان طريق القوافل الآتية من دارفور بالسودان والذي كان يعرف باسم ، درب الأربعين ينتهى عند باريس ، فكان الحاكم الموفد من قبل حاكم

(١) المقرئى : الخطط : ج ١ ص ٣٨٠

(٢) ابن عساق قوانين الدواوين : ص ٢١٧

جر حاريس عند ورد القافلة بشيرا إلى مدينة أسيوط فترسل جماعات من
العسكر لتلقاها وتجرى حصر البضائع الواردة معها ، ثم يؤخذ (الخمر)
عنها ، « وكانت الواردات السودانية تتكون من الإبل والرقيق وسن
الفيل وریش النعام وسن الخربيت والقر هندي والصمغ وجلود القاسيح
والأفاعي » (١) .

على أن الواحة الخارجة تقع غربى قنا وتصل بوادى النيل عن طريق
سكة حديدية طوله ١٩٧ كيلو مترا ، يبدأ من محطة مواصلات الواحات
الواقعة شمالى محطة فرشوط بمركز نجع حمادى بمحافظة قنا ، وقد تعطل
هذا الخط أخيراً وأصبح الوصول إلى الخارجة عن طريق أسيوط .

والعيون والآبار كثيرة الانتشار فى هذه الواحة ، ولكنها مع كثرتها
لا تفي بالغرض المطلوب لأن مساحة الأرض القابلة للزراعة ٣٤٠٠٠ فداناً
يقع أغلبها فى المنطقة الممتدة بين بولاي ، وباريس (٢) ، فى سهل خصيب
لا يوازىه فى خصبه غير الجزر النيلية .

(١) دكتورة سعاد ماهر : محافظات الجمهورية وأثارها الباقية فى العصر

الإسلامى : القاهرة : ١٩٥٦م : ص ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨

(٢) باريس : قرية صغيرة تقع جنوب الخارجة المدينة على مسافة

٩٠ كيلو

الواحة الداخلة :

وتقع إلى الغرب من الواحة الخارجة والمسافة بينهما تبلغ ١٨٠ كيلو مترا ، والمسافة بينها وبين وادي النيل ٣٨٠ كيلو مترا ، وقد عرفت بالداخلة لأنها متوغلة في الصحراء ، وهي أكبر الواحات وأكثرها محصولا ، وتشتهر على عشر قرى منها : بلاط ويدخلو وأسمنت والمصره وقلبون والهنداوي والجديدة وموط ، وهي القاعدة .

ويوجد بمعظم تلك القرى حدائق غنية بفواكهها مثل : المشمش والبرتقال والرمان والعنب والتين والزيتون والموز والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق وغير ذلك يوجد فيها بحور من ٤٦٤ عيننا تسبح مياهها على الأرض ، وربما شترك جماعة في عين فيقتسمون الماء نسقي زرعهم ونخيلهم .

ذكر علي مبارك في الخطط التوفيقية : أن الضرائب التي كانت تدفعها الواحة الداخلة ٨٤٦١١ قرشا ، وكانت الصربية تفرض على العيرون وليت على الأرض . وكان عدد النخيل فيها ٢١٣٩٥٣ نخلة تحصل عليها لدولة ضريبة مقدارها ١٦٨ ، وأما أشجار الدكاكة فكانت تدفع ضريبة أخرى ، هذا عدا ما كان يدفعه أهل الواحة إلى الصيارفة ورجال الحملة الذين يأتون لحماية الصيارفة ويبلغ مجموع ما كانت تدفعه الداخلة من الضرائب ٥٤٥ جنيتها وهو مبلغ لا يستهان به في ذلك الوقت .

وهناك قرية ويدخلوا ، صائفة تعرف بالشربجية تزعم أنها من سلالة المماليك الشراكسة ، وهي تتمتع بمركز ممتاز في هذه القرية ، وأفرادها يحرمون على أن يلبسوا الملابس الفاخرة .

وتتصل هذه الواحة بمحافظة أسبوط عن الطريق المسمى بالدرب الطويل الذي يمتد من ناحية بني عدي ويمر بقرية بلاط .

والعيون تسكن بالواحة الداخلة وهي :

١ — عيون جارية ينساب الماء منها إلى الزراعات فيرونها بغير آلات رافعة .

٢ — عيون غير جارية وهي التي يرفع ماؤها بالسواقي .

٣ — عيون مطعورة وهي التي جفت وردمت ولكن أصحابها لا يزالون يدعون ملاكيتها ويؤدون عنها حصيلة الحكومة عن كل قيراط مما كانت تنتج خمسين قرشا، يقودهم في ذلك الأمل إلى أنهم ربما يستطيعون إحراجها في المستقبل .

ومما يكثر ترديده على السمع في هذه الواحة (آبار ميهوب) وهي عبارة عن مجموعة آبار مكوفة من إحدى عشر بئرا حفرت بواسطة الشيخ محمد ميهوب تلميذ السنوسي الكبير الذي كلف من قبله بنشر الدعوة للمذهب السنوسي الذي يسيطر على صحراء ليبيا بين برقة وطرابلس ومصر ، وتقع هذه الآبار في أرض منخفضة المستوى ، ولذا فهي تمتاز بغزارة مائها ووفرة غلة أراضيها ، وقد ابتاعها الحكومة المصرية بين ما ابتاعته من أملاك السنوسية في صحراء مصر الغربية .

واحة الفرافرة :

تمن هذه الواحة الصغيرة جزءا من الوادى الجديد موضوع هذا البحث ، وليس فى واحة الفرافرة ما يمكن الكتابة عنه غير أنها قليلة السكان ولا تتعدى قرية واحدة هى قصر الفرافرة وعيوها لا يزيد عن العشرين عينا تجرى ماء يستعمل جميعه فى الزراعة ولا يترك منه أى مقدار لحكى يذهب هباء وأغلب هذه العيون تقع حول « قصر الفرافرة » وعلى بعد خمسين كيلومترا فى الشمال الغربى لقصر الفرافرة تقع عين « الداله » فى المنخفض المسى باسمها ، وتوجد هذه العين فى السهل على إرتفاع ١٢٠ مترا من سطح البحر . ولكن هذا السهل المرتفع يعتبر منخفضا بالقياس إلى الجبال المحيطة به ، وتوجد العين فى قمة تل من الرمال مكون من ثلاث طبقات ، يبلغ إرتفاع الطبقة الأولى منه مترا عن سطح السهل الواقع فى الجهة البحرية وترتفع الثانية ثلاثة أمتار فوق الطبقة الأولى وترتفع الثالثة خمسة أمتار فوق الثانية .

والماء يحاط بشجيرات الغاب ، والتبع ينحفض بمترين عن قمة الحبل الذى يكون شبه قمع حوله ويمنعه من السيالان فى غير مجراه ، وهذا الماء من حيث صلاحيته للشرب يعتبر من أجود مياه هذه الصحراء ، وتوجد عدا ذلك ينابيع كثيرة فى الصحراء ، ولكنها لا تستعمل للزراعة ولكن للشرب ذلك لأنها تقع فى بقاع مأهولة بالسكان ، غير أنها تؤدى خدمة حليلة للقوافل لوقوعها على دروبها التى تسلكها فتزود منها أثناء السفر الطويل الشاق الذى تمنى به فى الصحراء القاحلة ، ولما كانت هذه الينابيع ليست لها قيمة من الناحية الاقتصادية المباشرة ، فقد رأينا ألا يطيل الحديث عنها خصوصا وأنها لا تختلف كثيرا عما ذكرناه من الآبار .

ولا يختلف توزيع الماء فى واحة الفرافرة عنه فى الواحة البحرية ، إذ أنها « أى الفرافرة » تتبع البحرية وتقع إلى الجنوب منها .

الواحة البحرية :

أما الواحة البحرية فتعرف باسم واح البهنسا ، وهي تقع غربي محافظة المنيا والمسافة بينها وبين بلدة البهنسا على بحر يوسف تبلغ ٣٠٠ كيلومترا ، وتشتمل هذه الواحة - كما ورد في الخطط التوفيقية - على خمس قرى هي : منديشة والذب و مديشة العجوز والباويط والقصر . . يزرع فيها الشعير والأرز والبرسيم الحجازي وفنيس من الفصح كما يزرع بها بعض الخضراوات مثل : لبامية والمراخية والكوسة ولحقاتي والبصل وبساتينها عمرة بمختلف الفواكه وبالقرب منها يوجد عدة إودية متسعة بها ماء ومراع ، ورمما يزرع بها الأرز ومن أهم هذه الوديان : وادي الحارة وهو ينبع قربه منديشة ووادي عيون بيجوم ويتبع قرية الذب ووادي الحيوز ويتبع قرية القصر (١) .

من سكان الواحات :

قلنا فيما سبق أن الواحات كانت تسكنها مجموعات من المصريين الأقباط والمسلمين إلى جانب مجموعات أخرى من البربر ، وأيضا جماعات قبلية منها بنو هلال ، وهذه الجماعات الأخيرة كانت تتمثل في فريقين هما :

السعادي والمرابطون :

السعادي :

هم أولاد سعدى وقد اتفق المؤرخون على أنهم انحدروا جميعا من « أبو ديب » وهو ينتسب إلى قريش وأن والدتهم سعدى بنت غازية الهلالية من نسل العرب الهلالية المنتسب إليها أبو زيد الهلالي . . ويدوا

أن هذه القبائل أسحت نفسها بالسعادي لتتميز عن القبائل الأخرى من سلالة (أبو ديب) من روجاته الأخريات ، وقد ذكر ابن خلدون : (أن هناك ، بمدينة مسراصة زعيم عربي كبير يسمى أبو ديب وأن له نفوذ عظيم في إقليم بركة وطرابلس) (١) .

وقد أنجبت سعدي ثلاثة أولاد هم : جبريل وبرغوت وعقار .
ومن ذرية جبريل : العواقير والعربيات والمغاربة والجوافي وفروعهم .

ومن ذرية برغوت : عبيد والعمرفة والفوائد وفروعهم .
ومن ذرية عقار : علي وحديجة وبني عوفه والهادي والحراشي وفروعهم .

أما المرابطون :

فقد اختلف الرواة و أصلهم ، فبعضهم يرى أنهم قدم من السعادي ، ولسكنهم متفرقون وهذا هو سبب ضعفهم وإن كل قبيلة منهم و حماية فبيلة من السعادي وبعض الرواة يقول : أن السعادي كانوا أقوياء وجمعوا للبلاد فاتحين ، فدخلت بعض القبائل الأخرى في حمايتها لضعفها فسموا (بالصدقان) أو الإصدقاء ، ولم كانت قبائل السعادي تقوم للغزو كانت تحلف قبائل الصدقان بالمحافظة على الحدود في نقط معينة ترابط فيها . ولهذا سمو بالمرابطين ، وارتباط معناه ملازمة نغر العدو ومعناه أيضا المحافظة على أوقات الصلاة ، فقد ذهب الإمام الغزالي في هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة : يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا

(١) ابن خلدون : المعبر وتاريخ المبتدأ والخبر : ج ١ : ص ٢٠١

واتقوا الله اعلمكم تفلحون ، ، إلى أن « رابطوا » فيه قولان : قيل : رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على انتظام الصلوات والجهاد في سبيل الله من أخص صفات المرابطة والجهاد في الأثر حيث ترابط خيل المقاتلة تحمي حياض المسلمين وترد عادة المعتدين ، (١) .

وكان المرابطون موزعين على الأباد والروايا فتفرغوا للعيشة الزراعية والدينية وفقدوا الروح البدوية العسكرية في حين أن السعادي احتفظوا بعاداتهم وهي رعى المواشي والعيشة في الجبال والاحتفاظ بالروح العسكرية والقتال وكل قبيلة أو عائلة من المرابطين في حمى قبيله السعادي وتهفح لها جعلاً ستويا يسمى بالصدقة وفي مقابل ذلك تقوم قبيله السعادي بحمايتهم من الغارات والسرقة والإهانة التي تحدث من اسعادين الآخرين .

على أن المرابط ملزم في الوقت نفسه بمساعدة السعادي في حالات الغزو والحرب والتعدى فيحارب بجواره ويسرع لمساعدته ، وأهم قبائل المرابطين هي : المنقة والشواعر والقطعان والحرايبص والجرارة والحوتة والجباين للتراكي والشيبات والفواخر وترهوتة والعوامة والقداوة والسالموس والصريحات والفريضات وجنبون الشريعة وذرياتهم .

والمرابطون فريقان :

— فريق يسكن الصحراء الغربية من حدود النيل غربا إلى بني غازي .

— وفريق يسكن بني غازي إلى واحة جالو الكفرة .

واقب استطاعت هذه القبائل من السعادي والمرابطين أن تضع قانونا بدويا كان هو التشريع المعمول به في هذه الصحارى والواحات .. حيث اجتمع شيوخ قبائلهم مع بعض الفقراء بالصحفة التي تقع جنوب مدينة درنة بإقليم بنى غازى حيث تم وضع أسس القضاء البدوى الذى ظل معمولا به بينهم حتى أن الحكومة المصرية أقرتهم عليه بعد أن رأته مناسبة لأحوالهم .. أما الآن فقد أصبحت الواحات بسكانها تتبع القانون والقضاء المعمول بهما في باقى أنحاء مصر، (١) .

(١) د . سعاد ماهر : محاضرات الجمهورية وآثارها في العصر الإسلامى

أولاد «علي»

يكثُر الحديث عن أولاد علي من قبائل الصحراء الغربية بوجه خاص ولما كانت الكتابة عنهم متشعبة النواحي شاملة لتاريخهم وعاداتهم وأخلاقهم ، وكانت أهم المراجع تستند أكثرها على روايات تقليدية عن شيوخهم ورؤساء قبائلهم وعشائرتهم وبعض حياى بعيد عن التصديق — مع أن معظمهم يؤيدها — فقد رأيت أن أتناوهم في بحثي هذا خصوصا وأتت تحدثت قبلا عن سكان الواحات والصحارى .

قلنا فيما سبق أن من سكان الواحات فريقين هما :

السعدى والمرابطون . . وأن السعدى هم أولاد أبو ديب من سعدى الهلالية ، وكذلك قلنا أن سعدى هذه أنجبت ثلاثة أولاد هم : جبرين وبرغوث وعقار .

وقبائل «أولاد علي» من سلالة عقار بن سعدى وكان يدعى بعقار الشريف ، وقد استوطن بالخبيل الأحمر قريبا من درقة بإقليم برقة وذلك حوالى القرن الخامس عشر الميلادى .

وتُحِبُّ ولدين هما : علي وحرب وهما أسماها خديجة ، ومن خديجة انحدرت قبيلة الجمعيات ، وبمسند وفاة عقار قامت المشاحنات بين علي وحرب على الزعامة .

ولكن عليا كان أقوى جانبا وأشد بأسا مما كان له أثره في تحقيق النصر على أخيه حرب والاعتراف له بزعامة القبيلة وأيضا أداء الجزية لبضعة سنوات .

وأثناء الصراع الدائر بين علي وحرب أنهر العربان ماقتصارات علي ،
فذاغت شهرته بينهم ، وانهم إليه لكثيرون منهم ووضعوا أنفسهم تحت
لوائه فازداد قوة علي قوته ، وقد عرفت هذه القبائل بعد بالصدقان
أو الأصدقاء .

تزوج علي بزوجتين أحدهما تدعى : سعدى الحمراء .

والأخرى : عائشة البيضاء .

وأنجب ثلاثة أولاد أكبرهم : أبو سميته دزيم قبائل الستية ، ولما
توفي علي كان عمر أبو سميته عشر سنوات ، أما ولداه الآخران فقد ولدا
بعد وفاة والدهم ، ولما كان كل واحد منهم من زوجته ، فقد حرصت كل
من الزوجتين علي أن تسمى ولداها باسم «علي» وقد سمي العرب
ابن سعدى الحمراء عليا الأحمر وابن عائشة البيضاء «عليا الأبيض»

لعدم الخلط بينهما .

وكانت ذرية أولاد علي هي :

١ — أبو سميته ومن ذريته قبائل : العرارة والقطيفة والمحافظ
والعجزة .

٢ — علي الأحمر ومن ذريته قبائل : القتيشات والعشيمات
والكميلات .

٣ — علي الأبيض : ومن ذريته قبائل : أولاد خروف والمزاييم
والصنافة والأفراد .

النصر اع بين ذرية علي و ذرية أخيه حرب :

مضت حرا الى أربعة قرون بعد موت علي ولكن الخصومة التي كانت بينه وبين أخيه حرب كانت لا تزال قائمة بين الأحفاد، وكان النصر لا يزال قائماً في جانب أولاد علي . واستمر الحال كذلك إلى أن ظهر في قبيلة الحراشي، نسبة إلى (حرب) رجل من الأذكياء يدعى: حبيب بن عبد المولى، وقد قتل والده عبد المولى الحراشي في إحدى المعارك بينه وبين أولاد علي، فرأى حبيب أن ينتقم لو والده، فسافر إلى طرابلس للغرب والتمس المساعدة من الحاكم وبدعى محمود - وكان والياً عليها في هذا الوقت - وقدم إليه هدية ثمينة عبارة عن جلد رقبته نعاماً مملوءاً بالذهب .

أعرت هذه الهدية الحاكم التركي فسأل حبيباً عن حجم المساعدة التي يطلبها فذكرها له ، فرضى بها ، ثم سأله عن عدد الرجال الذين يطلبهم لمساعدته على قهر أولاد علي فأجاب حبيب .

« أنه سيضع كتلة خشبية من شجر الزيتون على أحد أبواب سراي الحاكم ، ثم عليها الجنود ويدوسونها بأقدامهم حتى تنكسر وعندها يكتفى بالعدد الذي مر عليها فوافق علي ذلك وأمر جنوده بالمرور على الكتلة فمر عليها ستة آلاف جندي حتى إنكسرت وكان من العدد . . ٩ جندي من الخيالة .

وهذه القوة العظيمة فجا حبيب أولاد علي بهجوم عنيف في الجبل الأخضر وانتصر عليهم وطاردهم فانتجحت فلولهم شرقاً واستمرت المضاردة حرا الى السبعة الأيام أعقبها صلح بينهما ، اتفقا فيه علي :

أن يكون الحد الغربي جبل أبو حجاج (الساوم) هو الفاصل بين أملاك القبيلتين ، وقيل في رواية أخرى : أنه عند رأس الملح .

وبذلك خرج أولاد علي من إقليم برقنة واستوطنوا الصحراء الغربية .

أولاد علي والجمعيات :

عند نزول أولاد علي بالصحراء الغربية وجدوا أن وطهم الجديد هذا مأهول بعربان قبيلة الجمعيات (وهم ذرية خديجة أخت علي وبنت عقار) وتربطهم بهم صلة القرابة فعاشت القبيلتان معاً علي وثام تام .

وفي هذا الوقت كانت تسكن أقليم دالبحيرة، قبيلة الهنادي وهي إحدى القبائل القوية، وكانت قبيلة الجمعيات ضعيفة بالنسبة لها وهي مجاورة لها من جهة الغرب ، فكانت تحت حماية الهنادي ، ويعاملونها بالظلم ولقسوة ، فلما استوطن أولاد علي الصحراء الغربية واختلطوا بالجمعيات — وكانت تربطهم صلة الرحم — رأت الجمعيات الفرصة مواتية للانضمام إلى أولاد علي والتخلص من سيطرة الهنادي عليهم ، فأوفدوا زعيمهم المدعى « قوش » للإتفاق مع أولاد علي على مقاتلة الهنادي بمساعدتهم للتحصن من سلطتهم وأغرى أولاد علي بالإستيلاء على أراضي البحيرة الخصبة التي يملكها الهنادي ، ولما كانت الجمعيات على علم تام بتحركات هذه القبائل وبأمرار قوتها ومحلات تجمعها بحكم نزولها على حدودها ، فقد كانت خير معين لإرشاد أولاد علي على هذه المحلات ، وعلى هذا تم الإتفاق سرّاً بين القبيلتين على أن يقوموا بالعزو والقتال في السنة التالية لتمكن أولاد علي من جمع جموعهم وأسلحتهم وحيولهم استعداداً لهذا الإلتحام .

ويبدو أن الأخبار تطايرت إلى قبيلة الهنادي فحصل لها رية وسؤ ظن من جهة الجمعيات فطالبتهما بالخلف توكيداً لإخلاصها فحلف الجمعيات غشاً وزوراً ، مؤكدين ولاءهم للهنادي ، ولكن الهنادي لم يأمنوا ورأوا زيادة في الحرص : أن يقيموا حدوداً معلومة بينهم وبين الجمعيات وأولاد علي

(هذه الحدود هي مكان ترعه لنوبارية الحالي) (١) ، وأنذروا هؤلاء : أن
أى شخص أو حيوان منهما سيختار هذه الحدود سيكون حزامه القتل فوراً
بلا انذار .

ولم مضى العام ، وحل موعد الإتفاق السرى المعقود بين الجمعيات
وأولاد علي كان هؤلاء الأخيران قد اتفقوا نصف ثروتهم في الإستعداد
لهذا القتال وتجهيز أنفسهم بالخيـل والسلاح والدحيرة ، أصبحوا على
استعداد تام لمقاومة الهنادى وشجع أولاد علي على محاربة الهنادى أن
الأحيريين لم يؤدوا الجزية للوالى محمد علي (باشا) الذى ساعدهم على قهر
الهنادى .

القتال ضد الهنادى :

لأجل أن تخلى أولاد علي وحلفائهم الجمعيات سبباً للخصومة بينهم وبين
الهنادى ، أطلقوا حملاً وجعوه بحتار الحدود التى سبق أن حددتها الهنادى
بينهما وأذرت من يحاول اجتيازها بالقتل الفورى ، أرسلوا وراءه بعضاً
من رجالهم بحجة البحث عنه، فما كان من الهنادى إلا أن قتلوا الحمل والذين
أتبعوه، وعلى ذلك قام أولاد علي بناصرهم الجمعيات ضد الهنادى وقتلواهم
قتلاً شديداً حتى قيل أن الموقعة الأولى بين الفريقين استمرت ثلاثة أيام
وثلاث ليالى ، وكثر عدد القتلى من الفريقين حتى جلبوا الهدنة لدفن موتاهم ،
وقد اتفقا بعد ذلك على أن يعقب كل يوم قتال يوم هدنة لدفن القتلى
واستمرت الحال هكذا حتى نهاية الحرب .

كان يترلى قيادة أولاد علي - فى هذا الوقت - د حسين أبو داغمة ،

(١) رفعت الجوهري : أمرار من الصحراء الغربية ص ١٣١ ، ١٣٣ ،

من قبيلة أولاد خروف « من أولاد علي الأبيض » ، ثم تولى القيادة بعده مطرود المطراحي ، من أولاد خروف أيضاً ، ثم أخيراً عبد الرحمن أبو علوة .

وقد استمرت الحرب ثلاثة أشهر أقيمت بهزيمة الهنادي وانسحابهم إلى وادي النيجر شرقاً ، حيث أقاموا في محافظة الشرقية ، وقد منح محمد علي (باشا) أولاد علي « فرمانا » بمحافظتها من الخدمة العسكرية مكافأة لهم 11

على أن المناوشات بينهما لم تنته ، بل أن الهنادي كانوا ينتهزون فرصة مرور أولاد علي في موسم الحج ليقاتلوا قوافلهم الذاهبة إلى الحجاز .

ولما تم لأولاد علي تطهير الصحراء الغربية من الهنادي استولوا على أراضيهم في البحيرة وقسموها ، فخصهم الثلثين وحصر الخمعيات الثلث الباقي ومنح أولاد علي الجمعيات حقوق المحاربين « كالسعادى » تماماً بعدما كانوا معتبرين من قبائل المرابطين ، عاشوا في ونام حوالى مائة عام أخرى .

وبعد هذا التاريخ وفدت بعض القبائل من الغرب من ذية جبريل وبرعوت أحوة عقار جد أولاد علي ، وما جموا أولاد علي من واحدة سيوة ومن الوجه لقبلى أيضاً ولكن هذا الهجوم فشل ، فقد تغلب أولاد علي على هذه القبائل واضطروهم للانسحاب نهائياً إلى المغرب بعد قتال غير منتظم بينهما .

وأتفق أولاد علي فيما بينهم على توزيع قبائل المرابطين الذين ساعدوهم في القتال فظفروا تحت حمايتهم والذين انضموا تحت لوائهم في الجبل الأخضر ، فمقدوا اجتماعاً كبيراً في مكان يقال له الحيفة قريب من طبرق وحضرت

بعض العائلات ذات الأهمية من المرابطين هذا الاجتماع، وقد منحهم أولاد
على الإمتيازات الآتية :

١ — حق النزلة (حماية القبائل)

٢ — حق الفصالة (حق المضيف)

٣ — حق الدم بالدم .

(أن يكون الدفع في الدية المثل بالمثل ، أى أنهم^(١) مماثلين للسعادي
في الدفع .

أهر قبائل المرابطين :

الحوايص :

قبيلة يقيم أغلبها بوادي النطرون ويشتغلون بنقل النطرون وسمار
الحصير من البحيرات القريية مثل : المنزة وغيرها، وكذلك يعملون في نقل
البلح من واحة سيوة إلى وادي النيل بطريق درب المحصهر وكرداسة
(لمسافة ١٣ يوماً) .

وهم مشهورون بدمائة الخلق وطيب النفس وبعدهم عن الخصام ...
ولا يحملون السلاح إلا للدفاع الشخصي وحماية حيواناتهم في المرعى، ومع
أنهم معتبرون من المرابطين إلا أنهم مثل قبيلة الجمعيات لا يؤدون أى ضريبة
للسعادي ويشاركون أولاد علي في نقل محصول البلح من الواحات البحرية
فينزلون هناك بمغديشا وينزل أولاد علي بالبلويطى .

(١) رفعت الجوهري : مرجع سبق : ص ١٢٣

وهم سالة القدادقة :

أحدى قبائل المغرب وبروون أن نسبهم ينحدر إلى الشيخ عبد الجواد الكسار ، وأنهم نزحوا إلى مصر قادمين من جهة الساقية الحمراء ثم راكش من حوالى خمسمائة سنة ، وقد قاموا بعدة خدمات جليلة لوالى مصر : محمد على باشا ، بوادى التطرون وكافأهم عليها بامتيازات عديدة منحهم إياها .

ويقيم بعضهم مع أولاد على بالصحراء الغربية والبعض الآخر يملح الأرض بمحافظات البحيرة والغربية والمنوفية والجيزة .

الجمعيات :

قد تكون هذه القبيلة من سالة يدو مريوط ، وأن كان ابن خلدون ذكر أنها من سالة السعادي ، وأنهم من ذرية خديجة أخت على وأبنة عقار .. والجمعيات أنفسهم يقولون أنهم من سالة أولاد سليمان والقطعان ومن سالة كعب .

فإذا صح ذلك ، فإن الجمعيات يكن أقدم عهد من السعادي الذين منهم أولاد على ، ولكن أولاد على لا يقرون هذا ، يعتبرون الجمعيات من المرابطين ، وأن كانوا لا يؤدون أى ضريبة للسعادي .

يتضح من هذا العرص أن الجمعيات من أقدم القبائل التى سكنت هذه المناطق ويقرر شيخهم سعد د بك ، المصرى : أنهم يسكنون مصر من سبعمائة سنة — لكن الشيخ علوانى سليمان — وهو من شيوخهم أيضاً — يقول : أن نسبهم — أى الجمعيات — كالاتى :

كعب بن علي (من الصحابة)

نوح	شهاب	قامم	شتور	موسى	عيسى
النواحي	الشهابيين	القوامم	الشتوريين	أولاد موسى	أولاد عيسى

والجمعات ، الغازلون بمروط من الشتور ، أما لفروع الأخرى (١) ،
فمعظمهم يقيم في محافظات البحيرة والغربية وأيضاً برمن الإسكندرية .

السمالوس :

وهم منتشرون بكثرة مع أولاد علي وعلى حدود الصحراء الغربية وفي
كثير من محافظات الفيوم والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية ،
أما شيخهم أبو صالح . فكان يقيم بالمتيا .. ويقولون أنهم وفدوا على مصر
من نحو ٢٠٠ سنة ، كل عدهم نحو ٤٠٠ فارساً قادمين من وادى سمالوس
بالجبل الأخضر ، وأن جدهم الأكبر أحمد قصر الحسانى من قبيلة بى سليم
المشهوره .

الشهبيات :

هم مجموعة من البدو ويعملون رعاة من المربطين بوادى النصارون
ومتشرون بين عائلات السعدى ويلاحظ عدم الخلط بينهم وبين الشهبيات
من أولاد علي .

(١) رفعت الجوهري : أمداد من الصحراء الغربية ص ١٣١ ٢٠٣٤ ١٣٣٤ ٢٠٣٤

أهم الآثار في الواحات :

مقابر البجوات :

هي المدافن الأساسية في الواحة الخارجة، وقد ظلت كذلك ز مناطويلا
يمتد إلى القرن الثاني الميلادي على أقل تقدير ، يدلنا على ذلك العديد من
الكنائس والأديرة التي ما تزال باقية إلى يومنا هذا .

وتعتبر هذه الأديرة سجلا غني لدراسة العمارة الدينية القبطية نقش
عليها أقدم رسوم القرسكو في مصر .

وقد استمرت البجوات حتى الفتح الإسلامي (القرن السابع الميلادي)
ثم هجرت المدافن.

وفي العصور الوسطى كانت المنطقة ممرا للكثيرين من الرحالة المسلمين،
و كذا الزاهبين إلى الحج من شمال أفريقيا عن طريق عيذاب .. ولدار أينا
الكثير من عبارات التقدير والاعجاب التي سجلها هؤلاء وأولئك على جدران
الكنائس والأديرة خاصة تلك التي تحتوي على رسوم بالقرسكو ، فهناك
أكثر من ثمانين ديورا وكنيسة تحتوي على كتابات عربية يرجع أقدمها إلى
القرن التاسع (١) . وقد شملت هذه الكتابات أشعارا عن الحب والغرام ،
و كذا العديد من التوقيعات .

وفي القرن الخامس عشر الميلادي بنيت قرية صغيرة على بعد خمسة
كيلو مترات ، من المدينة القديمة ، وقد شملت هذه القرية كهيرا من المساجد
التي يرجع بعضها إلى القرن الخامس عشر الميلادي أيضا .

(١) د . سعاد ماهر : محافظات الجمهورية : ص ٢٠٧

وقد تكون كنيسة سفر الخروج أقدم ما عثر عليه حتى الآن في العالم المسيحي كله، إذا ما ترجع إلى النصف الأول من القرن الرابع الميلادي، ويتمثل فيها أقدم رسوم للفريسيين الموجهة بمصر، تلك الرسوم التي غطت معظم الحوائط الداخلية للكنيسة وتقول الدكتور / سعاد ماهر : « أنه اعتمادا على هذه الرسوم استطعنا أن نرجع هذه الكنيسة إلى أوائل القرن الرابع أي قبل أن يعترف الامبراطور ثيوديسيوس سنة ٣٩٢م بالدين المسيحي، أما الأسلوب الذي رسمت به الموضوعات التصويرية، فهو على جانب عظيم من الأهمية، إذ أننا بمبدأ أسلوبنا مخالفاتنا تمام المخالفة للأسلوب الفني الإسكندري الذي كان سائدا في ذلك الوقت، أي في القرن الرابع، فنلاحظ أن الرسوم الأدمية والحيوانية بعدت عن الطبيعة وأصبحت ومزية تعبيرية إلى أقصى حد مما لم يسبق له مثيل من قبل، فكثرت الزخارف الهندسية التجريدية وملأت مساحات كبيرة، ومثل هذا الأسلوب لم يكن متبعاً كذلك، فإن الزخارف الهندسية كانت دائماً عنصراً مساعداً للرسوم النباتية أو الحيوانية. أما أن تملأ مساحات كبيرة بخطوط هندسية مجردة، فهو أسلوب جديد.

وتتابع الدكتور / سعاد : وهكذا نستطيع أن نقول أن طرازاً فنياً جديداً ظهر في المقابر والكنائس المسيحية الموجهة في الصحراء الغربية بعيداً عن الحكم والرهبان، ولما كان هذا الطراز الفني خاصاً بمسيحي مصر وهم الذين عرفوا بالآقباط منذ سنة ٢٨٤م - وهي سنة الشهداء - فإننا نستطيع أن نقول أن الفن القبطي نشأ في القرن الرابع الميلادي على أقل تقدير ويمتاز هذا الأسلوب الجديد بأنه أسلوب بعدت عناصره عن محاكاة الطبيعة، إذ أنه يعد بالمادة واكتفى بالرمز البها أو التعبير عنها بأبسط الوسائل وأقلها، بل أنه ذهب إلى أكثر من ذلك، فقد لجأ إلى تجريد المادة ورمز إليها بمجرد خطوط هندسية ملأ بها فراغات كبيرة وكان هذا الأسلوب بالبيعة الحال يلائم حالة الزهد والتعسف التي وصل إليها المسيحي بعد ما لاقى من الاضطهاد والتعذيب في سبيل الاحتفاظ بعقيدته الجديدة.

ومن أهم الرسوم والزخارف الموجودة بكنيسة مفر الخروج التي ظهرت فيها مميزات الفن القبطي واضحا الموضوعات التصويرية التي تمثل قصص الأنبياء والقديسين الواردة في كتاب العهد القديم وهي :

- ١ - قصة الخروج .
- ٢ - سفينة نوح .
- ٣ - آدم وحواء .
- ٤ - دانيال في الحب مع الأسود .
- ٥ - الاسرائيليون الثلاثة في النار .
- ٦ - عذاب بني اسرائيل .
- ٧ - قصة يونس والحوث .
- ٨ - ربيكا وعبيدها ابراهيم .
- ٩ - ابراهيم واسحق .
- ١٠ - الرعاة .
- ١١ - العذارى السبع وغيرها من القصص والموضوعات الاخرى (١) .

ويبدو ضروريا في نهاية هذا البحث أن نعرض لما جاء في بعض المصادر العربية عن الواحات التي هي موضوع هذا البحث ...

(١) د . سعد ماهر : مرجع سبق : ص ٢٠٨

١ - يقول الاصطخرى :

« أما الواحات فإنها كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى والناس ،
وبها إلى يومنا هذا ثمار كثيرة وغنم ، وقد تو حشت فى تيمبلد والمسافة
بين الواحات وبين صعيد مصر من جهة الجنوب نحو ثلاثة أيام يقصها
المسافر وتتصل الواحات بالنوبة بيرية ، فتنتهى إلى أرض السودان .

« ويولد الواحات ناحيتين ويقال لهما بالداخلية والخارجية وبين الداخلية
والخارجية ثلاث مراحل وأجلهما الناحية الداخلية ، وهى واسطة البلد
وقرار آل عبدون ملوكها وأصحابها وفيها مساكنهم وأموالهم وعدتهم
و ذخائرهم وهما حارتان بينهما نصف يريد وبكل حارة منهما قصر إلى جانبه
السكاكن الحاشية من منزلته وخاصته وأصحابه وأضيافه وفيهما حرمهم وتعرف
أحدى الحارتين بالقلبين والأخرى بالمطر والناحية الخارجية تعرف
بببرس (١) ، بيخيط وهما خمسة أضعاف ويشتمل كل صفح على مقابر
تقتارب فى المنزلة والحال (٢) .

ابن دقاق :

ذكر ابن دقاق أربعة وعشرين بلداً فى ملكة الواحات . . . يقول :
« واحات جميعها وهى الخاص والداخلية والخارجية أقر بهم إلى الأعمال
البيفسائية وميرتهم أربعة وخمسون ألف ينار :

واح الخاص (ثلاثة عشر ألف ينار) ١٣٠٠٠ دينار

(١) تعرف اليوم باسم باريس

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك : ص : ١٣٠

والخارجة (اثني عشر ألف دينار) ١٢٠٠٠ دينار

الداخلة (تسعة وعشرون ألف دينار) ٢٩٠٠٠ دينار

وهي بلاد كثيرة وبها قلعة، وبهذه البلاد من الفواكه والثمار شيء كثير . وكانت في القديم ملكة قائمة بنفسها وكان لصاحب قصر على صاحبها قطيعة، ثم صارت مضافة إلى مصر .

وهو أفليم غير متصل بغيره تحيط به المقـاـوز وحيزه بين مصر والإسكندرية والمغرب والصعيد والنوبة والحبشة ومسافاته من كل ناحية مقاربة للآخرى ، وقيل هي ثلاث واحات :

الأولى : تسمى الخارجة وقصبتها تسمى المدينة .

الثانية : وهي الخطى وفيها مدينتان أحدهما وهي الكبرى وتسمى القصر والآخرى تسمى هذا وهم مستورتان .

الثالثة : وتسمى الداخلـة وفيها مدينتان أحدهما وهي الكبرى تسمى أرنى والثانية ميمون ، وبها عيون حامضة وأهلها يشربون منها ويسقون أراضيهم ومثى شربوا من غيرها استوبأوا

ويقال أن عدة بلاد الـوحدات أربعة وعشرون بلداً منها:

• القصر — وبها عيون حارة مثل الحمام .

• وأفطيمة — وفيها أعناب كثيرة وأتبان .

• وشكول — وفيها أرز وعنب .

- وحافاته — وفيها أرز وكروم .
- وعين جديد القبلية — وفيها كروم كثيرة ويزرع بها الارز .
- وبرفس — وفيها كروم كثيرة ويزرع بها الارز أيضاً .
- والقانون — وهي بلد كبير كله كروم وفيها كنيسة النصارى .
- والقبول — وفيها كروم وتزرع الارز .
- وعنفيش — وفيها نخيل وموز كثير وكروم كثيرة ويزرع بها الارز والجبن الذي يعمل من لبن بقرها .
- ربوط — وفيها كروم ويزرع بها الارز الهضاد وينزل بها المتولي على القوم .
- وينسطر — ويزرع بها الارز .
- وبنى يزيد — ويزرع بها الارز أيضاً .
- وسمنت القديمة — ويزرع بها الارز .
- وسمنت الخطا — ويزرع بها الارز .
- والمعصرة القريبة — ويزرع بها الارز أيضاً .
- والقصبة — وهي بلد كبير وبه كروم ويزرع بها الارز .
- وبلاط — ويزرع بها الارز أيضاً .
- وبنى يزيد الشرقية — كفر صغير ويزرع بها الارز .
- وتليدة — بلد كبير يزرع به الارز .
- وحاجز القصر — بها كروم ويزرع بها الارز .
- وأطيسة — وفيها كروم ويزرع بها الارز .

وهذه البلاد تسمى أواح المبلية ، ويسافر إليها مزيير أسبوط مسيرة ستة أيام ثم يأت المساهرون بعد ذلك إلى عين مور تحت جبل يحملون فيها الماء إلى الواح .

وفي المنتية معدن الشب الأصفر والأبيض مباع ، وبأرض الواح يزرع القطن وهي كسوة أهلها ولم يخرج منها ، وفي البلد تسمى موط معدن الحوت وهي الزجاج ويسمى أيضاً القلقند .

و يقال أن ببلاد اواحات عيورا حمامة تستعمل مياهها كاستعمال الخل ومنها عيون مرة ، ومن قوة مائها لا يخالط شيئاً إلا مرره ، وأن العلة في اختلاف هذه الطعوم في المياه أن بها مواد مختلفة مثل مواضع الشب والزاج والمواضع النارية والرمادية .

وذكر الأطباء أن أعواد الطعوم ثمانية : أولها العذب والدمم والخلو والمالح والحمض والمر والقابض والحريف ، والعذب هو عان بارد وساح ، أن يستعمل من خارج وداح مقيد الحاحد ، فإنه ينقي الجسد وأن يستعمل أكثر فإنه يرخي الأعضاء ويضعفها ، أن البارود يشد الأعضاء ويدفع العطش ، وأن الريادة منه تخدر الجسد وتميته وأن الماء الأجاج ينفع من أوجاع الصلب والعصب وماء الحديد نافع من الإسترخاء وماء النحاس نافع من الرطوبة والبله الكائنتين في الجسد والرأس ، وماء الحسبا يشنع البعثة ويصنها ويكرشها وماء الزجاج يحسن الدم وماء البحر نافع من البرص .

وقد ذكر أنه من الأخلاط الفاسدة ، إذا شرب اليسير منه مع دهن اللوز ، وله في البصر أتعاب فظيع وأن أصبح المياه الأجساد الماء الأبيض الصافي ليرافق الذي يخرج من حبال العين من مشرق الشمس نحو مغربها القابل بسرعة ما يرد إليه من الحر والبرد (١) .

(١) ابن دقماق : الانصار بواسطة عقد الأمصار ص : ٣٧

ابن حوقل :

الواحات كالفاحية المعزلة في مركزها دائرة من النيل ، تبعد غربا من مدينة الأقصر في صعيد مصر نحو الـ ثلاثين والمائة من الأميال . ومن أي بحر قصدت الواحات من أنحائها كان الوصول إليها من ثلاث إلى أربع مراحل والفاحية الخارجة منها المعروفة ببخيط وبييرس أقرب إلى النيل من قصدها من فاحية النوبة ومن اجتاز بها من أرض مصر وقصدها من أسنى (اسنا) وأرمنت تزود بماء النيل إلى بييرس ومن قصدها من البليغا واخميم وأسيوط والاشمون من أسافل الصعيد كان وصوله إلى ببخيط وتزود بماء النيل ومن قصدها من أسوان راعى الصعيد اجاز يد نهر بده في أحساء تخمر بابيد وتزود بالماء إلى بييرس مسيرة كل طريق بماء ذكرته ثلاث مراحل وأكثر هذه الطرق في هقاف وأودية وجميع من قصدها من الأربع نواح يقطع الوادى المعروف بدواى واحساء بنى قيسالة .

« ومن قصد الواحة الداخلة وهي دار ملكة آل عبدون وبين الفرغرون (الفرافره) مرحلة ... »

« وقد يقصد الواحات من ناحية المغرب ومن جزيرة فيها نخيل وسكان من البربر تعرف بسنتريه (ترجع في أصلها إلى سنتريس وهي في المنوفيه ، أنظر القاموس الحصراني للبلاد المصرية : القسم الثاني الجزء الثاني : ص ١٦٢) فيكون أول وصولهم منها إلى ناحية البهنسا ، »

« والفرغرون قرية ذات قصور وبين بهنسة مصر وبهنسة الواح أربع مراحل وهي في جهة الواح الداخلة وتصب الماء في هذا الطريق بموضع يعرف بماء النخلة » .

ويتابع ابن حوقل : و أن بالواحات عجائب شتى منها ما هو ملفوف وقائم كالعمود لا ينحل ولا يذوب ، ويقال : أنه في بعض المدائن الداخلة مرآة يرى فيها جمع ما يسأل الإنسان عنه ، ويقال أنه صنع منها واحات دخلة وواحات باطنة يظهر في بعض الأحيان لمن شاء له الله نموها وأن بعض الرجال من أهل صعيد مصر أتته رجل وأعلمه بأنه يعرف مدينة بأرض الواحات بها كنوز عظيمة وبها أنهار وأشجار وثمار وأخيار فتزود وخرج مسافرا إليها معه فسار في الرمل ثلاثة أيام حتى أشرفا على مدينة عظيمة وبظاهرها نهر عظيم وإلى جانبها شجرة عظيمة فأخذ الرجل من ورق تلك الشجرة ورقة وأطبخ بماء ساقيها وخاص نطافى النهر فلم يتعد الماء حد ماء الورد فصعدا إلى المدينة وأخذوا من الذهب الذي بها ما أرادا وأصلقا حملا وتفرقا فدخل ذلك الرجل الصعيدى لبعض ولادة الصعيد وعنده القصة وأراه عين الذهب فأخذ منه الذهب ووجه معه جماعة وزودهم بزاد وجعلوا يطوفون بتلك الصحارى مدة ولم يقفوا لتلك المدينة على أثر .

وقيل : أن الواحات كانت أعمر المدن إلا أن أهلها تحاسدوا وفشت بينهم حروب كثيرة وأخرجت بلادهم فسميت بالواحات .

وتفتح هذه البلاد : النمر والزبيب والمشمش والعناب والعرقسوس والأرز وبها الموز والرمان والبرقوق والسفرجل كثيرا وبها التارنج .

وببلاد الواحات مياه مختلفة أبيض وأصفر وأحضر وغير ذلك . . . ومغارات الواحات عرب سنيهم يقطعون بها الطريق على من أرادها أو من خرج منها .

وكذلك العكارمة يفزونها ، وهذه البلاد لم يزل أهلها محترزون محتفظون منهم . وبلاد الواحات الآن بيد أمير بن طباطبات : أحدهم الجناب الملايى ابن الطيلاوى والآخر أمير فرج نائب الوجه البحرى وبها جامع أمر بعمارتها الوزير المأمون بن الطانجى .

«ومدينة سنثريه» في صحراء الواحات بنيت في زمن منفادس من أشمورم وهو العاشر من ملوك مصر بعد الفسوف عمرها من حجر أبيض وحملها أربعة على تقدير واحد وجعل في كل حائط من حيطانها الأربعة بابا في وسط ينتهي أحائط المحاذي له من الجهة الأخرى، وجعل في كل شارع يمتد ويسرة أبوابها وتنتهي طرقاتها إلى داخل المدينة وجعل في وسط هذه المدينة ملعبا يدور به من كل ناحية وعمل عليه قبة من خشب أربعة مدهونة على عمد عظيمة من رخام وفي وسطه منار من رخام عليه صم من حيوان أسد يدور مع الشمس بدورانها وبساتر بواحي القبة صورة معالقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة، كان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعت وحوله ينوء وقراباته وأبناء الملوك.

وعلى الدرجة الثانية رؤساء السكينة والوزراء وعلى الثالثة رؤساء الجيش وعلى الرابعة أرباب العمارات وعلى الخامسة أصحاب المهن وعلى السابعة العامة ويقال لكل صنف منهم تأديبا لهم: أنظروا من دونكم ولا تنظروا من فوقكم، ثم أن المدينة تعاقب عليها السنون وخربت، ثم عمل مكانها حصن وزرعوا هناك نخيلا كثير يحملون منه التمر والعجوة إلى بلاد مصر والاسكندرية والصعيد والمغرب وتمرها وعجوتها من أذن الثمار وأحلاها ويسمى البید ورويثوكل بالسهم فتكون له لذة عظيمة (١).

ياقوت:

جاء في معجم البلدان: أن الواحات ثلاث كور غربي مصر، ثم غربي الصعيد: ألواح الأول أوله مقابل الفيوم تمتد إلى أسوان وهي كورة عامرة ذات نخيل وصياح حسنة، وبها تمر جيد أخضر تمر مضر، وهي أكبر الواحات ووراءها كورة أخرى يقال لها رواح الثاني، وهي دون تلك

في العمارة وكودة أخرى يقال : واح الثالثة : وهي دون الأولين في العمارة ومدينة الواح الثالثة يقال لها : سنترية (١) .

السعودي :

جاء في مروج الذهب : « أن بالواحات شجرة نارنج يقطف منها في سنة واحدة أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء سوى ما يتفائر وسوى ما هو أخضر (٢) . ١١

المقرئ :

جاء في الخطط : أن الواحات منطقة وراء الوجه القبلي في مغاربة ولا تعد في الولايات ولا في الأعمال ولا يحكم عليها من قبل السلطان ، وإنما يحكم من قبل هقطعها وبلاد الواحات بين مصر والاسكندرية والصعيد والنوبة بعضها داخل ببعض ، وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بخيره ولا يفتقر إلى سواه (٣) .

(١) ياقوت : معجم البلدان : ج ٨ ص ٢٧١

(٢) المسعودي : مروج الذهب : نفس الجزء والصفحة

(٣) المقرئ الخطط : ج ١ ص ٢٢٧

أثر الغربة في شعر شوقي

بقلم

الدكتور عبد المنعم محمد يوسف

حياته قبل المنفى وظلالها في شعره

(أحمد شوقي)

١٨٧٠ م - ١٩٣٢ م

ولد في مدينة القاهرة بجهة الحنفى خرج إلى الوجود طفل يجمع بين السامى ، والأرى ويتهى نسبة كما يقول هو عن نفسه إلى العربية ، والتركية ، واليونانية ، والجر كسبة ، فأنحدرت إليه هذه السمات عن آبائه وأمهائه ودرج إلى الحياة في بيت موفور النعمة نازع إلى الاستقرائية الاجتماعية إذ كان بيتا مرعى الجانب محبوبا من ولادة السلطان منذ عهد محمد على الكبير وهذه الخطوة الأولى في نشأة شوقي تبشر بنموغ وامتياز فشوقي أمامنا مولد يرتد إلى عدة أجناس والمولدون يجمعون بين مواهب شتى من عدة شعوب فإذا تفاعلت كان فيها عبقرية في أية ناحية وإذا أردنا الاستشهاد لذلك في تاريخ الشعر العربى وحده فافنا واجدون أن (١) هؤلاء المولدين هم الذين حملوا لواء التجديد في الشعر واخذوا على عاتقهم تحرير موضوعاته وأساليبه فكانوا معالم ممتازة في تاريخه وانما أريد أمثال بشار بن برد وأبي نواس وابن الرومى الذين أضافوا إلى الشعر العربى سمات طريقه في الموضوعات والمعانى والأساليب لعل هذه السمات هى التى تلفت نظر مؤرخ الشعر العربى ولقد كان شوقي يحتمل في تاريخ الشعر الحديث منزلة تشبه منزلتى بشار وأبي نواس في تاريخ الشعر القديم من حيث أحياء الشعر وتحضيره والتجديد فيه وقد كلفته جدته لأمه واحبته وحملته وهر في الثالثة من عمره إلى

(١) يذهب إلى ذلك الرافعى - شعراء الوطنية نقلا عن التاريخ الثابت في شهادة الليسانس التى نالها الفقيد من كلية الحقوق بباريس - ويتابعه الخوفى - في وطنية شوقي - شوقي شاعر العصر الحديث - شوقي ضيف .

الخدوي اسماعيل وكان بصر هذا الطفل لا ينزل عن السماء بسبب احتلال أعصابه فطلب الخدوي بكرة من الذهب ثم فترها على البساط عند قدميه فوقع الطفل أحمد شوقي على الذهب يجمعه ويلعب به وهنا قال الخدوي لجده أنه أصنعى معه مثل هذا فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت الحدة وهذا الدواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاي ، قال جثني به حتى شئت ، أن أخرج من ينثر الذهب في مصر ، وفي إجابة الجدة للخدوي اسماعيل ما يحسن أروع الدلالة على شعرية خصبة كانت ممكنة فيها .

ويعني هنا أن نلاحظ هذه الأرستقراطية التي بكرت إلى شوقي وهو في المهد يلعب بالذهب هي التي طبعت أدبه فيما بعد بطابع أرستقراطي أرتفع به عن طبقات الشعب كما أرتفع هو بصياغته عن الشعر المهمل السفساف .

وفي الرابعة من عمره دخل مكتب الشيخ صالح حيث بدأ الدراسة والتعليم ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية فالشأنوية وأخيرا التحق بمدرسة الحقوق على صغر سنه ثم دخل مدرسة الترجمة وتخرج منها بعد سنتين وقد كان على عرش مصر إذ ذاك الخدوي محمد توفيق فالحقه بوخليفة بالمعية السنية فرح بها الشاب فرحا شديدا .

وهنا نقف قليلا لنلاحظ أن شاعرنا هذا قد رزق منذ نشأته قريحة وقادة وذكاء نادر أو تربيته شريفة وثقافة نيرة وأحاط بعلوم شتى ولغات عدة .

فكان واسع الثقافة ، والاطلاع رغبته العيش طويل الفراغ متصلا بالسياسة وخدمة الملوك متعلقا بالعرش المصري والخلافة التركية الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية سمع شعار البارودي الذي أعاد إلى الشعر العربي رونقه القديم فأعجب به وحاول أن يظفر بمنزلته فأقبل على كتب الأدب ودواوين الشعراء وابتدأ كما قال عن نفسه - بديوان الجاهل زهير الشاعر المصري فاحذاه ثم درس ابن مطروح وابن النديم ثم فتن بفحول السابقين أمثال

أبي نواس والبحتري وأبي تمام والمتنبي والمهري وأحمد بن محمد بن سنانهم
فأعجبه من أبي نواس خمرياته وعزالياته السابقة وحاكاها فقارب ورأته
من البحتري حسن ديباجته وأوصافه وتشبيهاته حتى لا يظن أن أكثر
ما نراه لشوقي في وصف القصور والهيكل ومواكب الملوك مستمد منه
أو يحاكي به طريقته ولولا أنه سلك في الحكمة وإرسال المتن مسلك أبي تمام
والمتنبي لكان خريج البحتري وحده.

ومن غير شك كان يختلط أثناء ذلك ببعض العناصر الديمقراطية من
الشعب، ولكنه كان اختلاطا محدودا، إذ كان لا يلبث أن يعود إلى
بيئته الاستقراطية فتضعف من شأن هذه الديمقراطية المكتسبة وترده إلى
أرستقراطية الأصيلة (١).

وواضح أنه أخذ في تعلمه الطريق المدني ولم يأخذ الطريق الديني ونحن
نعرف أنه كان بمصر حينئذ نوغان من التعليم، التعليم الديني الشرقي في الأرواح،
وكان خاصا بالتراث الإسلامي وكان متأثرا بالقرون الوسطى وصورة العلوم
فيها من لغة وطب وفلسفة وغير ذلك وهي شاحبة ضئيلة، والتعليم الغربي
في المدارس وهو تعليم يستمد من أوروبا ومن كتب الأدب والعلم فيها، وقد
بدأ في عصر محمد علي ثم خمد في عصر سعيد وعباس، ثم عاد إلى النشاط
والازدهار في عهد اسماعيل.

وفي هذا الاتجاه من التعليم المدني الأوروبي سار شوقي وحينما أتم تعليمه
الغساني الحقه أبوه بمدرسة الحقوق ليدرس القانون ووصفه أحمد زكي
حين دخل هذه المدرسة فقال: كان في جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ فقي نحيف
هزيل ضئيل فصير الإقامة وسيم الضلعة نقر يافتي بعبون متألقة ولكنها متنقلة
كثيرا فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة فالعناء منه دقائق متبادية وإذا

(١) شوقي شاعر العصر الحديث ص ١١.

تلقت صوب النسيم فيما ذاك إلا لكي يرى بصره نحو الشمال وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتتافرة هادى ساكن وادع كأنما يتحدث نفسه إلى نفسه أو يتلاقى مع عالم الأرواح ما كان يلابسها فما تأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا تهافت معنأولى تلقف السكره بعد الفراغ من تناول الخداء ، أو حينما تنفس الصعداء لا تنهأ موقيت الدراسة (١) .

والصورة التي رسمها أحمد ركنى لشوقي تو ضح لنا معاني أخرى تتصل بشاعريته فهو يلاحظ أنه كان شعلة من الحركة المضطربة المتتافرة وهكذا هو شطحات بصره ، أما بعد ذلك وفي أعماقه فهو ساكن وادع وهو مع هذا غافل عما يجري مشغول بنفسه لا يلعب مع اللاعبين ولا يلقف السكره مع اللاحقين .

هذه المشاة الأدبية الرسمية المبكرة انطلقت شاعرنا بالشعر وهو طالب يدرس أولاً ثم عينت اتحماه شعره وموضوعه الأول — ثانياً — فقد مدح الخديوى توفيق مراراً وهو في المدرسة قبل أن يراه فلما اتصل بمعرفته موظفاً بعثه إلى فرنسا سنة ١٨٨٧م ليدرس الآداب الفرنسية والحقوق وقد مكث هناك أربع سنين إلى سنة ١٨٩١ ثم عاد إلى مصر ولكنه لم ينس مولاه وهو يدرس في فرنسا فأرسل إليه يهنته بعيد الفطر ويشير إلى صلة أنفذهما إليه توفيق باشا .

ونلاحظ من الناحية الفنية أن هذا الشعر بدائي تقليدى تعوزه القوة والبراعة .

عاش شوقي في ظل توفيق نحو عشر سنين لا بد أنه قال شعراً كثيراً متصلاً بالقصر أو خاصاً بحياة لشاعر وشبابه وبعضه في الجزء الرابع من الديوان أو شيء منه في سائر الأجزاء أو طى الـكتبان لما يفشر الآن مع أنه أصدر ديوانه القديم سنة ١٩٠٠ في عهد عباس الثانى مما يدل على أن شعر شوقي في حاجة أشد إلى العناية بنشره من جديد .

(١) ذكرى الشعارين (حافظ وشوقي) .

وأما عصر عباس الثاني وقد كان شاعراً أنيراً لدى عباس وشاعره فكان
أحفل العصور في حياة شوقي بالحوادث والآثار الشعرية وسبب ذلك
تصادم التيارات السياسية العليا في هذه البلاد بين احتلال بغض غير مشروع
وسياسة تركية يخفف من حمتها ضعف سلطانها ومايلا بسببها من صلة روحية
بمصر، ثم استشراف مصر إلى الجلاء والاستقلال والحياة الدستورية مما
جعل الوضع السياسي لمصر معقداً .

واضح الشاعر أن يرى على التوازن في شعره بين هذه الجوانب وما يلاحظ
أنه كان شديد الاحتمال بالآثار فارغاً للأمر المالك المصرية وفقاً
لمطالبة النفسية واقفاً لا يجلتراً بالمرصاد مع الخديوي وفي حذر مما يرى ،
والواقع أن شعر شوقي في هذه الفترة يعد سجلاً لمواقعها الرئيسية وهو
وحده ديوان أدبي لتاريخها ، ويمكن أن نشير هنا إلى بعض الأمثلة لرسم
السبب .

أرسله عباس الثاني مندوباً للحكومة المصرية بمؤتمر المستشرقين الذي
عقد بمدينة جنيف بسويسرا في سبتمبر ١٨٩٤م فألقى هناك همزيتة في تاريخ
مصر إلى عهده ومطلعها :

همت الفلك واحتواها السماء
وحداها بمن تقل الرجاء
يقول فيها مما يتصل بحملة فابلبون :

وأنى النسر ينهب الأرض نهبا
حوله قومه النور ظماء
يشتهي النيل أن يشيد عليه
دولة عرضها الثرى والسماء

حلت رومها في الليالي وراها القياصر الأقوياء
فأنت مصر رسلكم تتوالى وترامت سودانها العلماء
ولو استشهد الفرانسييس روما لأقتهم من روما الأنبياء

ومهما يكن من قيمة هذه الهزيمة ولعل الذين يعرفون الغاية من مؤتمرات
المستشرقين يدركون أن هذه القصيدة لم تكن ذات أهمية كتلك البحوث
العلمية التي تتجه في هذه المؤتمرات .

وتحدث حادثة دنشواي ويمر عليها عام والناس يلحدون في طلب العفو
عن سجنائها فيقول شوقي :

يا دنشواي على رباك سلام
ذهبت نانس ربوعك الأيام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا
هيئات للشمل الشتيت نظام .
مرت عليهم في اللحود أهلة
ومضى عليهم في القبود العام
نوحى حاتم دنشواي وروعى
شعبا بوادى النيل ليس ينسام
السوط يعمل والمشائق أربع
متوحديات والجنسود قيام
والمستشار إلى القضايع ناظر
تدمى جلود حوله وعظام

ولقد مرت بمصر حادثة فضيحة لم يقل فيها شوقي أول الأمر شيئا تلك
هى حادثة دنشواي ولم ينطق إلا بعد مرور عام (١) .

كان المنتظر من شوقي وأمثال شوقي أن يعبروا عن عواطف المصريين جميعاً إزاء الكارثة وأن يشعلوها ناراً مضطربة الأوار متأججة السعير تحرق تلك القلوب الغليظة التي اقتضت من غير شفقة ولا رحمة من قوم عزل ضعاف مظلومين ولكن شوقياً اتبع سياسة القصر في ذلك سياسة الحياد والمهادنة والخوف من كرومر الطاغية (١) .

بل نرى شوقي يتورط أحياناً في مدح الإنجليز تبعاً لتشكيل موقفه السياسي منهم وقتئذ بموقف القصر أو تبعاً لسيره حينذاك في طريق المصلحة الشخصية ومن ذلك الشعر المتورط فصيده التي فالها بمقامسة حفل تتويج الملك إدوارد السابع سنة ١٩٠٢ تلك القصيدة التي يقول فيها عن موكب الملك البريطاني :

إلى موكب لم تخرج الأرض مثله

ولن يتهادى فوقها من يقاربه

إذ سار فيه سادة الناس خلفه

وشدت مغاور الملوك ركائمه

ولا شك أن حادثة دنشواي من الجروح الالامية في أديم مصر وفي تاريخها الحديث وقد صور شوقي لفتحها والألم لم يبلغ في ذلك ما يجب ولعلها تستحق أن تقيم درامه مروعة ينهض بكتابتها أدباء المسرح الحديث .

ويذكر شوقي حريق ميت عمر المشهور فيقال لهذه المدينة ويصف مأسيتها الفاجعة يقول :

(١) المرجع السابق ص ٩٦

لو أن فيرون الحساد قواده
يدعى لمنظرها لعاف المنظرا
أو أنه ابتلى الخين بمثلها
أستغفر الرحمن ولي مدبرا

وكان شاعرنا يرقب أطوار الحياة السياسية والاجتماعية في تركيا
فيسجلها واحدة واحدة وشعره في هذا الباب جيد كثير يعتمد على شعور
صادق وعلى هذه الصلة بين القاهرة والاستافة وعلى أساس جنسى ودينى .
وكان شوقي على كل حال ظل عباس الثانى فى هذه المواقف وظل رأى
المصرى والإسلامى العام إلى حد كبير ففى حرب تركيا وليونان الأولى
يقول بأنيته التى خاطب فيها السلطان عبد الحميد :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب
وينتصر دين الله أيمان تضرب
نزل الهلال عن السماء فليتها
طويت وعم العالمين ظلام
ويقول فى الدستور العثمانى :

الرأى رأى أمير المؤمنين
جارت رجال وضلت فى مرائبها
ولما هى شورى الله جاء بها
كتابه الحق عليها ويغايها

وفى ظل الراية الإسلامية التى ترفعها تركيا وترقبها البلاد الإسلامية
يقضى شوقي بميلاد الرسول والسفة الهجرية وبضفى على الوقائع التركية لونا

من الوقائع الإسلامية الأولى حتى طبع قسم كبير من شعره بهذا الطابع الإسلامي .

ومع عنايته بمصر وتركيا لم يغفل الأحداث والمسائل المالية الصمة التي تستوقف نظر العالم وتستدعي عنايته سواء منها ما يتصل بالماضي وما يتصل بالحاضر فلما زار اثينا سنة ١٩١٢ لحضور مؤتمر المستشرقين قال فيها :

إن تسألني عن مصر أحواء القوى وقراره التساريخ والأنار
فأصيح في مذهب وطيبة واضح من ذا يلاقى الصبح بالآفكار

الحقيقة الإسلامية في شعر شوقي

من يطلع على الشوقيات يستطيع أن يتبين الحقيقة الإسلامية إما في قصائده التي اتجه بها نحو مدح الرسول عليه السلام وإما في قصائده الكثيرة التي يتغنى فيها بالخليفة وبالأترك وشجعانهم وحملتهم وما ينوطهم به المسلمون من آمال تجيش في صدورهم .

ولشوقي في هذا الباب قصائد كثيرة وخاصة في عهد الخليفة عبد الحميد ومن أروع ما نظمه في هذه التراكيب قصيدته « صدى الحرية »

بسيوفك يعملو الحق والحق أغلب
وينصر دين الله أيمان تضرب
وما السيف إلا أية الملك في الورى
ولا الأمر إلا للذى يتغلب

والاندلس الجديدة :

يا أخت أندلس عليك سلام
هوت الخالفة عنك والاسلام
نزل الهلال عن لسماء فليتها
طويت وعم العالمين ظلام

تحية الترك :

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنين
لقينا في عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المييا

ولا يقرأ الإنسان هذه القصائد حتى يحس عاطفة قوية ويعلم ذلك شوقي ضيف (ربما كان ذلك يرجع من بعض الوجوه إلى عنصر شوقي

التركي فكان يستشعر في نظمه أبيامه وأصوله وفي الوقت نفسه كان يريد أن يرضى سيده وكان أيضا يريد أن يرضى الشعوب الإسلامية واجتمعت أسباب متشابهة لتضفي على تركياته جمالا وقوة (١) .

وقصائده التي اتجه بها نحو مدح الرسول الكريم أشهرها نهج البردة والهمزية وتعدان أحفل شعره المحافظ بمظاهر التقليد فقد جرى في نظمه على المعتاد في جمرة شعره وزاد فاتخذ فيهما من البوصيري استادا يقتبس منه ويتشبه به ثم لا يكاد يقتصر في هذا ولا ذاك وإنما يريد أن يكونه وكفى (٢) ويبدوا أن البوصيري في قصيدتي البردة والهمزية لم يتحذف من شاعر أماما ولا من شعر مثالا فجاءنا صورة لنفسه أو وحيا عن حسه .

والعالب أنه مع ذلك فكر في بعض ما دحى الرسول ونظر إلى بعض مدائحهم فيه كدأب الناس كلها عالجوا أمرا ذا بال ، وكان للسابقين فيه مقام وذكر ، فإذا صح هذا فكعب بن زهير على ما أرجح أحق أن يكون أسبق السابقين إليه ، وأطولهم ملازمة له وقصيدته (بانث سعاد) أحق تبعا لذلك أن تكون أول المدائح النبوية حظورا بالبال وأوضحها تمثالا له وأشدّها إثارة لا تتباهه فقد ظهر كعب وقصيدته من مدحة الشهرة وحفاوة الأدب بأفضل ما يظفر به منهما شاعر وقصيدة .

وكانت داعية البوصيري قبل ذلك إلى نظم البردة تشبه داعية كعب إلى نظم بانث سعاد شيها كبيرا فكان كلاهما من الرسول عليه السلام بمقام العائد المستشفع كربه لهم وضائق عليه الأرض وتقطعت به الأسباب إلا أن كعبا كان يستشفع إلى الرسول وصاحبه كان يستشفع به

(١) شوقي شاعر العصر الحديث ص ٢٩ لادكتور شوقي ضيف .

(٢) الدين والاخلاق في شعر شوقي ص ٢١ على النجدي ناصف .

صلوات الله وسلامه عليه فكعب كان طريقا مشردا هجا الرسول وصدعن دعوته
فسخط الرسول عليه وأهدر دمه فشقق كعب ، أبعن بالتلف ولم يدر أول
الأمر ما يصنع ثم بداله أن يعود الرسول ويستشفع إليه بالشعر الذي
أسخطه عليه ، فنظر بانف سعاد وقصدها إليه فأمنه إليه وعفا عنه وتقبل
قصده وأنا به عليها برده الشريفة الطاهرة . وأما البوصيري فكان
مريضا عاجزا ولا أمل إلا في ركه فغظ البردة يمدح فيها الرسول
الكرام ويستشفعه إلى الله أن يلحف به ويكشف الضر عنه ومن قوله
رحمة الله في ذلك .

• فعلتها — يعنى لقصيدته ، وكررت انشادها وبكيت ودعوت
وتوسلت وتمت فرأيت النبي ﷺ فمسح علي وجهي بيده المباركة وألقى
علي ردة فأنهت ووجدت في هضة ففقت ، ولأمر ما رأى رسول الله
حين رآه يلقي عليه ردة . الأمر ذلك هو ما فعل النبي إذا تشده كعب
(بانف سعاد) أو ليس ذلك حقيقة ؟ بالإشارة إلى البوصيري حين ذكر
في قصيدته كان يفكر أيضا في كعب وقصيدته وأنه كان يخط ويود
لو أدرك بالبردة مثل الذي أدرك صاحبه ببانت سعاد والبوصيري بعد
ذلك كله مدحه بوجهه على نمط بانف سعاد في الوزن والقافية ومطلعها :

إلى متى أنت بالذات مشغول

وأنت عن كل ما قدمت مسئول

ومحبت أن يكون البوصيري في قصيدتيه هاتين على ما بهدو من
الاستقلال والحماس على الشخصية وأن كان يعيش في عصر اتسم بالتقليد
والحمود وأن يكون شرقى على ما يرى من الاقتداء والمحاكاة وإن كان
يعيش في عصر تهوى ونهوض .

(١) فوات الوفيات

(١٣ — مجلة دمنور ع ٢)

والباعث عند شوقي أنه نظمها بمناسبة حج عباس حلمي الثاني وسار الشاعر في طريق البوصيري ولقد تفصل فضيلة شيخ الجمع الازهر اذاك فشرحهم وربما كان ادوع ما في القصيدة التي فتحت شيخ الازهر بطلته يشرحها المقطع الخاص بالدفاع عن غزو الرسول مما يردده المبشرون وبعض المستشرقين عن الإسلام وأنه انتشر بالسيف والدم يقول: (١)

قلوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاموا لسفك دم
جهل وتضليل احلام وسفطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

وواضح أن شوقيا يدافع عن غزو الرسول وأنه لم يغز إلا بعد الدعوة بالحسنى وعرض قرآنه على الكفار وقد أخذ يقرر أن الشر لا ينحسم إلا عن طريق السيف إلا بالشر وراح يوازن بين الإسلام والمسيحية فراها لم تنشر إلا عن طريق السيف والقوة على نحو ما هو معروف في عهد قسطنطين وحلفائه ثم نظر في دولها الحاضرة والدولة الإسلامية فوجد الدول المسيحية تعد كل ما تستطيع من قوة لتحطم الإسلام والمسلمين فهي التي تستغدي السيف وتسفح الدماء (٢).

وفي كثير من جوانب شعر شوقي يردد هذا اللحن الديني وما يتصل به من تمجيد الإسلام ويشعر الإنسان في غير موقف بأنه راسخ العقيدة وهو القائل :

فلم أر غير حكم الله حكما ولم أردون باب الله بابا

(١) شوقي شاعر العصر الحديث - لادكتور شوقي ضيف

(٢) شوقي شاعر العصر الحديث ص ١٣٣ لادكتور شوقي ضيف .

على أنه ينبغي أن لا نبالع وتصور نزعة الدينية ونظنها نزعة صوفية
فهو ، فقد كان يغني الجماعة الإسلامية بهذا ونحوه .

ثم اتجه إلى حث الأمة الإسلامية على استعادة أجدادها وبعث الأجداد
العربية ومقاومة المفاسد التي جاءت بها المديفة الغربية و كان ذلك نتيجة
لتطور الحقيقة الإسلامية في شعر شوقي .

أسباب نفيه

إذا كانت سنة ١٩١٤ قامت الحرب العظمى وسافر عباس الثاني إلى تركيا ولم يعد وأعلنت الحماية الإنجليزية على مصر . وفطعت صلاتها بتركيا وتولى السلطان حسين كامل عرش البلاد ويقف شاعرا مرثيا لهذه الأحداث ويتعقد موقفه بين تركيته القائمة على الجنس والدين وبين انجلترا عودته بالأمس والمتسلطة عليه اليوم وبين مولاه عباس الذي حرم عرشه وبين هذا البيت العلوي الذي رماه ويتزعمه اليوم السلطان حسين كامل فماذا يفعل بين هذه التيارات المتناقضة .

لقد حاول شوقي أن يؤول بين هذه المتناقضات جميعاً في لامية التي قالها بعنوان السلطان حسين كامل :

الملك فيكم آل اسماعيل
لا زال ببتكم يضل التيلا

هنا السلطان وأثنى على الإنجليز وعتب على تركيا عداوتها بإنجلترا وروى البيت المصري للمالك وعزى المصريين ونعى عليهم اختلافهم وعطف على عباس قلب عمه السلطان حسين كامل كل ذلك في هذه القصيدة التي تعرض خبر شعره وربما كانت فاتحة شعره القومي الجديد وأورد هنا بعضها وقد قال بعد المطلع :

لطف القضاء فلم يمل بوليك
ركنا ولم يشف الحسود غليلا
هذي أصولكم وتلك فروعكم
جاء الصميم من الصميم بديلا

ووجدت أبائي على صدق الهوى
وكفى باباء الرجال دليلا

وبرعم محاولته استرضاء الإنجليز لم ينجح لأن روح الحق على الإنجليز
كانت مظاهرها واضحة في نفس القصيدة .

وانقض ملعبه وسأهره على
أن الرواية لم تتم فصولا

واضطر شوقي إلى أن يرحل من مصر وترك له الإنجليز حرية اختيار
بلد التي يريد أن يقيم فيه فاختار أسبانيا المحايدة وفضل ميناءها أشبيلية
باعتبارها أقرب ميناء إلى مصر ونحن مضطرون أن نترك مصر معه وأن
تسأيره في الأندلس نحو خمس سنين .

يراجع في ذلك :

(١) وطنية شوقي : الحوفى .

(٢) ابن شوقي : حسن شوقي .

(٣) من نضال أحمد ركي أبو شادي مجلة أبولو ديسمبر سنة ١٩٣٢

المنفى وحياته فيه ومشاعره

وإذا كان هذا المنفى نعمة على شوقي الرجل فقد كان نعمة على شوقي الشاعر ، خرج به في الحقيقة من السجن إلى الحرية ، وترك تقاليد القصر وعقد السياسة وعيون الرقباء إلى حيث يعيش حراً طليقاً فارعاً للشعر يعطيه كل مواهبه ويدعاه حقه من الإخلاص والعناية والتجويد ويتسقى عن وحيه ما شاء الشعر من جلال وروعة وجمال وعندى أن شاعرية شوقي الخالصة لم تنطلق من عقائدها وتتخذ طريقها إلى النضج والاكتمال إلا منذ نفى ، ففي المنفى توافر لشوقي مع هذه الحرية ذلك الحزن على حياته المصرية وما لا يسها أخيراً من أحداث تسندعى العظة والاعتبار ، ثم ما لقي في الأندلس من عنصريين يعدهما معين الشعر : الطبيعة والتاريخ فاستطاع أن يستمد منهما هناك ما شامت له عبقريته الفذة (١) .

أما طبيعة الأندلس فهي التي حرجت لنا شعر الطبيعة العزيز في الأدب الأندلسي كما نجد عند ابن حمد يس ، وابن هانيء وابن خفاجة .

ومن نماذج الوصف عند ابن حمد يس :

وضراغم سكنت عرين رياسة
توكت خير الماء فيه زيتراً
فكأنما غشى النضار جسمها
وأذاب في أفواها البلور

ومن نماذج الوصف لابن خفاجة :

وأرعن طلاح الدواية باذح يطاول أعنان السماء بغارب

(١) أندلسيات شوقي : لصالح الأشر ٦٩

يسد مهب الريح من كل وجهة
ويزحم ليلا شبه المناكب
وقرر على ظهر الغلاة كأنه
طوال الليالي مفكر في العواقب

وقد مر شوقي في طريقه إلى الأندلس بقناة السويس مع أنفيه فم يمر
بها ساكنا، بل أرحمها أجل تاريخ أدبي سامي ، أضفى عليها من نفسه جلالات
ندر أن تظفر به وذلك بقصدته المنشورة قناة السويس : لقي بقول فيها :
تلك يا أبى القناة، لف، مكما فيها حصة ذكرى اسماعيل ورثه ، وعليها مهاجر
دنياه ، دولة الشرق المرحام ، وسلطانه الواسع الجاه طريق التجارة ، ووسيلة
والمخارة ، ومشرع الحضارة تعبرها اليوم على درجاة كأنها فلك النجاة
خرجت بنا بين طوفان الحوادث ، وطغيان الكوارث ، تفارق مقتضيه
معزى القضية قد أخذ الأهمية وأستجمع كالأسد للارثية .

أن للنقى لروعة وأن للنمى لروعة ، وقد جرب أحكام القضاء بأن تعبر
هذا الماء حين الشر مضطرب واليأس محتوم ، والعدو منتقم ، والخضم محتكم ،
وحين الشامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وأن لم ينسجم نفانا أحكام عجم
أعوان العدو والظلم إلى آخر القصيدة (١) .

وأخيرا نزل إلى الأندلس هذا المحراب الجديد والكعبة القدسية لهذا
الحاج الرابع ، فاستقبل هذه الآثار الخالدة للدولة العربية فاستخرج منها
عبر التاريخ العابر ووصلها بعضات التاريخ الحاضر وكان يحسن التفكير
والتصوير والتعبير حتى عدت أندلسياته صفحة خالدة للشعر والتاريخ .

والحل أول من ذكر شوقي من الأندلسيين هو صقر قریش عبد الرحمن

الداخل مؤسس مح. بن أمية هناك ومقيم هذه الدرة الأندلسية المستقلة ،
ذلك الغريب العبقرى أول من يستود على ذهن شاعر بافد كره ، ويذك كره
بهذا الفن الأندلسى المحبوب ، لتوشح بخصه به مؤرخا دولته هيبداً
بمجدته الممتاز :

صحب الداخل من أخوته حديق خاض الغار ابن ثمان
غلب الموج على قوته فكأن المروج من جند الزمان

ولم يفس ابن عماد ملك أشبيلية وأودية الطلح فقر به نفسه ود كر
عربته ووضعه معارضاً بن زيدون فى قصيدته المشهورة قال شوقى
يرحمه الله :

يا فائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم فامى لوادينا

ونو أنى ضاوعت نفس لترككت هذا الحديث العام ووقفت عنه هذه
القصيدة وحدها من وطنيات شوقى حيث التقت صحبات الغرباء واحتشد
الفن فى أروع درحاته ، ومع ذلك فسنأخذها منسوبة للإشارة إلى هذه
المراسلة بالشعر بين شوقى فى منفاه وبين زميلية صبرى وحافظى مصر ،
فقد كان شوقى أرس إلى الأستاذ داود ركات هذين البيتين من هذه التوفقة
وصلب إليه عرضها على اسماعيل صبرى :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحننا
بعد الهدوء وتهى عن مآقينا

لما تفرق فى دمع السماء دما
هاج البكا نخضبتنا الأرض باكينا

ثم أرسل إلى حافظ إبراهيم هذه الأبيات :

يا ساكني مصر أنا نزال على
عهد الوفاء ، وأن غبتا مقيمتنا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا نيل به أحشاد صاديتنا
كل المناهل بعد النيل آفة
ما أبعد النيل إلا عن أمانيتنا

فأجابه حافظ بهذه الأبيات :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ويسقى ربا مصر ويسقيتنا
والله ما طاب الإصخاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تتأعنه وأن فارقت شاطئه
وقد فأتينا وأن كنا مقيمتنا

وهكذا يجد طابع الغربة الجزينة سيطر على أفانيسيات شوقي شعراً
وشرأ ، هناك نظم ديوانه : دول العرب وعظماء الإسلام : وأكثر ديوانه
المختور : أسواق الذهب : وليس ما نشر منها فيما أرى هو كل أندلسيا به
ولكنه ظفر في مفقاه بالشاعرية الخالدة التي أجتذبت له من روعة النفي ،
وعبر الزمن ، وحرية النفس وحب الوطن ، فكان من ذلك أصبى شعره
وأهم دواوينه الفنية والركن الأول في بناء الشاعر شوقي .

ولما وضعت الحرب العظمى أوزارها تنقل شاعرنا بين معالم الأندلس

وقف على قصر الخراء بغرناطة ولعله أنفس الآثار العربية هناك وقفة
البحتري على ألوان كبرى وعارض سينتهه بمثلها فقال :

اختلاف النهار والليل ينمى
أذكرا لي الصبا وأيام أنسى
وملا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسما جرحه الزمان المؤسى
ولو أننا فرغنا لدرس هذه السيفية لاقتضت ساعات .

عودة الشاعر

وبعد لآي يغادر شوقي منفاه ويعود إلى مصر سنة ١٩١٩ م بعد أن أذن له الخديوي فؤاد بذلك فيفرح بعد بأسه ، وينتهي تجواله في ربوع الأندلس ويتعجل في مغادرة أسبانيا إلى مصر ولا ينتظر شوقي إبحار أولى السفن الأسبانية إلى السويس فهو قد مغادرتها أسبانيا بعيد . (١)

ولشاعر يتحرق شوقاً إلى العودة ، ولهذا يبهر مع أهله إلى حنوا ومن ثم يركبون القطار إلى البندقية ، ليلحقوا بأول سفينة تغادر مينائها إلى مصر .

وهكذا يعود شوقي إلى وطنه شيخاً في الحادي والخمسين من عمره وقد آلام المنفى وهمومه إحساساً بشيخوخته . ولسكنه ما كاد يحط أقدامه في بلده حتى يحس بقوة الشباب تتدفق من جديد في عروقه :

فيا وطني لقيتك بعد يأس كأي قد لقيت بك الشبابا

وعندما وصل شوقي الأسكندرية استقبله لفيف من أقاربه وأخلص أصدقائه .

أما القاهرة فقد كان استقبالها للشاعر العائد رائماً حقاً ، فقد تجمع في فناء محطاتها آلاف الطلبة لتحيته .

وغص ميدان المحطة بمجموع الشباب ، وما أن نزل شوقي من القطار حتى دوى الهتاف بحياته في حماسة طاغية . وحمله الطلاب على أعناقهم في عاطفة من التهليل والتصفيق حتى السبارة .

(١) أندلسيات شوقي : صالح الأشر . ٤

كان هؤلاء الطلاب الشباب جنود الميدان في تلك الساعة . تفتحت في نفوسهم تلك البذور التي زرعها مصطفى كامل ، ورعاها من بعده فيهم الزعيم سعد زغلول .

إنه الخيل الجديد الذي سيحط بيده تاريخ مصر الحديث . في عيونه نظرات العزم ، وفي دماغه غليان الرجولة ، وفي أعصابه ثورة الكرامة ، إنه الشعب الذي استيقظت طبيعته ، ففتحت أعينها ورأت ما تعانيه مصر المرأة من ظلم سياسي واقتصادي .

لقي شاعرنا أوضاعاً جديدة واتجاهات مختلفة ، من ملك جليل عاهل يجلس على عرش مصر .. وواد الأول ، ويشرف على هذا النشاط المصري المتعدد النواحي في أعقاب الحرب العظمى ، ومن نهضة مصر يقودها سعد وصحبه مثقفين ومختلفين وأحزاب قديمة وحديثة . وشبان متقدمون وقوداً لهذه النهضة ، ومن اقتصاد قومي في ظل بنك مصر ومنشأته ومن يقظة اجتماعية تناول المرأة والعامل والتقاليد ، ومن نهضة علمية عامة يسندها الأزهر والجامعة ودار العلوم وغيرها من معاهد ومسارح وكل شيء في مصر أخذ يتحرك مجداً نشيطاً ، والحكومة تسير ذلك كله بإرشاد البرلمان

والخلافة قد بدأت تلفظ أنغامها بعد الهزائم التي لحقت بتركيا خلال الحرب الكبرى ، ثم كانت نهايتها حين ألغاه مصطفى كمال ، وأقام في تركيا دولة جمهوريه حديثة ، وهكذا لم تعد مصر جزءاً من الدولة العثمانية بعد زوال هذه الرابطة التي كانت تشدها إليها فيما سبق .

أما الإنجليز ، فقد عدلوا من موقفهم في مصر تحت الضغوط التي أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ م فبدأوا يقنعون استعمارهم بقناع من الاستقلال الشكلي ، وراحوا يعملون على تحقيق أهدافهم بالتآمر مع القصر ، أو بتسخير بعض الزعماء المنحرفين .

وقد كان بريق الحكم قد أعشى بعض العيون فتفرق زعماء وثورته ١٩ إلى حزبين رئيسيين ، الأول حزب الوفد الذى رأسه سعد زغلول والذى كان - رغم كل ما يقال - يمثل القوى الوطنية المناضلة ، وينال ثقة الغالبية العظمى من أبناء الوطن ؛ والحزب الثانى هو حزب الأحرار الدستوريين ، الذى كان رئيسه أولاً عدلى يكن ثم عبدالعزيز فهمى ، والذى كان يمثل العناصر الاقطاعية والارستقراطية :

وكان إلى جانب هذين الحزبين الكبيرين عدة أحزاب أخرى لم يكن لها نفوذ الحزبين الرئيسيين .

ومن هذه الأحزاب الحزب الوطنى الذى فقد الكثير من قوته بعد انتهاء الخلافة وموت كبار زعمائه ، وأصبح يمثل النضال الوطنى المنشود والطموح السياسى الذى لم يكن عملياً فى نظر السياسيين فى ذلك الحين وحاول الشاعر أن يتقرب من القصر ولكنه لم ينجح فى هذه المحاولة إلا بمقدار :

ولنك ظل موقفه الوطنى أول الأمر متارجحاً لا يجرى الشعب إلى
هابة الشوط فى حماسته الوطنية الجارقة ، ولعلنا نلمح هذا الموقف واضحاً
فى القصيدة التى نظمها فى سنة ١٩٢٠ عن مشروع مانه الذى أجمع الوطنيون
على رفضه ومقاطعة اللجنة كلها مقاطعة تامة .

ومع ذلك نرى أحمد شوقي يدعو مواطنيه إلى قبوله قائلاً فى هذه
القصيدة :

لا تستقلوه فما دهركم بحاتم الجود ولا كعبه
نسمع بالحق ولم نطلع على قنا الحق ولا قضيه
ينال باللين الفتى بعض ما يعجز بالشدة عن غضبه

وقد كان لهذه القصيدة وقع عظيم في نفوس المواطنين وأحس شوقي بزلته فعدل عن روح التخاذل ، وصدر عن روح وطنية شعبية في القصيدة التي نظمها بعد عامين عن مشروع ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وكان الانجليز قد أعلنوا به نهاية الحماية البريطانية وقيام الملكية في مصر وتولية السلطان أحمد فؤاد ملكا على عرشها وإن كانوا قد شفعوا هذا التصريح بتحفظات أربعة وهذه التحفظات هي : —

- ١ — تأمين المواصلات البريطانية الامبراطورية في مصر .
- ٢ — حماية مصالح الاجانب والأقلية .
- ٣ — الدفاع عن مصر في حالة الاعتداء عليها سواء أكان اعتداء مباشرا أم غير مباشر .
- ٤ — مسألة السودان .

فرغت هذه التحفظات الاستقلال عن مضمونه الحقيقي ومن ثم لم يرق أبدا هذا التصريح في عين أحد من المواطنين فقد لمحو اسم اللئاب الأزرق في ثناباه .

وكانت هذه حلقة أخرى من حلقات الصراع الوطني من أجل الحرية والاستقلال ، حلقة جديدة قسدر لشوقي أن يعاصرها وأن يعيش في أحداثها الجميلة يوما بعد يوم ، ودقيقة بدقيقة ومن ثم كان عليه أن يدلي بدلوه فيها .

وإن يعبر عن موقف البلاد إزاء تلك الأحداث التي تمر بها ثم من بعد موقفه هو أيضا . كان موقف شوقي يدل — هذه المرة على الرفض ، فهو يتحدث عن الجهاد والكفاح ، أن لا راحة الا بعد جهاد ونضال وشقاء ، وبذل النفس والنفيس في سبيل الغايات السامية والأهداف الرفيعة .

انظر الى شوقي ينطق الحكمة في فاتحة قصيدته ٢٨ فبراير :

اعدت الراحة الكبرى لمن تعبها
وفاز بالحق من لم يأله طليبا

وعلى آية حال فان المتتبع لنتاج احمد شوقي الشعري بعد عودته من المنفى يحس في وضوح بتطوره المستمر نحو الاقتراب من الشعب ومن قضايا الوطن والاجتماعيه ، ثم تطوره مع الشعب أيضا نحو الاحساس القوي بالتضامن والقومية العربية فشوقي يتابع المد الوطني والثوري والقومي لشعبه ولائته العربية كلها ، ويحزن عندما يلب الخلاف بين صفوف الزعماء الذين قاموا بتحديد بثورة ١٩ ، وعندما يصل هذا الخلاف الى حد تهديد قضية الوطن ذاتها يصبح الشاعر بمزلاء الزعماء صيحته الخالدة سنة ١٩٢٢ في القصيدة التي نظمها عندئذ بمناسبة الف كرى السابعة عشرة لوفاة الزعيم مصطفى كامل ، وسماها شهيد الحق واستهلها بقول :

الام الخلف بينكم الاما وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يسكب بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما
واين القوز لا مصر استقرت على حال ولا السودان داما

ولما بما سعد زغول من الاعتداء عليه وهو مسافر الى انجلترا للمفاوضة مع حكومتها هناك شوقي بالنجاة بقصيدته التي يقولها :

نجسا وتمائل ربانها ردى البشائر ركبها
وياسعد انت امين البلاد قد امتلات منك ايمانها
ولن ترضى أن تقدر القناة ويستر من مصر سودانها

ويخرج عن سجناء المحاكم العسكرية الانجليزية سنة ١٩٢٤ في وزارة سعد زغول فيقول :

يامصر اشبال العرين ترعرت ومشت اليك من السجون أسودا
طلبوا الجلاء على الجهاد يثوبه لم يظهرا اجر الجهاد زهيدا
والله مادون الجلاء ويومه يوم تسميه الكفاة عيدا
رى الناحية الاقتصادية تراه يقول فى الاحتفال بانشاء بنك مصر من
قصيدة :

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رحلا أد الوها باحال
يا طالبيا لمعالي الملك مجتهدا حذها من العلم او خذها من المال
هاتو الرجال وهاتوا المال واحتشدوا
رأيا رأى ومثقالا لمثقال
هذا هو الحجر الدرى بينكمو فابنوا بناء قریش بيتها العالى

وكذلك لما وضع الحجر لاساسى بنائه سنة ١٩٢٥ م ثم يكون مشروع
القرش سنة ١٩٣٢ م فيشارك الشباب الاحتفال به بقصيدة لعلمها آخر ما قال
وهى التى تليت يوم وفاته رحمه الله :

لا يقيمن على الضيم الأسد نزع الشبل من الغاب الوتد
فتبى الوادى عرفنا صوتكم مرحبا بالطائر الشادى الغرد
هو صوت الحق لم يبلغ ولم يحمل الحق ولم يخف الحسد

الجانب الاجتماعي

وكانت هنا ولا تزال نهضة اجتماعية تناولت المرأة والصحافة والعمال
فشارك فيها شاعرنا قال في نقابة الصحافة :

لكل زمان مضي آية وآية هذا الزمان الصحف
ويتحدث عن دور العمال في النهضة الاجتماعية فيقول :

أيها العمال افنوا لعمر كذا واكتسابا

ويشيع انتحار الطلبة اثر سقوطهم في الامتحان فيقطع عنهم سبيل
اليأس ويبسط لهم مجال الامل بقوله :

ناشيء في الورد من أيامه حسبه الله ، أما لورد عشر
ويصيح في وجه الشيوخ الدين يرغبون في الزواج من الفتيات فيقول :
ظلم الرجال نساءهم وتعسفوا هل للنساء بمصر من أنصار
وتقوم معركة أدبية بين أنصار السفور وأنصار الحجاب فيقول في
ذلك قصيدة رقيقة ينصح فيه الفتاة بالانابة ويحذر لها مزالق الحياة .

صداح ياملك السكنار ويسا أمير البلبيل
وقد عني بالنهضة العلمية فحبا الجامعة والأزهر ودار العلوم والمعلمين .
فيقول في الأزهر :

قم في هم أدتيا وحي الأزهر	واثر على سمع الزمان الجوهرا
واجهر مكان الدوا فصالته	في مدحه خرز السماء الثيرا
واذكره بعد المسجدين معظما	لمساجيد الله الثلاثة مكبرا

أثر الغربية في شعره

كان شوقي في أول حياته لا يميل إلى المديح، لأنه يفسد المواهب ولكنه يحكم صلاته الوثيقة بقصر الخلافة في تركيا والبيت الحاكم في مصر اضطر إلى المديح، وكان يرد هبه في مطلع شبابه أن يكون شاعر الأمير لما في ذلك من شهادة بتفوقه وامتيازه .

شعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

وبرغم نفوره الطبيعي من المديح جاءت شاعريته بغرر القصائد في مدح الخليفة، والجالسين على عرش مصر، ويرجع سبب اجادته لتلك القصائد أنه كان يصدر عن انفعال صادق، حيث يرى الخلافة الإسلامية رمز وحدة الأقطار العربية ينشب الاستعمار فيها أظفاره .

وشوقي كان يعترف بفضل اسماعيل فهو يمدح البيت الحاكم استجابة لما في طبعه من سجيبة الوفاء .

أخون اسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بب اسماعيل

وهذا الصديق القنى هو ما أعوز أكثر شعراء المديح حين صاغوا آيات الثناء والتعجيد في الأحكام نفاقا وتزلفا استجداء للعطاء وتوزعت شخصية شوقي بين وفائه لأرباب نعمته وولائه لفنه الشعري ولامته، وحاول أن يوفق بين هذا وذاك فكان يزجى النصائح للحكام، ويذكرهم بحقوق الشعب في مهارة يبدو معها كأنه يجعل هؤلاء الحكام معقد الرجاء لرعاية هذه الحقوق وقصائد المديح — قبل المنفى مسرفة في الثناء على ممدوحيه بما لا يستحقون ولكننا لو تعاطفنا مع قصائد المديح في هذه الفترة لوجدنا الشاعر يرسم صورة مثالية للحاكم العادل الذي افتقدته البلاد طويلا . وبعد أن تحرر من القصر واتجه إلى الشعب والأمة العربية والإسلامية أخذ مكانه قائدا

فضالها يدافع عن كل هذه القضايا ومن يطالع ديوان شوقي يجد أن الرثاء يشغل حيزا كبيرا منه . وهذا الرثاء أعمق من المديح لأن شوقي في مديحه كان يتجه نحو الحكام والولاة ، ولكن الرثاء اتسع لكل دعاة الإصلاح من مختلف الطبقات . ولقد عب عليه بعض النقاد أمرافه في الرثاء فرد عليهم يقول :

يقولون : يرثي الراحلين فويحهم

أأملت عند الراحلين الجوازيما

ولقد حظا شوقي بخضوة أرحب في رثائه من البارودي فقد كان الرثاء عند البارودي مقصورا على أهله وذويه وكان يصدر عن معاناة حقيقية ، ثم جاء من بعده شوقي فانطلق به في الاتجاه القومي العام ، ونشعر بأندماجه في الموقف الشعري ، وقوة انفعاله به في تمثيل المرثية للفقيد بحيث لو حاولنا نقلها إلى فقيد آخر لما استمتعنا إلى ذلك سبيلا . كقوله في رثاء عبده الحامولي أمير الغناء في عصره :

ساجع الليل طار عن أوكاره وتولى من على آثاره

ومنها البيت المشهور :

يسمع الليل منه في الفجر ياليل فيصغى مستهلا في فراره

أحب شوقي التاريخ في أول حياته الأدبية وازداد عشقه له بعد أن أطلع على الثقافة الأوروبية وقرأ هو وجو ديوانه . وشوقي ينتخب من التاريخ ما يحسن العظة والعبرة فم ينهج نهج القدماء في سرد الأحداث وذكر الشخصيات ، وقرأ التاريخ المصري القديم وتاريخ مصر الإسلامية وتاريخ الترك وله قصائد أربعة في كل ذلك وهذه القصائد تنمنا إلى هدف وتقصده إلى غاية كما صرح بذلك في قوله :

غال بالتاريخ وأجعل صحفه من كتاب الله في الاجلال قائما
قلب الانجيز وانظر في الهوى نلق للتاريخ وزنا وحسابا
واطلب الخلد ورمه منزلا تجد الخلد من التاريخ بابا
مثل القوم فسوا تاريخهم كالقيط عى في الناس اتسابا

وله في البطولات الإسلامية قصائد شهيرة منها :

نهج البردة والهمزية . وقد ألم الشاعر في هاتين القصيدتين بتاريخ الامة
لعربية . ووازن بين حال الناس بعامة قبل البعثة، وحالهم بعد مجى الهدى
كقوله يناجى الرسول الكريم .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم
والارض مموءة جورا مسخرة بكل طاغية في الارض محتكة

ووقف شوقى على روائع الآثار يستلمها العظة والعبرة وقال في
الاندلس قصائد رائعة منها لقصيدة السبئية التي يعارض بها ابن زيدون
ومطلعها :

بانايح الطلح شباه عوادينا نامى لواديك أم نشجى لوادينا

وسبقت الإشارة إلى دوره السيامى ، وشعره الاجتماعى يكاد يكون
غرضاً حديداً على الأدب العربى إذ استثنينا شعر أبنى العلاء المهرى . أما أكثر
الشعراء فقد حصروا أنفسهم فى دائرة الملوك والأمراء ، ويندر البقاتهم
إلى الطبيعة الكادحة ، ومن شعره الاجتماعى قوله فى الحث على مساعدة
الاهلال الأحمر :

جبريل هان فى السماء وكبر أكتب ثواب المحسنين وسطر
سل للفقير على تسكرمه الغنى وأطلب مزيدا فى الرخاء لموسر

وشوقي مضى بمظاهر النهضة العلمية في مصر حيث يقول في إنشاء
الجامعة المصرية قصيدتين رائعتين ، ويحرص على اغراء الأمة بالعلم ويجعل
المعلم في أسمى منزلة :

قسم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
ويتغنى بتأسيس بنك مصر ، ويشفي على كل من يقدم مكرمه لبلاده
ويقول في العمال وبحثهم على النهوض بمصر ،
وقوله في رثاء ولده على شوقي :

أنا من مات ومن مات أنا لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة في بدن ثم صرنا مهجة في بدنين
ثم عدنا مهجة في بدن ثم فلقى جثة في كفنين
ثم نحيا في على بعدنا وبه تبع أول البعثين

ولقد أكثر شوقي من أبيات الحكمة على عادة شعراء العربية وبخاصة
المتنبي ، وهذه الحكمة وليدة الثقافة والتجربة ، فلم يكن لشوقي مذهب فلسفي
يصدر عنه وإنما كان منقفا ثقافة ممتازة مطالعا على الفلاسفة كثير التأمل في
أمرار الكون والحياة وما وراء الموت ووجد شوقي الحكمة إحدى الدعائم
التي تبنى عليها الأمم وله أبيات شهيرة في هذا المعنى منها قوله :

ولما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وقوله :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا
وهذه الحكم مبشورة في شعره برسلها إرسالا في يسر وسهولة وبعضها قد ألم
به القدماء وصاغها شوقي صياغة جديدة وبعضها من وحي تجاربه .

ويرى بعض النقاد أن غزل شوقي متكلف لا يمثل عاطفة صادقة وهذا
النقد يصدق على قصائد المرحلة التي قيده فيها القصر ، حيث أن التقاليد

كانت تحول بينه وبين لواعج عشقه ، و الافصاح عن حبه وقد اقتتح بعض قصائده على طريقة القدماء ، واسكن ساسه القصر طلبوا حذف النسيب والابقاء على المديح ومن ثم فترت همة الشاعر . ومع ذلك فقد استطاع أن يعبر عن مواعجده العشق عند أبطال مسرحياته .

المسرحيات :

أهم أعمال شوقي الجديدة في المسرحية ، فلم يسبقه في ذلك إلا محاولات لم تكتب لها الحياة ، ومسرحياته من حيث الصياغة والنص الشعري في القمة لكنها من حيث الفنية المسرحية عليها ما حذ كثير من أنها أن شوقي كان يكتب مناظر الفصل في شكل قطع غنائية بدون ملاحظة للجمهور .

وفي ذلك دليل قاطع على أن شوقيا مشغول ، وخاصة في مآسيه من مثل مجنون ليلى ، بالغناء عن التمثيل ، أو قل أنه تأثر الغناء إلى حد بعيد . ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أنه درس المأساة القرينية ، وأنه حاول جامدا أن يثبت قدرته على محاكاتها وتقليدها (١) .

ينقص مسرحيات شوقي العنصر الدرامي الذي قوامه المفاجئات المسرحية المختلفة وطرق قيادة الأحداث إلى نتائجها النفسية والاخلاقية . عدم انتخاب الشاعر لوزن معين في مسرحياته حملة شديدة من النقاد على نحو ما يرى القارى في نقد العقاد لقمبيز حتى ليقول له حسين هذه العبارة :
أما عن التمثيل فقد غنى شوقي فأطرب وأثر ولكنه لم يمثل ، لأن التمثيل لا يرتجل ارتجالا ولا يهجم عليه وإنما هو في يحتاج إلى الشباب والدرس والقراءة فكان تمثيله صورا تنقصها الروح ، وأن حبها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء (٢) .

(١) شوقي شاعر العصر الحديث ص ١٨ : شوقي ضيف .

(٢) حافظ — شوقي ص ٢٢١ .

كان اتخاذ التاريخ مادة مأسوية من الأسباب التي منعت مسرحه من أن يلقى إقبالا شعبياً كبيراً وذلك لأنه وإن يكن هذا التاريخ هو تاريخنا القومي إلا أن الجمهور كان يفضل بلاريب أن يرى في ذلك المسرح مآسى حياته بدلاً من مآسى التاريخ التي يعد بها العهد والتي قد تحتاج إلى متابعتها والانفعال بها قدر أ من الثقافة التاريخية .

واقف أن النقاد قد اتخذوا من موقف شوقي إزاء التجارب التاريخية التي اختارها هدفاً لتقدم اللاذع .

فراى بعضهم أن شوقي قد أساء الاختيار في عدة مسرحيات بل ولاحظ تناقضاً بين ما اختار والهدف الذي يرمى إليه وأوضح عنه في النظرات التحليلية التي ذيل بها مسرح حياته ، حيث تطالع في تلك النظرات أن هدفه الأساسي كان تمجيد العرب والمصريين القدماء ، بينما يلاحظ هذا النهر ومخاصمة النقاد أنه قد اختار لبعض تلك المسرحيات موضوعات وفترات من تاريخ مصر والعرب كانت من أحلك فترات التاريخ وأكثرها انحطاطاً بل وانحلالاً ، مثل فترة ضعف المصريين وانحلالهم وسيطرة جنود المرتزقة على قوات الوطن الدفاعية ، كما هو الحال في مسرحية منبئ وغزو الفرس لمصر والقضاء على استقلالها الذي لم تستره منذ ذلك الحين إلا في أيامنا الأخيرة .

ومثل مسرحية على بك الكبير التي تمثل فترة انحلال أخلاقي ووطني شديد في عصر المماليك وعذر بعضهم ببعض حتى أصبحت البلاد نهبا لأطماعهم ومرتماً لمبعثهم ونكاههم على المخانم والشهوات .

ثم مصرع كليوباترا التي تفصل هي الأخرى أحداث انهيار مصر ووقوع مصر فريسة في يد الرومان في أعقاب انحلال أمرة البطالسة وعيث امرأة هلو ك كليوباترا التي لم تسكن فوق ذلك مصرية في شيء ولم يكن للشعب المصري في ذلك الحين أى وجود محسوس .

ويرد مندور على ذلك قائلاً : أن عصور المجد والازدهار قد لا تشيخ
لكاتب المسرحى عنصر الصراع الذى تقوم عليه المآلى فى غالب الأمر ،
كما أن فترات المحن والكفاح الوطنى هى التى تظهر فى الغالب معدن الشعوب
وصفاتها الأصلية ، وبذلك لا يكون شوقى قد أخطأ من الناحية الفنية ولا من
الناحية الوصفية فى اختيار موضوعات مآسياه التاريخية من فترات المحن التى
مرت بالمصريين أو بالعرب (١) .

وحسب شوقى أنه أول رائد لهذا الفن فى العصر الحديث كما رأى ذلك
زكى المحاسنى فى أخريات حياة شوقى ، وبعد موته عرف النقاد فى آثاره
المسرحية روعتها ، ووعدها عملاً أدبياً جديداً ، وأن الأدب الحديث ، وإن
يكن قد عرف الآثار المسرحية عنه بعض المؤلفين العرب قبل شوقى ،
كالشاعر نجيب حداد ، لكن شوقياً تفرغ لهذا الفن فى الثلث الأخير من
عمره فلم يخادر الحياة حتى أعطى الوجود المسرحى فى ديار العرب سبع
تمثيليات فائقة .

وقد كان متأثراً فى فنه بآثار شكسبير خاصة حتى قلده فى رواية دمصرع
كايوبانرا ، (٢) .

ويذهب إلى ذلك فى مقارفة دقيقة عن تأثر شوقى بشكسبير فى رواية
كايوبانرا صلاح عبد الصبور (٣) .

(١) المسرح لمندور ص ٧٦

(٢) نظرات فى أدبنا المعاصر ص ١٣

(٣) الهلال : عدد خاص عن شوقى ص ٢٥

معانيه :

ينبغي أن نذكر أن الشعر كان في عصر المماليك وفي أول النهضة ضعيفاً
تافه المداني ، فلما جاء رد البارودي قلاد مداني السابقين من الشعراء المبرزين ،
وبخاصة في العصر العباسي .

وحين ظهر شوقي في الميدان كان كثير من معانيه أضواً وأعمق مما جاء
به البارودي ، ومن ذلك أن شوقياً اطلع على الثقافة الغربية وبخاصة الفرنسية
وقرأ كثيراً من كتب التاريخ وغيرها فامتد أفقه الثقافي ، وظهر في معانيه
عمق وحسن تفكير ، لذلك نستطيع أن نقول أن معانيه بعضها مقبوس من
القديم ولكنه طوره وأحسن عرضه ، وبعضها حديث لم يعرفه الأدب العربي
من قبل وقد ظهر ابتكاره في الأعراس الجديدة كالتاريخ ، والسياسة ،
والاجتماع والمسرح وترى أثر ذلك واضحاً في النماذج التي عرضناها عليك .

صوره وأخيلته

١ — يستعين الشعاع بخياله ليجعل معانيه أشد تأثيراً في النفس ، وأعمق
وصولاً إلى العاطفة ، وبعض أخيلته كذلك قديم كقوله يتغزل :

ويم على القاع بين البان والعلم
أحل سقك دمي في الأشهر الحرم

وقوله ينصح :

وإذ النساء نشأن في أمية
رضع الرجال جهالة ونحولا

وبعض أخيلته جديد مبتكر يبدو فيه حسن النخيل وجمال التصوير
كقوله عن الهلال الأحمر :

كانه وردة حراء قانية
في الخلف قد ففحت في كف رضوان

وقوله في العلة بين الوطن وأبنائه :

وطن يرف هوى إلى شبابه
كالروض رقة على ريحانه

ألفاظه وأساليبه

تدلك قراءتك لشعر شوقي على الخصائص التالية في ألفاظه وأساليبه :

١ — إلمام شوقي الدقيق باللغة ، وإطلاعه الواسع على أساليبها كما وردت في أدب السابقين وفي قواميس اللغة .

٢ — حرصه على استعمال اللفظ اللغوي الصحيح وترفعه عن العامي .

٣ — قدرة ممتازة على أن يضع كل لفظ في موضعه الملائم له ، بحيث تحس أنه ليست هناك كلمة نابغة ولا تعبير قلق ، وبذلك تبدو في شعره موسيقى حلوة ونانة .

٤ — قدرته على أن يوزع طاقته الذهنية على اللفظ والمعنى مما يعنى بموسيقى اللفظ وإن جاءت معانيه عادية مألوفة ، وبعضهم يهتم بالمعنى الجيد وإن ضعف أسلوبه كما في كثير مما يسمى شعر المجددين ، أما شوقي فكان يهتم بهما معاً .

الوجود العربي في شعر شوقي

فإذا أردنا أن نتعرف على موقف شوقي السياسي ، من خلال شعره في الفترة الثانية وجدنا ما يلي :

فيما يتعلق بالخلافة العاربية ، راح شوقي يبكيها ويرجعه التقر يع إلى مصطفى كمال مسدل الستار عليها .

ومن ذلك قول الشاعر من حائضته المشهورة :

ضجت عليك مآذن ومنابر

وبكت عليك ممالك ونواح

ولكن شوقياً قد أدرك أن الخلافة إذا زالت رسمياً ، فقد بقيت فكرة الارتباط بين الشعوب الإسلامية والعربية ، لا يمكن أن تزول ،

ومن هنا راح الشاعر يهتم بشعره التضالي الرائع في كل قضايا الأمم الإسلامية والعربية معتقداً أن أبناء هذه الأمم هم قومه الحقيقيون وآله الأقربون .

فحين تهب سوريا في ثورتها ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٥ يذيع شوقي ثلاث قصائد حيث يقول في الأولى مؤكداً أخوة الإسلام والعروبة ووحدة المأساة بين مصر وسوريا :

قم تاج جلق وأنشد رسم من باتوا

مشيت على الأرض أحداث وأزمان

فغير المسجد المحزون واختلفت

على المنابر أحرار وعبيدان

ثم يذيع شوقي قصيدته الثانية سنة ١٩٢٦ بمناسبة فكية دمشق محاولاً

استنهاض همم مواطنيه في نضالهم ضد الانجليز من خلال حديثه عن
نضال إخواننا السوريين :

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفك يا دمشق
ومقدرة البراعة والقوافي
جلال الرزم عن وصف يدق
ومنها :

نصحت ونحن مختلفون داراً
بيان غير مختلف ونطق
وللاوطان في دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق
والحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ثم يذيع قصيدته التالية في العام نفسه رابطاً فيها معاناة قومه من أجل
الحرية في مصر ومعاناة إخوانه من أجله في سوريا ، واضحاً أن الطريق
الوحيد للنصر هو طريق الدم .

وفي تلك القصيدة ، يقول :

سلوا الحرية الحمراء عنا وعنكم . هل أذاقتنا الوصالا
وقريب من هذا يضع شوقي في موازنة لبنان في نكبة
بيروت ومنها :

بيروت : يا راح النزيل وأنسه
يمضي الزمان على لا أسلوك

وفي مناصرة ليبيا يقول في رثائه لعمر المختار متجها نحو الشعب الليبي:

يا أيها الشعب القريب أسمع فأصوغ في عمر الشهيد رثاء
أم الحمت فاك الخطوب وحرمت أذنيك حين نخطب الأصغاء
ذهب الزعيم وانت باو خالد فأنهد رجالك واختر الزعماء
وارح شيوذك من تكاليف الوغى وأحمل على فتيانك الأعباء

وبالبداهة لم يعد شوقي ينظم في مشاهد الطبيعة في الاستعانة والبوسفور وما إليها من الأراضي التركية ، بل أخذ يكتب التاريخيات والوصفيات عن مصر والبلاد العربية الأخرى متى رخرت الشوقيات بالقصائد المصرية والعربية، وأقامت التوازن ، بل رجحته مع التركيات والخلافيات وبخاصة بعد أن وفق العالمان الإنجليزيان الآثر بان اللورد « كارتير » والمستر « كارتفور » إلى اكتشاف قبر توت عنخ آمون الرائع في وادي الملوك بالأقصر .

فنظم أحمد شوقي قصيدته الرائعة « توت عنخ آمون » التي تعنى فيها بأجداد مصر القديمة وما خلّمت من آثار رائعه أجل الغناء مطلعها .

قنى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الذابرينا
كما نظم قصيدة أخرى بعنوان : توت عنخ آمون وحضارة عصره .
درجت على الكثر القرون واثت على الدم الستون
خير السيوف مضى الزمان عليه في خير الجنون

وأخذ يدرك شوقي بوعى ما يشهد هذه البلاد جميعا من روابط الدين واللغة والتاريخ وشتى مقومات الأمة الواحدة .

وبناء على هذا الوعي السليم لا يكاد يترك شوقي مناسبة عربية أو إسلامية دون أن يسهم فيها بشعره الإسلامي العربي ، مبشرا بأمة إسلامية قوية واحدة ، وقومية عربية متينة منتصرة .

وهذا أول ما يلاحظ على شوقي وموقفه السياسي في هذه الفترة الثانية حيث يترك تمجيد الخلافة وتركيا ، أوحيت بقليل من ذلك قليلا واضحا ، ليحل محل ذلك الاكثار من تمجيد الدول الإسلامية مؤازرة أفعالها ، وليشيد بالعروبة والعرب والكفاح الذي يخوضه الشعب العربي من أجل حريته وكرامته مع التأكيد على أخوة تلك الشعوب واتحاد بينها الذين يجمعهم اللسان ، ويصممهم الشرق ، ويوحد بينهم الماضي والحاضر والمصير .

والملاحظة الثانية أنه أدار للقصر ظهره واتجه نحو الشعب وكان واضح الإيجابية والنضالية مع الإنجليز بعيدا عما عرف منه في الفترة السابقة من التشكل بموقف النصر .

وموقفه من الأحزاب في هذه الفترة موقف المحايد الذي يغني آمال الأمة ويشدو بالقيم الكبرى التي يجمع عليها الشعب وهو بعد يقف من الزعماء موقف الداعى إلى وحدة الصف .

وهكذا يمكن أن يقال : أن الطابع الغالب على موقف شوقي السياسي في هذه الفترة الثانية هو الطابع الحر الجريء الإيجابي المناضل الذي أدرك به الشاعر ما فاتته في الفترة السابقة .

الروح الأندلسية في شعر شوقي

إذ نظرنا إلى شعر شوقي فسنجد أن أول طيف الأندلس يطر عينا من وراء قافئة بيت له ، من قصيدة القاهما عام ١٨٩٤ في مؤتمر المستشرقين المعقد في جنيف ، عرض فيها لرسالة الإسلام التي نبتت في البیداء وأطلعت من الصحاري ، من قلب الخيام ، أسودا فتحوها الدنيا وقادوها نحو النور ، ونشروا فيها الحضارة وحكموا بعد لهم الأرض وعلى ذلك :

تشهد الصين والبحار وبغدا د ومصر والمغرب والحراء ،

فهذه الحراء رمز لحكم العربي والحضارة الإسلامية في الأندلس وهي صورة غامضة جدا تمثل في ذلك رصيد شوقي من « الفكرة الأندلسية » في شعره (١) .

وتعود هذه الصورة الغامضة أيضا ، فتراها في بيت من قصيدة شوقي التي رافعها إلى السلطان عبد الحميد ، عندما نزل في ضيافته في الاستانة .

وبيت الزمان (أندلسيا) ثم يضحى وناسه أعجم

وكان ناشر ديوان شوقي أحسن بغموض الصورة أيضا فحول عبثا أيضا حين فسر الزمان الأندلسي في الهامش بأنه زمان الأندلس أيام عز العرب والإسلام فيها .

وتطال الصورة قائمة لا يزالها غموضها حين تعود إليها مرة ثالثة في القصيدة التي يمجّد فيها السلطان محمد رشاد الخامس ، ويخاطب في آخرها الاستانة ويتأججها ترى محباها تأمها ، ينتمى إليها بصلة الدم والقرى ، من طريق أمه وأبيه فهي إذا مهدأصوله ، وقد حرّكت وحي شاعريته وأطلقته قبسا يضيء الشرق قبسا فريدا .

لم تسكّر الحراء من نظرائه نسلا ولا بغداد من أفعاله

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمون ص ١٢٠ .

والخبراء هنا — يحشرها في زمرة واحدة مع بغداد والإستانة يجب أن تعكس مفهوم العاصمة الإسلامية الكبرى التي يؤمها الشعراء من كل جانب ، ويزدحم على أبوابها أصحاب المواهب فتكون لكل منهم مصدر وحيه وإلهامه .

وتعقد صورة الأندلس مرة رابعة ، عندما يزور الخديوي عباس مدينة طنطا ، وللخديوي يد على هذه البلدة حين بعث الحياة والعمران في رسمه البالي — كما تقول شوقي — وفجر فيها عيون العلم بإفشائه المدارس والمدارس .

انظر إلى كل عال من معاهدها تنظر طليعة في عصرها الخالي

وطليعة هذه تمثل دوراً لم يكن لهم في تاريخ الأندلس ، وصاحب هذا الدور العظيم في حياة الأندلس هي قرطبة وجامعها الكبير ، إلى قرطبة لا إلى طليعة كان الطلاب يقدون من الشرق والغرب لينهلوا فيها العلم ، ويتزودوا من المعرفة .

ولا نقول أن الوزن الشعري هو الذي جاء « طليعة » هنا ولم يكن قادراً على الإتيان بقرطبة ، فمن شوقي الشاعر الكبير ، لا يستعيد الوزن ولا تحكمه الصنعة .

إلى هنا تظل صورة الأندلس غامضة غائمة في شعر شوقي ، وإن تقنح لأعيننا بعض الخطوط فيها إلا في عام ١٩١٢ عندما تهمر دموع الشاعر أثر سقوط أدرنة في يد البلقان ، ويسقوطها هوى الإسلام عن مقاطعة مقدونيا في عين الشاعر صورة ثابتة لضباغ الأندلس (١) نقد حرج المسلمون من الأندلس ، وما هم أولاء اليوم يخرجون من مقدونيا ، فمقدونيا إذا

(١) أسبانيا كما يراها السياح المسلمون ص ١٢٠

أخت الأندلس جديدة من حق الشاعر أن يبكىها ، ويصور الجرح الذي أصاب المسلمين بسقوطها :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والإسلام
وبعد أن يصف المسلمين الهاربين المهاجرين بعد سقوط مقدونيا ،
يخاطب الأمة العثمانية فينمى عليها تفرقها وتخاذلها ، ويدعوها إلى الاتحاد
والوئام وترك التفاخر فيقول :

وقف الزمان بكم كوقف طارق البأس خلف والرجاء أمام
فوقف بنى عثمان اليوم كوقف طارق فاتح الأندلس حين أحرق سفن
الجيش ودعا الحشد إلى الصدق والعزيمة والرجاء والصبر .

هذه الصور الحزينة الجريحة التي يرسمها شوقي لنكبة العثمانيين في
مقدونيا أضفت بألوانها على الصورة الأخرى التي أراد أن يصور فيها
نكبة العرب في الأندلس ، لبعقد بين الصورتين صلة ، ويقارن بينهما ،
ولكننا إذا قمنا بما تقدمه هذه المقارنه من الخطوط المتشابهة ، والألوان
المتماثلة بين الصورتين ، قلنا إن رصيد شوقي من الفكرة الأندلسية
لا يزال فقيراً .

وبن — بعد هذا — نستطيع أن نؤكد أن رصيد شوقي من هذه
الفكرة حتى عام ١٩١٢ لا يزيد عماله في الأندلس الجديدة ،

وسنجد أن الروح الأندلسية ستظهر واضحة في شعر الشاعر المنفى ذلك
أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها في عام ١٩١٨ أصبح في حرية له أن
يسبح في أرض أسبانيا متنقلاً بين ربوعها وقد قام فعلاً برحلة يروى فيها
ظماؤه لزيارة هذه البلاد ، وقد رار مدن طليعة وأشبيلية وقرطبة وغرناطة .

وكما يقول كان البحترى رفيقه في هذه الرحلة وكان قد أعجب بسينته

و وصف ليوان كسرى حتى أنه كان يتمثل قأبياتها كلها وقدمت عينه على أثر من آثار العرب بهذه المدن ورأى أن البحتري انعط بالآثار وخلدها في ديوان شعره فرغب في أن يسير على خطاه في كسب العظه والدبرة من آثار هذه المدن وتحليدها ناسجاً على منوال البحتري فألف قصيدته على وزن وروى سيفية البحتري وصل شوقي المسجد فإذا هو تائه في غايه من أشجار المرمر وتلك هي سوارى المسجد ، مثل ألفات الوزير ابن مقلة المعروف بمجودة خطة .

مرمر تسبح الفواظر فيه ويطول المدى عليها فترمي
وسوار كأنها في استواء ألفات الوزير في عرض طرس
ويطوف شوقي بأرجاء المسجد ، حتى يصل إلى المحراب ، ويرى ماعله
من بديع الخطوط فيذكر بالثناء والتقدير بأنى المسجد عبد الرحمن
الداخل :

صنعة الداخل المبارك في الغر ب وآل له مابين شمس

ويستشير عبد الرحمن الداخل لعجائب الشاعر ، فصهر قريش بطل عربي
غامر بنفسه ليقيم لأمرته ملكاً جديداً في الغرب ، يخفق قلب الشاعر وهو
يذكر أنه الآن في الرحاب التي أسس فيها الداخل دولة الأمويين ، والتي
تضم أرضها عظامه .

فيطلق لسانه بالشعر يتغنى بأجناد ذلك الصقر ، ويختار شوقي هذه
المرّة لغنائه لحناً أندلسياً مروقاً ، فيعزف لنا على قيثارته مرثية برسم في
مقطعها صورة البطل الأموي ، منذ قدومه من المشرق إلى تأسيس الدولة
الأموية في المغرب .

كنت صفراً في صبا علما ماعلى الصقر إذا لم يرمي
أن تس أين قبور العظما فعلى الأفواه أو في الأنفيس

و هذا القصر العربى قضى شوقى فترات طويلة ، يطوف فى أبنائه
وينتقل فى حجراته ، ويرى القسم الذى أضافه الاسمان إلى القصر فهو
بذلك جماله الخالص فبدأ خليطاً من الطرازين الشرقى والغربى كان شوقى
يبحث عن الملك الشاعر المعتمد بن عباد وزوجته الشاعرة الجميلة وابنتها
بنسنة وجدتها العبادية ، ولكنه لن يجد احداً منهم فى القصر ، فقد دام
يوسف بن تاشفين الملك العبادى ونفى الأميرة المالكة كلها عن أشبيلية إلى
أغمت غير أن بحث شوقى عن أبطال روايته وأميرة الأندلس لن يضيع
سدى ، فأطباق هؤلاء تعبق بها أجواء القصر الخالى ، وتخرج بها ظلال
الحدائق العربية القلب ، وراو القصر الحزين ، وخيال شوقى قادر على أن
يلتقى بهذه الأطباق ، لتقبين ملاحها من قرب ، ويتمثل من خلالها وصفه
الايام الاخيرة لحكم بن عباد فى أشبيلية ، قبل عزو المرابطين لها .

بدو أن غرقاطة كانت آخر مدينة فى الأندلس تركت فى افتتاح
شوقى الأندلس صورة لآثارها . كانت غرقاطة آخر معقل للعرب فى
أسبانيا وذلك بتسليم ابن عبد الله الصغير آخر ملوك بنى - الأحمر ، إلى
قرديفاند وايزابيلا صفانيحها خرج العرب منها وحلفوا فى هذه المدينة
أصبح أثر عربى تزهو اليوم به الأندلس ، تمقوا إليه ملوب السياح من كل
فى الأرض ليروا إحدى معجزات الإنسانية ، ومفخرة الحضارة العربية
والفن الإسلامى فى أسبانيا إنه قصر الحمراء حصن عرناطة ودار بنى الأحمر ،
ولا يزال إلى اليوم ، كما تركه بياؤه الإبداع ، أعجوبة تسحر الأبواب ، ويفتن
به الزائرون يقع قصر الحمراء فوق اكام عاليه تطل على عرناطة تحيط به
جسات وارفة الظلال من حدائق القصر ، ويشرف على هذه الآكام جبل
سيرانقادا والخلوح تتألق عليه تألق الفضة ولا تفارق قمه فى الصيف
ولا فى الشتاء فهو شيب مرمرى ، كما بد العينى شوقى :

جلج الثلج دونها رأس (شيرى)

فبدأ منه فى عصاب برس

مرصدى شبيهه ، ولم أر شيئا قبله يرجى البقاء وينس

وقبل أن يصل شوقى إلى الحمراء لا يد له من صعود ذلك الطريق
المتحرر المظلل بأغصان الشجر الكثيف ، وإذا كانت السنون الخمسون
يؤذيها مثل هذه الصعود مشيا ، فعلى الشاعر أن يتمهل فى السير ، وأن
يقف قليلا عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسه تلك البد
الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس ، إنما فيما يقال — رمز للعقيدة الإسلامية
بأركانها الخمسة .

قصر الحمراء :

ولا نحسب شوقى الآن بحاجة إلى الدليل ، فالشاعر العربى الآن
يطوف فى محراب قصر بنى أجداده ، ووضعوا فيه شيئا من روحهم ،
وملأوا جدرانهم بالآيات والأشعار العربية ، ومن البداة ألا يحتاج
الإنسان فى بيته إلى دليل .

طاف شوقى فى غرف الحمراء وحجراته الرحبة الواسعة وكأها أنه فى
الروعة والجمال ، زاهية بالنقوش ، الدقيقة ووقف طويلا فى قاعة الشعراء
وهى أجل غرف الحمراء وفيها ملوك بنى الأحمر يقابلون رسل ملوك
الأفريق وشعراءهم وتحوى جدرانها أبدع النقوش والخطوط ، وهى تطل
على حى البيازين من غرناطة من جهاتها الثلاث ، والجهة الواقعة تفضى إلى
قاعة البركة ومنها إلى مساحة الريحان ، تحيط به سعة من الأسود المرمرية
وتولين ظهورها ، والماء يتدفق من أفواهها عذبا صافيا فتألف شاعرية شوقى
هذه الصورة .

مرمر قامت الأسد عليه كلة الظفر لينات الحجر
تنثر الماء فى الحياض جمانا ترى على ترائب ملس

وعندما يصل شوقي إلى فندق (واشنطن ايرفنج) حيث يقيم مع أسرته في قلب الغابة المحيطة بالحرارة ، يقف ضويلا أمام الصورة الزيتية المعلقة في هو الفندق ، والتي تمش الملك العربي ابا عبد الله آخر ملوك غرناطة ، وهو يسلم في خضوع مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك وتثور في نفس شوقي العربي المسلم حسرات وآلام وهو يرى النهاية المحزنة لقصة المجد العربي في الاندلس ، فيحمل حملة عنيفة على ذلة ابن عبد الله الصغير واستسلامه .

ومفاتيحها تقاليد ملك باعها الوارث المضيع بينفس
رب بان لهادم وجموع لمشت ومحسن للحنس

ومن الروح الاندلسية عند شوقي قصيدته القرومية التي عارض فيها
ابن زيدون .

بين شوقي وابن زيدون

ابن زيدون هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبي^(١) ولد بقرطبة ونشأ بها ، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة ، وكانت قرطبة في ذلك الوقت تزخر بالعلم والأدب ، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب وحفظ كثيرا من الشعر والأخبار والسير والأمثال والحكم ومسائل اللغة ومباحثها ، وأخذ يعالج فنون الأدب حتى برع فيها ، فتم فضله ، وداع صيته ، وارتفعت مكانته .

واتصل بابن جمهور أحد ملوك الطوائف ، فاتخذته كاتباً ومشيراً ، ثم أخذ يترقى في دولة ابن جمهور حتى قلده منصب الوزارة واعتمد عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس فلقب بذي الوزارتين وصار يعمل على تحسين الصلات بينهم وبينه بذكائه ودهائه ، إلى أن دبت عقارب السعابه بينهما فنقم عليه ابن جمهور وسجنه ولجأ إلى المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤٨ هـ ، فاستخلصه لنفسه ، وعول في أموره عليه ، ثم وزر لابنه المعتضد وقضى في أشبيلية بقية عمره .

وقد ابتلى ابن زيدون وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد حلفاء بني أمية ، وكانت مشهورة بالجمال والأدب ، شاعرة سافرة ، تساجل الشعراء وتجادل العلماء ، وكانت دارها ناديا من أندية قرطبة ، ينشأها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة . ومن هؤلاء ابن زيدون وكانت فيه خفة روح دعابة وبراعة أدب ، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحلته وبادلته هي هذا الحب ، فأذكي هذا الفوز تار الحسد في قلوب منافسية

يراجع في هذا :

(١) الموازنة بين الشعراء : دكتور زكي مبارك ١٢

ومزاحميه فسعوا في أفساد ذات بينهما ، واشتهر فيهم الوزير ابن عبدوس
فتنزلت إلى ولاية في ساعه من ساعات ملها من ابن زيدون وظفر برضاها
ثم عاد الحب إلى بجراء الأول فرحبت به ، فكتب ابن زيدون إلى ابن
زيدون إلى ابن عبدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تفرعاً
وسخرية ، ضمنها كثيراً من الملمح في الأدب والتاريخ (١) .

وقصيدته الخاوية لمعانى حبه ، المسجلة لشقى آلامه ، الممثلة لآماله
في الحب وأحلامه التي هي في شعر الأندلس كله نحم يتألق ، وعم يخفق ،
فهي قوله يخاطب ولادة ومطالعها :

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقينا تباغينا

وهي أعظم قصائد ابن زيدون حظاً من الذبوع والشهرة وبعد الصيت ،
ولو لم يكن له سواها لا غنته بهذا الدوى الذي أحدثته في البيئات الأدبية ،
وتلك المدرسة التي خلقها من الشعراء الكثرين في كل عصر ، الذين أجبوا
بها وعارضوها قال الصفدي : « ومن ذلك قصيدته الغونية التي سارت
في البلاد وطارت في العباد ، وقد اشتهرت حتى صارت محدودة ، فيقال أنه
ما حفظها أحد إلا مات غريباً . . وعارضها الناس في حياته وبعد موته
ولم يقاربوها (٢) .

ومن الذين عارضوها أحمد شوقي وهو شاعر بينه وبين ابن زيدون
تشابه في التنقي والمجد والحب إلا أن الحب عند ابن زيدون حب ولادة
والحب عند شوقي هو حب مصر وكلاهما فجعة الحب فيمن أحب ، وكلاهما

(١) ابن زيدون : د. حسن جاد حسن .

(٢) أنظر شرحه لرسالة ابن زيدون ٤٠

يصور في قصيدته عن شعور صادق ، وألم دفين ، وكلاهما يصور فيها لوعة
البين ، وذل الحرمان ، ووحشة الغربة ، والحنين لمن أحب وذكري أيام
الأندلس والصفاء .

وسأبدأ بعرض النونية :

بدأها الشاعر بذكر الفراق والبين بعد طيب الوصل والتلاق ثم يصف
ما ألم به من هذا التجافي .

أضحى التفاني بديلاً من تدانينا
ونوب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبح الين صبحنا
حين فقام بنا للحين ناعينا

وأخذ يصف شوقه المشتعل ودموعه الحارة .

بتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
فكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علمنا الأمل لولانا ناسينا

ثم يمضي الشاعر ليؤكدها العهد ، ويقسم على الوفاء ، حيث يقول :
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إذ ظالمنا غير النأي المحيينا

وتعاود الذكرى وتملكه الصبوة فيفزع إلى البرق والنسيم ينشأ
شكواه ولوعته ، ويسألها ما شاء من السؤال :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به
من كارت صرف الهوى والود يسقيننا

ويا نسيم السبا بلغ تحيتنا
من لو على البعد حياً كان يحينا
وكانى بالشاعر يحاول أن يعزى نفسه ، بأن يستعرض أوصافها ، كما
يعزى الوله بصورة محبوبته .

ربيب ملك كان الله أنشأه
مسكا وقدر إنشاء الوردى طينا

وينتقل الشاعر بين هذه الذكريات ، ويؤكد لها الشاعر أنه يحافظ على
العهد حافظ لود ، وأن الراح لا يمكن أن تلميه عن ذكراك ، ولم ترحه
من هذه اللوعة ويتوسل إليها بالحفاظ على العهد :

أما هواك ، فلم تعدل بمنزلة شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجب أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قائلينا
ولا احتياراً تجنبناه عن كذب لكن عدتنا على كره عوادينا
لا أكوس الراح تملى من شمامتنا

سيمي أرتياح ولا الأوتار تلمينا

شوقى :

شاعرنا يحج إلى الأندلس وينزل ضيفا على ابن زيدون ويذكر ما نزل
به من بلاء ومحنة ونفى وتشريد ، فيصرح في هذا الأفق الذى طالما صدح
فيه ابن زيدون ، ويذكر قصيدته النونية ، فينظم على نهجها معارضا إياها
بنوئته يقول :

يا نائم الطلح أشبه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقصر علينا غمير أن بدا

قصت جناحك جالت فى حواشينا

و ينتقل شوقى من خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والخشين إلى مصر
فقال :

واها لنا نازحى إليك بأندلس وإن حللنا رفيقنا من روايتنا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلال يثنيها
وشوقى حريص على المعاني الشعرية ، فهو ينتقل فى الأندلس من حرم
إلى حرم وهو يصور حنينه إلى مصر :

لكن مصر وأن أعضت على معة
عين من الخلد بالكافور تسقيننا

ثم يصور زمان الصفو وليالى الأفس ، وعهد المسرة ، ويستطرد من
ذلك إلى لفخر بمصر والمصريين بعد أن يصف نيلها وأهرامها ورمالها
وكنوزها :

لو استطعنا لخصنا الجو صاعقه والبر نار وغى والبحر غسيلنا
يمكننا بعد عرض لقصيدتين استخرج الأبيات المتناظرة فى معانيها
أو تصويرها .

تكاد حين تتأججكم ضمائرنا يقضى علينا الأمل لولا تأسيننا
ولكن شوقياً يصون هو أحبابه عن هذه المتأججة ويغار منها فيفوق
صاحبه :

يا من تغار عليهم من ضمائرنا
من كان صرف الهوى والود يسقيننا
وهذا شعر جميل ، ولكن شوقياً يأخذ المعنى ويقبله على وجوه كثيرة ،
وينترع منه صوراً شتى .

وقال ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ نحيبتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا

عارضة شوقي :

ويا معطرة الوادي سرت مسحراً

فطاب كل طروح من مرامينا

أن ابن زيدون لم يزد على ترديد ما قاله مئات الشعراء ، بانسيم الصبا .

أما شوقي فأخذ يوش المعنى نوشية بارعة ويفتن فيه افتتاناً يدل على قوة الشاعرية وبراعة الخيال ، فوصف النسمة بأنها معطرة الوادي ، وأنها سارت في السحر فطاب بمسارها كل مرمى محيق ، وأنها زكية الذيل كأنها قميص يوسف وشكر لها النعي (١) فقال :

قلو جزيناك بالأرواح غالبية

عن طيب مسراك لم تنهض جوازيها

وابن زيدون تطوف بخلده ذكرى أيام الأفس فيقول :

حالت لفقدكم أياماً فذت سودا وكأنت بكم بيضا ليالينا

إذ جانب العيش طلق من تألنا ومرجع اللهو صاف من تصافينا

وإذ مصرنا فنون الوصل دامية وطوفه فجئنا منه ماشينا

ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

(١) الموازنة بين الشعراء ، زكي مبارك ٣٧٦ : دار المكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

عارضه شوقى فجمع بين الأسى والفخر فقال :

سقى لعمد كأكفاف الرباقة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غنفاء زاهية ترف أوقاتنا فيها رياحيننا
الوصل صافية والعيش فاغية والسعد حاشية والدمر ما شينا
والشمس تختال فى العقبان تحسبها
بنقيس ترقى فى وشى الممانينا

وحين تقف أمام هاتين القطعتين لتوازن بينهما ، لا نستطيع أن نحكم
أيهما أجود ، ذلك لأن ابن زيدون بلغ قمة الإبداع على قصر نفسه فى هذه
القطعة وبخاصة فى قوله :

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا
ويملكنا الإعجاب من قول شوقى :

سقى لعمد كأكفاف الرباقة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غنفاء زاهية ترف أوقاتنا فيها رياحيننا
ويشترك شوقى وابن زيدون فى التفجع ، يقول ابن زيدون :
ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها والكوتر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والدمر قد غص من أجفان واشينا

وعارضة شوقى :

ويابنى كأن الحشر آخره تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاة يخرج من فرافكمو
بكاد فى غلس الأسحار بطوينا

من الأشياء التي أمتاز بها شوقي :

حسن المطلع فهو أروع من مطلع ابن زيدون .

وكان شوقي أعلى نفسا من ابن زيدون .

وانفرد بتوليد المعاني والإفتتان في التصوير ، مع الفخر بمصر وبهذا

يكون شوقي قد استطاع أن يغزو ابن زيدون في وطنه .

ومع ذلك لا ننسى أن ابن زيدون فتح الباب لشوقي وله فضيلة

السبق .

المصادر

الشوقيات

للمراجع :

- ١ — شوقي شاعر العصر الحديث ، د. شوقي ضيف .
- ٢ — في الأدب الحديث أول و ثان ، الأستاذ : عمر الدسوقي .
- ٣ — حياة شوقي ، الأستاذ : أحمد محفوظ .
- ٤ — أحمد شوقي شاعر الوطنية ، الأستاذ : أحمد زكي عبد الحليم .
- ٥ — وطنية شوقي ، د. أحمد الحوفي .
- ٦ — شعراء الوطنية ، الأستاذ : عبد الرحمن الرافعي .
- ٧ — أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ، الأستاذ : أحمد تيمور .
- ٨ — أبي شوقي ، الأستاذ : حسين شوقي .
- ٩ — حافظ وشوقي ، د. طه حسين .
- ١٠ — شعراء مصر وبيئاتهم ، الأستاذ : عباس العقاد .
- ١١ — الدين والأخلاق في شعر شوقي ، الأستاذ : علي النجدي ناصف .
- ١٢ — أفندييات ، د. صالح الأشر .
- ١٣ — أسانينا كما رآها السياح المسلمون .
- ١٤ — فصول في النقد ، الأستاذ : عباس العقاد .
- ١٥ — الديوان ، الأستاذ : عباس العقاد .
- ١٦ — نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ، الأستاذ : عز الدين الأمين .
- ١٧ — الشعر المعاصر على ضوء للنقد الأدبي الحديث
الأستاذ : مصطفى عبد اللطيف السحرتي .
- ١٨ — ابن زيدون ، د. حسن جاد حسن .

- ١٩ — الموازنة بين الشعراء ، د. زكي مبارك .
 - ٢٠ — آراء واتجاهات في النقد ، د. محمد ناييل أحمد .
 - ٢١ — فن الشعر ، د. محمد مندور .
 - ٢٢ — نظرات في أدبنا المعاصر ، د. زكي المحاسني .
 - ٢٣ — المسرح ، د. محمد مندور .
 - ٢٤ — مسرحيات شوقي ، د. محمد مندور .
 - ٢٥ — رساله في الأدب الحديث خطبة ، د. عفيفي عبد الفتاح .
- بمكتبة كلية اللغة العربية ١١٥
- ٢٦ — مجلة : المجلة عدد ديسمبر سنة ١٩٦٨
 - ٢٧ — الهلال عدد خاص عن شوقي .

أُسلوب الصدق في القرآن الكريم
بين أسحوا القديم والحديث
" استقصاء وتحليل "

بقلم

الدكتور علي أحمد محمد زكريا

المدرس بقسم اللغويات بالكلية

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا وإمامنا محمد ابن
سيد الله وعلى صحابته ومن والاه وبعد :

فإن أحكام العدد من الأمور التي يقع فيها الخطأ كثيرا ، لأنها قد تغيب
عن أذهان كثير من الناس ، فأردت أن أقدم كل ما يتصل بهذا الموضوع
من أحكام في لغة العرب مستقصيا ذلك في أساليب القرآن الكريم ، حتى
يكتسب البحث ثقة وطلاوة ونفصا من ثقة وطلاوة ونفع القرآن الكريم ،
ولن أطيل عليك أيها القارئ العزيز ، وإنما أدع بين يديك بحثي للحكم
له أو عليه ، وعلى كل فهو جهد المقل الذي يعشق الفصحى ، ويساهم بكل
ما يملك في إظهار دورها للناس في عصر أصبحت فيه غريبة بين أهلها ،
قصدًا وجهه الله في وضع لينات تساعد على فهم كتاب الله ، فاللهم شد
الأزر ، وسدد الخطأ ، إنك سميع مجيب ، وبالإجابة جدير ،

تمهيد

بين العدد والحساب

قال ابن سيده في المخصص (١) : قال صاحب العين : العدد : مقدار ما يعد ، والجمع أعداد ، والعد : إحصاء الشيء . وتقول : عدته عدا ، وتعداداً ، وعدته ، والمضارع أعهه ... ،

[ثم قبل :] والحساب عدل الأشياء ، من حسبت الشيء أحسبه حساباً وحساباً وحسابه وحسيه ، وحسابك على الله - أي = حسابك عليه . قال تعالى : (وتعلموا عدد السنين والحساب) (٢) وقوله عز وجل (يرزق من يشاء بغير حساب) (٣) اختلف في تفسيره ، فقال بعضهم : بغير تقدير على أحد بالنقصات وقال بعضهم : بغير محاسبة ما يخاف أحداً أن يحاسبه عليه ... ،

وقال الرضى في شرح الكافية (٤) : العدد ما وضع لكمية الشيء ، ويقصد بذلك كمية المعداد .

وقال صاحب التوضيح (٥) : العدد : ما ساوى نصف مجموع حاشيتيه

(١) انظر المخصص ٩٦/١٧ .

(٢) الإسراء : ١٢

(٣) آل عمران : ٣٧

(٤) ١٤٥/٢

(٥) ٢٦٩/٢

المتقابلتين ، والمقصود بالخاشيتين المتقابلتين ، ما قيل العدد مباشرة ، وما بعده أيضا من الأعداد .

فمثلا العدد خمسون حسابيا يكون هذا : $49 + 51 = 100$ ونصفها يكون العدد (٥٠) وهكذا .

إلا إنه يلاحظ أننا حينما نتحدث بالعدد وننطق به يكون الهدف من ورائه ذلك أحد المعاني الآتية :

أولا : أننا أحيانا ننطق به ونريد منه مقدار المعدود ، وهذا ما يسمى بالعدد الأصلي ، أو العدد الصريح ، وهو الذي يبين كمية المعدود مكتوبة بالرقم الحسابي أو بالحروف العربية ، وعلى كل فعند النطق بهذه الأرقام لا بد من نطقها بالنصحى من اليمين إلى اليسار ، وهو الموافق لطبيعة لغة العرب وكتابتهم ، حيث تقرأ وتكتب من اليمين إلى اليسار كما يصح أيضا أن تنطق من اليسار إلى اليمين ، حيث أحيى ذلك يحسن أيضا ، إلا إنه يلاحظ أن التمييز فيما له تمييز يكون لآخر عدد منطوق في الحالين .

والقواعد الضابطة لذلك النطق — من صحة التراكيب للأعداد وتعريفها أو تنكيرها هي ما تريد إظهارها وتوضيحها فيما سيأتى من أحكام حتى يستبين أمرها — وذلك من الأهمية بمكان أدركها المتفهمون حتى قال الفيلسوف المشهور في صبيح الأعشى : « وما يجب أن ينتفع به الكتاب النسب لكثرة استعماله في الألقاب ومحوها ، وكذلك لعدد ، فإنه مما يقع فيه اللبس على المبتدئ »

ثانيا : أننا أحيانا أخرى ننطق بالعدد وتحدث به قاصدين بيان مقدار المعدود مع بيان ترتيبه في المعدودات — وهذا يقال له العدد الترتيبي نحو : ثان وثالث ورابع ، أو الثاني والثالث والرابع وهكذا

وسياتى تفصيل أحكامه إن شاء الله فى المكان المخصص لها من هذا البحث .

ثالثا : أننا فى أحيان ثالثة نلتحق بالعدد ونحدث به لا نقصد منه كمية المحدود ، ولا بيان ترتيبه ، وإنما قصد التقريب بضرب الأمثلة ، أو المبالغة والكثرة لأننا لا نقصد معدود الأعداد التى نطقنا بها ، ولكن نقصد بها ما انضم تحتها من أجناس وأصناف وأواع وصفات وخصال ، ولكى أقرب ذلك وأوضحه سأضرب لذلك الأمثال الشارحة والكاشفة لما أريد أن أقوله .

فمثلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلمهم الله فى ظلّه ... الخ الحديث »

وقوله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات ... الخ » .
وقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ... الخ الحديث » .

فالأعداد هنا لا يقصد بها كمية المحدود بأحاده وأفراده المحدودة فى الواقع الخارجى حتى يكون من النوع الأول ، ولا يقصد بها بيان ترتيبها لأنه ليس على صيغتها ، إذن فهذا نوع جديد ، وطريقة ثالثة من طرق استخدام الأعداد — ليكون المراد منها التقريب بضرب الأمثال — أو يقصد بتلك الأعداد ما انضم تحتها من أنواع وأجناس وصفات — ومن هنا قيل إن الإخبار بعدد مقصود به ذلك لا يتنافى ذكر غيره بعد ذلك إذا لم يكن هناك قرينة ملزمة بذلك — وهذا معنى قولهم أيضا : إن العدد لا مفهوم له عند شرح تلك الأحاديث وبناء عليه ، فلا تنافى إطلاقا أن نجد فى أحاديث أخرى أقل أو أكثر من هذا العدد — فمثلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أية المنافق ثلاث ... الخ الحديث » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً إلخ الحديث » .

لا تعارض بينهما ، لأن الفرض هنا ليس المعداد بآحاده ولا ترتيبه ،
ولكن المقصود أربع خصال أو صفات أو أنواع منها وأجناس ، وهذه
الخصال والصفات وأنواعها وأجناسها قد تكثر وقد تقل وما ذكر منها
فهو على سبيل المثال والتقريب والتشيل لا على سبيل التحديد والحصر .

وقيل منهم قوله عز وجل : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا
ماتتين (١)) لانه ليس المقصود هنا — والله أعلم بمقصوده — بيان كمية
الآحاد والافراد ، ولكنه تقريب بضرب مثال أو بيان لأنواع وأصناف
وأجناس فنصم تحت هذا العدد ، ولذا لم يذكر معداد ، لتذهب الغش فيه
كل مذهب ، وتهممه بالتقريب والاحتمال ، ويعجبي ما قاله الإمام
أبو السعود (٢) حيث قال بعد تلك الآية الشريفة : « هذا وعد كريم من
الله تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم ثم خفف ذلك إلى
الضعف و قوله تعالى : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن
يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين
يائن الله والله مع الصابرين) (٣) »

ويمكن أن نقول ذلك في قوله تعالى : (عليها تسعة عشر) (٤) أى
تسعة عشر صنفاً من الملائكة وبه قال المفسرون والآية تحتل ذلك

(١) الأنفال ٦٥

(٢) ٢٤٧/٢

(٣) الأنفال ٦٦

(٤) المدثر ٣٠

حسب ما قدمنا بدليل قوله تعالى بعد ذلك : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) (١) .

ومادامت الآية تحتمله فلا مانع من إدارة الحقيقة لأن الله قادر على كل شيء ، ويحتمل أن تكون على سبيل التقريب والتشيل والتعدي وبذلك يعلم عدم صحة ما قيل حول هذا العدد (تسعة عشر) من خرافات وترهات قائلها البهائيون ومن هذا حذوهم لأن اللغة لا تعطى مفهوماً ولم يعمد عن العرب ذلك ، وإذا كان ما قالوه عن هذا ، ضرب من التخريف والتخمين لا من باب العلم (٢) .

رابعاً : أفنا أحياناً ننطق بالأعداد منسوبة أو معدولة عن جملتها أو مضافة ، وأحياناً قد يشتق منها أفعال ، أو يؤثر فيها بالكسور والأباض ، كما أنه يضالنا من كلام لعرب ألفاظ دالة على العدد من غير أن ننطق بأى عدد مثل : إستمارة (٣) ونواة (٤) ، والأوقية ، والفرق ، والبضغ ، والشيع ، والشفع والوتر .

كما أن هناك مبهمات دالة على العدد المبهم أى كمية معدود غير محدودة مثل : كم الخبزية وكم الاستفهامية ونحوها مثل : كيت وذيت ، وكأين ، وكذا .

(١) المدثر ٣١

(٢) انظر تفسير الآية في ظلال القرآن ص ٣٧٥٧ وما بعدها ، وانظر شرح التوضيح ٢/٢٦٩ ، والنحو الوافي لعباس حسن ٤/١٧٥

(٣) كلمة فارسية بمعنى أربعة وهى معرب جهار أنظر المعرب للجوالقى ص ٩٠

(٤) النواة : ما زنته خمسة دراهم .

وبإذن الله وتوفيقه سأحاول قدر استطاعتي أن أميط اللثام عن كل ذلك
جاعلاً كل نوع في باب مستقل شارحاً أحواله في فصول تحت ذلك الباب
مستقصياً كل نوع في أساليب القرآن الكريم إن كانت فيه ، منها على
الموجود منها فيه ، وغير الموجود ، فأرجو من الله التوفيق والسداد إنه
على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

العدد الأصلي

تمهيد في بيان أنواع العدد الأصلي .

العدد الأصلي ويسمى أيضاً بالعدد الصريح - وهو العدد الذي فنطقه ونريد منه مقدار المعداد الحقيقي في الواقع الخارجي .

وهذا القسم من الأعداد له خمسة أنواع :

أولها : - العدد المفرد - أي اللفظ الدال على العدد ومكون من لفظ واحد فقط وإن كان مدلوله قد يكون أكثر من واحد فتعني بالإفراد أنه مكون من كلمة واحدة وهذا من الواحد إلى العشرة من الأعداد ، ويتبعها مائة ، وألف ، ومليون ، ومليار .

ثانيها : العدد المركب من كلمتين مرتبطتين ببعضهما وارتبطتا ببعضهما أيضاً ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يفهم العدد والمعداد إلا من الكلمتين معاً ، وهو العدد : من أحد عشر إلى تسعة عشر .

ثالثها : العدد المركب من كلمتين مرتبطتين ببعضهما عن طريق العطف بحيث لا يفهم العدد والمعداد إلا من الكلمتين معاً أيضاً وهي الأعداد الواقعة أيضاً ما بين العقود وما بعد المائة والألف وغيرهما حيث تكون من الآحاد معطوفاً عليها العقد أو غيره مثل : واحد وعشرون ، وأربع وثلاثون وسبع وأربعون ، وثمان وخمسون ، وتسع وستون ، وتسع وتسعون ، ومائة وثلاثة وهكذا .

رابعها : العقود ، ويقصد بها : الأعداد (١) : عشرون ، وثلاثون

(١) التي تعرب إعراب جمع المذكر السالم من العقود وإلا فالعشرة عقد إلا أنها لا تعرب هذا الإعراب .

وأربعون ، وخمسون ، وستون ، وسبعون ، وثمانون ، وتسعون — وكل هذه الأعداد تسمى أعداداً صحيحة .

أما كسور الأعداد وأبعاضها فسيكون ذلّا موضع آخر بين فيه حكمها .

خامسها : الأعداد المعدولة عز العدد الأصلي ليقصد بها الكيفية والصفة المأخوذة من العدد مثل : جاء القوم مئتي وثلاث وربع أى جاءوا على هيئات ثلاثة وثنائية وثلاثية وربعية فالكيفية والصفة أخذت من العدد نفسه بغض النظر عن عدد القوم لأن الفرض لم يتعلق به . ونحن الآن مع الأعداد الصريحة والصحيحة بالإنراع التى تقدمت وسأجعل كل نوع من فصل مستقل إن شاء الله تعالى .

أولاً : (العدد : واحد معناه واستعمالاته)

الواحد : أول العدد ، وكذلك الواحد ، والأحد .

والواحد : اسم فاعل بمعنى المنفرد أى العدد المنفرد واسم المفعول : موحود ، وموحد ، والصفة المشبهة واحِدٌ وواحِدٌ ، ووحيد ، وقد ورد لفظ (وحيد) في القرآن في آية واحدة هي قوله عز وجل : (ذرني ومن خلقت وحيداً) (١) .

والفعل منه : وحّد يحّد وحداً بمعنى انفرد . ووحادة ، ووحودة ، ووحوداً ووحدة ، ووحدة (٢) .

وإذا تتبعنا لفظة (واحد) في اللغة تذكر كثيراً وتأتي أيضاً فستجد المذكور واحد ، وأحد ووحيد . وللمؤنث واحدة وإحدى .

ويبقى أن تعلم أن واحداً مؤنثه واحدة ، وأحد مؤنثه إحدى ، وأما (واحد) فهو أصل (أحد) قلبت الواو ألفاً ، وإن كان إبدال المفتوحة همزة ليس بمطرد ، ومنه : امرأة أناة في وفاة (٣) .

ولعلك تتساءل ما السر في كون المؤنث لواحد واحدة ولأحد إحدى ؟

أقول لك : إن الغالب في واحد وواحدة أن يستعمل في الصفات

(١) الآية ١١ من سورة المذثر .

(٢) انظر المخصص ٩٦/١٧ ، وانظر شرح الكافية للرخي ١٤٦/٢ ، والصبان على الأسماء ١٧٢/٢ ، والقاموس المحيط مادة (واحد) .

(٣) انظر سيويه ٣٣١/٤ ، ٣٣٢ حيث قال : وليس ذلك بمطرد في المفتوحة ، وانظر العكبري في سورة الإخلاص .

لا في الأسماء ، والغالب في أحد وإحدى أن يستعمل استعمال الأسماء
لا الصفات ، ولأجل ذلك جعلوا المؤنث لواحد واحدة ولأحد إحدى
فرقا بين الاسم والصفة .

استخدامات واحد وواحدة لغة وقرأنا

— علمت مما سبق أن الغالب في واحد وواحدة أن يستخدم استعمال
الصفات ، وفي هذه الحالة يجريان في التذكير والتأنيث على الموافقة
لما قبلهما شأن الصفة والموصوف . فتقول : رجل واحد وامرأة واحدة
— ولذا يعربان صفة المتقدم ويتبعانه في الإعراب والنوع والعدد .

— ويصح في (واحد) الجمع مذكراً على واحدین ومكسراً على
وحدان وأحدان والهمزة فيه بدل من الواو (١) . وعلى ذلك قول الشاعرة :

وقد رجعوا كحى وأحدينا

بمعنى منفردين ،

وقول الآخر :

يحمى الصريحة أحدان الرجال له

صيد ومجترىء بالليل همام (٢)

(١) انظر ابن يعيش ٣٢/٦ ، والقاموس المحيط مادتي أحد ، وحد .
وانظر شرح الرضى على الفكاية ١٤٦/٢

(٢) البيت الأول من الوافر وقائله السكيت بن زيد وصدرة :

نضم قواصي الأحياء منهم فقد رجعوا كحى وأحدينا

وهو من شواهد المخصص ٩٧/١٧ وجاء به شاهداً في قوله :
وهو من شواهد المخصص ٩٧/١٧ وجاء به شاهداً في قوله :

— وقد يستخدمان (واحد وواحدة) استخدام الأسماء ، كقولهم :
واحد ، أثنان ، واحدة أثنان ، فمما هنا اسمان لا وصفان كما أن سائر أسماء
العدد كذلك ، ولذا لا يحرى شيء منها على موصوف على حد جرى الصفة
عليه ، وفي هذه الحالة لا يثنى العدوان واحد وواحدة — ولا يجمعان ،
لأنهم استغنوا عن ذلك يقولهم : أثنان وثلاثة (١) .

— وقد يضاهى العدد (واحد) إلى ما بعده لا لإزالة الإبهام ، وإنما
للانحصار والإستحقاق كقول الشاعر :

= واحدنا حيث جمع واحد عليه لأنه وقع صفة للمعدود في المعنى لأنه
حال والحال وصف لصاحبه والمعنى : رجعوا كحى منفردين .

والبيت من شواهد اللسان مادة (واحد) وفي ديوان الشاعر : ١٢٢/٢ ط
١٩٦٩ م .

والبيت الثاني من البسيط وقائله مالك بن خويلد ، وهو في ديوان
الهداين ٣/٣ وفي المخصص ٩٧/١٧ وجاء شاهداً على أن (أحدان جمع واحد
تكسيراً حيث أريد به الصفة ، لأن المعنى : أما النهار فالرجال الوحيدون له :
صيد ، وبحري ، وهماس ، وجمع على فعلا لأن الصفة استخدمت
استخدام الأسماء مبالغة في ثبوتها لمستحقها والبيت من شواهد اللسان مادة
(واحد) وابن يعيش ٣٢/٦ والبيت رواية أخرى :

يحمي الصريمة أحداث الرجال له — صيد ومستمع بالليل هماس
وأنظره في المخصص في ٩٦/١٧

(٢) أنظر الخصائص لابن جني ٧٨/٢ ، ٢٦٢/٣ ، والمخصص لابن سيده

إنما رجل الدنيا وواحدهما
من لا يعول في الدنيا على أحد

وتقول العرب . واحد دهره ، أى : لا نظير له (١) .

— وواحد ، وواحدة . قد يستخدمان في التنيف تركيباً وعطفاً
لكن قليلاً ، فيقول : واحد عشر ، وواحدة عشرة ، وواحد وعشرون
وواحد وعشرون . والآخر في التركيب : أحد عشر وإحدى
عشرة باستخدام أحد وإحدى مكافئ واحد وواحدة والأكثر أيضاً
في العطف : واحد وعشرون على الأصل ، وإحدى وعشرون على
المبادلة (٢) .

— ولهظة (واحد) وردت في القرآن ثلاثين مرة ، مرة واحدة في سبع
عشرة آية ، ومنصوبة في خمس آيات ، ومجرورة في ثمانى آيات وإليك بيان
ذلك بالإستقصاء والتفصيل :

م	الآية	رقم السورة
١	(وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم	البقرة ١٦٣
٢	(إنما إله واحد	النساء ١٧١
٣	(وما من إله إلا إله واحد	المائدة ٧٣
٤	(قل إنما هو إله واحد وإلنى يرى . ما تشركون	الأنعام ١٩
٥	(أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار	يوسف ٣٩
٦	(قل الله خالق كل شىء هو الواحد القهار	الرعد ١٦
٧	(وليعلموا إنما هو إله واحد	إبراهيم ٥٢

(١) أنظر مختار الصحاح مادة (واحد) .

(٢) أنظر الرضى على الكافية ١٤٦/٢ وابن يعش ٣١/٦ ، ٣٢ بتصرف .

٢	الآية	رقمها	السورة
٨	(إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة)	٢٢	النحل
٩	(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد)	٥١	النحل
١٠	(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد)	١١٠	الكهف
١١	(قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون)	١٠٨	الأنبياء
١٢	(فيإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين)	٣٤	الحج
١٣	(وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)	٤٦	العنكبوت
١٤	(إن إلهكم لواحد — رب السموات والأرض)	٤	الصافات
١٥	(وما من إله إلا الله الواحد القهار)	٦٥	ص
١٦	(سبحانه هو الله الواحد القهار)	٤	الزمر
١٧	(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين)	٦	فصلت

وبلاحظ أن لفظة (واحد) وقعت صفة في كل الآيات ما عدا آيتي العنكبوت والصافات فهي خبر فيهما ، وإن كان الخبر وصفاً للمبتدأ في المعنى كما قرره علماء النحو .

— (واحد) بالجر في ثمانى آيات هي بالإستقصاء كما يلي :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد	٦١	البقرة
٢	(ولأبويه لسكر واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد —	١١	النساء
٣	(وله أخ أو أخت فليس كل واحد منهما السدس	١٢	النساء
٤	(لا تدخلوا من باب واحد ، وأدخلوا من أبواب متفرقة	٦٧	يوسف
٥	(يسقى بماء واحد ، وتفضل بعضها على بعض في الأكل	٤	الرعد
٦	(ويرزوا لله الواحد القهار	١٦	الرعد
٧	(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة	٢	النور
٨	(لمن الملك اليوم لله الواحد القهار	١٦	غافر

ويلاحظ أن لفظة (واحد) صفة لما قبلها في كل الآيات المتقدمة ماعدا المسبوقة بـ (كل) فإنها اسم مضاف إليه ، وليست صفة قتنية لذلك .

— أما لفظة (واحدة) بالنصب وردت في خمس آيات هي بالتحديد والإستقصاء في الآيات التالية :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل إلهنا واحدا)	١٢٣	البقرة
٢	(وما أمروا إلا ليعبدوا إلهنا واحدا)	٣١	التوبة
٣	(لاتدعوا اليوم بشورا واحدا ، وادعوا بشورا كثيرا)	١٤	الفرقان
٤	(أجعل الآلهة إلهنا واحدا ، إن هذا لشيء عجاب)	٥	ص
٥	(فقلوا أيشر أمنا واحدا ننبهه إذا لفي ضلال وسعر)	٢٤	القمر

— ويلاحظ أنها صفة في كل الآيات السابقة .

— أما لفظه (واحدة) فإنها وردت في القرآن إحدى وثلاثين مرة، مرفوعة وخمس آيات، ومجرورة في سبع آيات، ومنصوبة في تسع عشرة آية وإليك ذلك مفصلا ومستقصى في أساليب القرآن الكريم، (فواحدة) بالرفع وردت في الآيات التالية :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون)	١٩	الصافات
٢	(إن هذا أخى له تسمع وتسعون نعيمة واحدة)	٢٣	ص
٣	(وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر)	٥٠	القمر
(١٧ — مجلة دمنهور ع ٣٤)			

٢	الآية	رقمها	السورة
٤	(فإذا تفتح في الصور تفتح واحدة	١٣	الحاقة
٥	(فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة	١٣	النازعات

وملاحظ أنها في الآيات الخمس السابقة صفة لما قبلها ماعدا أية القمر فإنها صفة لمخوف .

والأمر في الآية بمعنى الشأن — والمعنى : وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كالمح البصر في السرعة نقول الشيء كن فيكون (١) .

قال ابن كثير في المختصر : وهذا إخبار من الله عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : وما أمرنا إلا واحدة أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية فيكون ذلك موجوداً كالمح البصر لا يتأخر طريقة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً فإنيما

يقول له : كن قوله فيكون (٢)

— واحدة — بالنصب وردت في الآيات الآتية وعددها تسع عشرة آية وإليك ذلك بالتفصيل :

(١) أنظر صفوة التفاسير ص ١٤٥٤

(٢) ومنه يفهم أن الأمر هنا بمعنى المشيئة أو الإرادة أنظر مختصر ابن كثير المجلد الثاني ٤١٤

(٢)	الآية	رقمها	السورة
(١)	كان الناس أمة واحدة	٢١٣	البقرة
(٢)	فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة — أى فتزوجوا واحدة	٣	النساء
(٣)	وإن كانت واحدة فلها النصف	١١	النساء
(٤)	ود الذين كفروا لو تفعلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة	١٠٢	النساء
(٥)	ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيها آياتكم	٤٨	المائدة
(٦)	وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا	١٩	يونس
(٧)	ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين	١٨	هود
(٨)	ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولنسألن عما كنتم تعملون	٩٣	النحل
(٩)	إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون	٩٢	الأنبياء
(١٠)	وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون	٥٢	المؤمنون
(١١)	وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جلة واحدة	٣٢	الفرقان
(١٢)	إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون .	٢٩	يس

م	الآية	رقمها السورة
١٣	(ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون: ٤٩ يس	
١٤	(إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع الدنيا محضرون	٥٣ يس
١٥	(وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ١٥ ص	
١٦	(ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة .	٨ الشورى
١٧	(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن	
	ليوتهم سففا من فضة ومعارج عليها يظهرون ٣٣ الزخرف	
١٨	(لما أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ٣١ القمر	
١٩	(وحملت الأرض والجال فدكت واحدة ١٤ الحاقة	

وبلاحظ أن لفظة (واحدة) وقعت صفة مخصصة — ومؤكدة لما قبلها في جميع الآيات السابقة ماعدا الآية الثالثة من سورة النساء فهي مفعول لفعل محذوف كما قدرت .

أما (واحدة) بالجر فقد وردت في سبع آيات وإليك ذلك .

م	الآية	رقمها السورة
١	(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ١ النساء	
٢	(وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع ٩٨ الأنعام	
٣	(هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها	
	زوجها ليسكن إليها ١٨٩ الأعراف	

(٢)	الآية	رقها	السورة
٤ ()	وأعتدت لهن متكئا وآنت كل واحدة منهن سكيئا .	٣١	يوسف
٥ ()	ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير .	٢٨	لقمان
٦ ()	قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ٤٦	٤٦	سبا
٧ ()	خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام مما فيه أزواج .	٦	الزمر

ويلاحظ أنها صفة لحرور في الجميع ما عدا آيتي يوسف وسبا فهما اسمان بحروران الأولى بالإضافة والثانية بحرف الجر ويمكن أن يكون حرف الجر في الثانية داخلا على موصوف محذوف تقديره : قل إنما أعظيكم بموعظة واحدة — وعالية فتكون صفة لاسما .

ومن كل ما تقدم من الآيات في الرفع أو الجر أو النصب يتأكد لنا من القرآن الكريم الذي هو في أعلى المراتب صحة من ناحية التراكيب اللغوية والنحوية وأعلامها فصاحة وبلاغة وبيانا — أن لفظي واحد وواحدة أكثر استخداما في الصفات ، وقد يستخدمان استخدام الأسماء ، وفرق بين الصفة والأسم حيث يجوز في الصفة التبعية لما قبلها لإعرابا ونوعا وكما . أما الأسم فليص بواجب فيه ذلك .

— هذا وقد جاء لفظ (واحد) معدولا على ثلاث صيغ هي :

١ — مفعل بفتح الأول والثالث — جاءوا موحدا موحدا .

٢ — فعال بضم الأول وفتح الثاني — جاءوا احادا أحادا .

٣ — فَمَالِ بِكَسْرِ الْأَوَّلِ وَفَتْحِ الثَّانِي — جَاءُوا وَحَادَ وَحَادَ .

أى فرادى — غَيْرَ أَنْ الْإِسْتِعْمَالَ الْقُرْآنِيَّ جَاءَ عَلَى فِرَادَى فَحَسِبَ وَقَدْ
وَرَدَتْ كَلِمَةُ فِرَاوِي مَرَّتَيْنِ : مَرَّةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَاوِي
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الْإِنْعَامُ ٩٤

وَمَرَّةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ
وَفِرَادَى) الْآيَةُ ٤٦ مِنْ سُورَةِ سَبَأٍ .

استخدامات أحد و واحد وإحدى لغة وقرأنا

قد علمت مما سبق أن الألفاظ — أحد ، و واحد ، وإحدى — تستعمل أسماء في الأعداد ، ولا تستعمل صفات ، وسأتناول كل لفظة على حدة من ناحية إستعمالها في اللغة والقرآن الكريم .

أولاً : لفظة (أحد)

هذه الكلمة لها استخدامات في اللغة :

١ — الكثير والغالب فيها أنها تستخدم لإقادة العموم ، وفي هذه الحالة لا تقع إلا بعد النفي أو الاستفهام ، أو شبه النفي وهو : النفي (١) .

أما إذا وضعته موضع (واحد) في العدد أي المستخدم إستخدام الأسماء لا الصفات جز أن يستخدم في موضع الواجب والمثني نحو : واحد وعشرون وأحد وعشرون ، قال تعالى : (قل هو الله أحد) (٢) .

(١) تقول : لا أحد ، هل من أحد ، ما جاءني من أحد ، أنظر سيبويه ٥٤١١ ط هارون ، وأنظر الرضي على الكافية ١٤٦/٢ ، وابن يعيش ٣١/٦ ، ٣٢ . وأنظر مختار الصحاح مادة (واحد)

(٢) الآية (١) من سورة الإخلاص . وأنظر إعراب (أحد) في العكبري في سورة الإخلاص ٢٩٧/٢ ص الحلبي ١٩٦٩ م

وإعرابها ملخصاً كالآتي :

هو : ضمير شأن مبتدأ . (الله أحد) جملة في محل رفع خبر عن ضمير الشأن ، والمعنى : الشأن والحال والواقع (الله أحد) =

— والهمزة في (أحد) المراد بها العموم أصلية ، وفي المستحسنة في موضع واحد بدل من الواو . وقيل أصل فيهما .

٢ — وقد تضاف كلمة (أحد) إلى ضمير المتكلمين (أحدنا) وإلى ضمير المثنى غائباً ، أو مخاطباً (أحدهما) (أحدكما) ، وإلى ضمير الجمع الغائب أو المخاطب : (أحدهم) (أحكم) ، وقد يضاف إلى ظاهر مثنى أحد الرجلين ، أحد الفريقين .

٣ — وقد تركب مع العشرة فنقول : أحد عشر ، وقد وردت بهذا التركيب في القرآن في آية واحدة هي قوله تعالى : (إني رأيت أحد عشر كوكباً) الآية (٤) من سورة يوسف .

٤ — وقد يعطف عليها العقد أو غيره : أحده وعشرون ، إحدى وثلاثون والأحسن أن يبدل هنا (واحد) مكان أحد تخفيفاً ونقول : واحد وعشرون ، واحد وثلاثون إلى واحد وأسمين .

== وقيل : هو بمعنى : ربى الذى تسألون عنه ، لأنهم قالوا لرسول الله ﷺ : أربك من نحاس أم ذهب ؟ فجاء الجواب :

هو : أى ربى الذى تسألون عنه (الله) . وعلى ذلك فـ (هو) مبتدأ و(الله) خبر عنه بمعنى : ربى الله : وأحد تكون على ذلك بدلاً من لفظ الجلالة ، أو خيراً لمبتدأ محذوف تقديره : هو أحد بمعنى : منفرد .

ويصح أن يكون لفظة الجلالة بدلاً من الضمير ، و(أحد) هو الخبر عن الضمير الواقع مبتدأ

وعلى كل فـ كلمة (أحد) هنا بمعنى واحد الواقع اسماً لا صفة

• ولفظة (أحد) بالتذكير وردت في القرآن الكريم في أربع وتسعين آية على ثلاثة أنواع :

(أ) مضافة في إحدى وعشرين آية .

(ب) وغير مضافة في ثنتين وخمسين آية .

(ج) ومركبة في آية واحدة ، وقد تقدمت .

النوع الأول : (المضافة) ورد على نوعين نوع مع الجمع ، ونوع مع المثنى ، (١) والذي مع الجمع ثلاثة أنواع متكلمين ، ومخاطبين ، وغائبين فالإضافة إلى المتكلمين وردت في آية واحدة هي قوله تعالى : قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدهما مكافا إننا نراك من المحسنين (٢) ، والإضافة إلى المخاطبين وردت في سبع آيات هي :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا ،	١٨٠	البقرة
	الوصية		
٢	(أيود أحدكم أن تمسكون له جنة من تخيل وأعصاب	٢٦٦	البقرة
٣	(يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم		
	الموت	١٠٦	المائدة

(١) وردت مضافة إلى الجمع في خمس عشرة آية ، ومضافة إلى المثنى في ست آيات كما فصلت في الشرح

(٢) الآية ٧٨ من سورة يوسف ، ولفظ (أحد) فيها منصوب ، لأنه وقع مفعولا به للفعل الذي قبله ، والإضافة فيه على معنى (من)

م	الآية	رقمها	السورة
٤	(حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون	٦١	الأنعام
٥	(فابعدوا أحدهم بوزنكم هذه إلى المدينة	١٩	الحكمف
٦	(يحب أحدهم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه	١٢	الحجرات
٧	(وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدهم الموت	١٠	المنافقون

ويلاحظ أن لفظة (أحد) وقعت موقع الاسم حيث وقعت فعلا ومفعولا . ومبتدأ ، وبجرورة بالحرف أو بالإضافة في الآيات المتقدمة والتالية بعد ذلك أيضا .

ولا يقع هذه المواقع إلا الأسماء لا الصفات
والإضافة إلى الغائبين وردت أيضا في سبع آيات هي :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة	٩٦	البقرة
٢	(فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به	٩١	آل عمران
٣	(حتى إذا حضر أحدهم الموت قال أنى ثبت الآن	١٨	النساء
٤	(حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون	٩٩	المؤمنون
٥	(وإذا بشر أحدهم بالأتى ظل وجهه مسوداً	٥٨	النحل
٦	(فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين	٦	النور
٧	(وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم	١٧	الزخرف

أما الإضافة إلى المثنى فهي على نوعين : للمخاطب والغائب (١).
 وإضافته إلى المخاطب وردت في آية واحدة هي قوله تعالى : (يا صاحبي
 السجن أما أحكما فما تيسقي ربه خمرًا) (٢).
 والإضافة إلى الغائب وردت في خمس آيات في القرآن الكريم هي :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما)	٣٧	المائدة
٢	(ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خمرًا)	٣٦	يوسف
٣	(وضرب الله مثلا رجلين أحدهما لا يقدر على شيء)	٧٦	النحل
٤	(إما يبلغ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف)	٢٣	الأنعام
٥	(وإضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعقاب)	٣٢	الكهف

أما غير المضافة وقد علمت أنها وردت في القرآن الكريم في ثنتين
 وخمسين آية على ثلاث صور إعرابية حيث جاءت مرفوعة في ثلاث
 عشرة آية ، ومنصوبة في عشرين آية ، ومجرورة في تسع عشرة آية .

وعلى كل فيجب أن نعلم أن لفظة (أحد) في غير الإضافة وردت
 والة على العموم في الآيات كلها إلا آية واحدة هي قوله تعالى : (قل هو
 الله أحد) فإنها دلت على الانفراد والوحدانية في هذه الآية .

(١) المخاطب في آية واحدة والغائب في خمس آيات كما ستدرى في الشرح
 (٢) الآية ٤١ من سورة يوسف .

كما يلاحظ أيضاً أنها مسبوقة ينفي (١) دائماً عند إرادة العموم ، ولم تسبق ينفي عند إرادة الإفراد والوحدانية ، وإليك ذلك في القرآن الكريم لتعرف أنه جاء على أعلى مستوى لغوي عرفه العرب بل تحداهم أن يأتوا بآية أو بسورة من مثله فعبجروا فيها بنا إليه لنسلم منه .

أما (أحد) للمفوعة الدالة على العموم والمسبوقة بالنفي ولو في المعنى وقد وردت في اثني عشرة آية هي :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(قل إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم (١))	٧٣	آل عمران
٢	(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم	٤٣	النساء
٣	(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم		
		٦	المائدة
٤	(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره	٦	التوبة
٥	(فأسير بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد	٨١	هود
٦	(ولا يلتفت منكم أحد ، واهضوا حيث تؤمرون	٢٥	الحجر
٧	(قل إني لن بحيرني من الله أحد ، وإن أجد من دونه		
	ملتجداً	٢٢	الجن

(١) ولو في المعنى

(٢) الآية : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم (فلفظ أحد وقع بعد نفي لفظي أو معنى كما ستراه في الشرح

م	الآية	رقمها	السورة
٨	(فيومئذ لا يعذب عذابه أحد	٢٥	الفجر
٩	(ولا يوثق وثاقه أحد	٢٦	الفجر
١٠	(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد	٥	البلد
١١	(أيحسب أن لم يره أحد	٧	البلد
١٢	(ولم يكن له كفواً أحد	٤	الإخلاص

الملاحظات :

١ — يلاحظ أن الآية الأولى قبلها ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم —
قل إن الهدى هدى الله — أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم (بجملة (إن الهدى
هدى الله) اعتراضية لإلزام الحجة — وأن الأمر ليس كما يقولون بل أنه
من الله .

وبقية الآية — أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم —
متعلقه بقوله تعالى : (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) والمعنى : ولا تؤمنوا
إلا لمن تبع دينكم خشية أو مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم — أو خشية
ومخافة أن يحاجوكم به عند ربكم — فافظ (أحد) واقع بعد النفي لفظاً (ولا
تؤمنوا) أو معنوياً مخافة أو خشية (١) .

٢ — يلاحظ أن الآيتين الثمانية والثالثة في المسلسل العام الشرط فيها
حل محل النفي لأن فيه معناه، ولذا قالوا عنه : إن الشرط شبه النفي وكذلك
الاستفهام .

٣ — يلاحظ أني قلت أن عدد الآيات التي وردت فيها (أحد) مرفوعة ثلاث عشرة آية وقد تقدم من ذلك اثنتا عشرة آية والآية الثالثة عشرة وردت (أحد) فيها بعد الإيجاب لا بعد النفي وقد جاء ذلك في آية واحدة هي قوله تعالى: (قل هو الله أحد) وقد تقدم الكلام عنها قبل ذلك .

أما (أحدا) المنصوبة والمسبوبة بالنفي أو شبهه وردت في عشرين آية هي :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(وَأَنَّا كَمَا لَمْ يَرْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ	٢٠	المائدة
٢	(وَأَنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ	١١٥	المائدة
٣	(ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يَظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا	٤	التوبة
٤	(وَلِيَتَطَلَّفُوا وَلَا يَشْعُرُوا بِكُمْ أَحَدًا	١٩	الكهف
٥	(فَلَا تَمَارِقُهُمْ إِلَّا مَرَامًا ظَاهِرًا ، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا	٢٢	الكهف
٦	(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا	٢٦	الكهف
٧	(لَسْنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا	٣٨	الكهف
٨	(وَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا	٤٢	الكهف
٩	(وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ، وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ تَقْدِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا	٤٧	الكهف
١٠	(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا	٤٩	الكهف

م	الآية	رقمها	السورة
١١	(فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)	١١٠	الكهف
١٢	(فإما ترين من البشر أحدا فقولي : إني تدرت للرحمن صوما)	٢٦	مريم
١٣	(فإن لم تجدوا فيها أحدا ، فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم)	٢٨	النور
١٤	(ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله)	٣٩	الأحزاب
١٥	(لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا تطيع فيكم أحدا أبدا)	١١	الحشر
١٦	(يهدي إلى الرشد فآمنا به وإن تشرك بربنا أحدا)	٢	الجن
١٧	(وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا)	٧	الجن
١٨	(وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا)	١٨	الجن
١٩	(قل إنما أدعوني ، ولا أشرك به أحدا)	٢٠	الجن
٢٠	(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا)	٢٦	الجن

أما (أحد) المنجزة المسبوقه بالتعنى أو مشبهه مرادها بها العموم فقد وردت فى تسع عشرة آية و أساليب القرآن الكريم هى :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(وما يعلمان من أحد)	١ ٢	البقرة
٢	(وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله)	١٠٢	البقرة

٢	الآية	رقها	السورة
٣	(لا تفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون	١٣٦	البقرة
٤	(لا تفرق بين أحد من رسله	٢٨٥	البقرة
٥	(لا تفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون	٨٤	آل عمران
٦	(إذ تصعدون ولا تلوون على أحد	١٥٣	آل عمران
٧	(والذين آمنوا بالله ورسوله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم	١٥٢	النساء
٨	(أنأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين	٥٠	الأعراف
٩	(ولا تصل على أحد منهم مات أبدا	٨٤	التوبة
١٠	(وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد	١٢٧	التوبة
١١	(وكما أمسكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد	٩٨	مريم
١٢	(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد	٢١	النور
١٣	(إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين	٢٨	العنكبوت
١٤	(يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن	٣٢	الأحزاب
١٥	(ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولا كن رسول الله	٤٠	الأحزاب

م	الاية	رقمها	السورة
١٦	(ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده	٤١	فاطر
١٧	(قال رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي	٢٥	ص
١٨	(فما منكم من أحد عنه حاجزين	٤٧	الحاقة
١٩	(وما لأحد عنده من نعمة تجزى	١٩	الليل

الملاحظات :

- ١ - لم ترد (أحد) مضافة إلى المنفى الظاهر في القرآن الكريم .
- ٢ - يلاحظ أن (أحدا) في الآية رقم ٣٢ من سورة الأحزاب استخدمت للمؤنث .

٣ - النفي في الآية رقم ٤١ من سورة فاطر هو لفظة (إن) والذي يؤيد ذلك السياق والمعنى — وأيضا أن أحدا المراد بها لعموم لا تقع إلا بعد نفي أو شبهة كما تقدم ولا فرق بين النفي بالنفس أو الحرف .

٤ - (من) الداخلة على أحد تدل على أن النفي يبدأ من بداية ما يقال له أحد . أي من الصفر إن صح هذا التعبير . ولا يتنافى هذا قول المربين لأنها زائدة لأنهم يقصدون أن تأثيرها وإن كان موجودا انقضا في الإعراب إلا إن ما بعدها له إعراب آخر محلي فهم يقصدون بالزائد هنا أن الإعراب المحلى هو المعتبر لا الإعراب اللفظي فكأنه لا وجود له في الإعراب ولا اعتبار العمل اللفظي بل المحلى هو المعتبر .

ثانيا : لفظة (إحدى) .

وقد علمت أنها تستعمل إستعمال الأسماء لا الصفات ، وهى مؤنث (أحد) كما أن (واحدة) مؤنث (واحد) فرقا بين الصفة والأسم .

— وإحدى فى استعمالها كأحد — إلا إنها للدؤنث ولا تفيد العموم ولا تستعمل لإامضافة إلى أكثر من واحد ، أو مع العقود .

فتقول : إحدانا ، وإحداكما ، وإحداهما ، وإحداكم ، وإحداهن . وإحدى عشرة ، وإحدى وعشرين ، وإحدى وتسعين .

— ولفظة (إحدى) وردت فى أساليب القرآن الكريم فى إحدى عشرة آية وكلها فى حالة الإضافة لأنها لا تستعمل إلا كذلك . وكل إضافة فى القرآن الكريم إلى الغائب سواء أكان ظاهرا مثنى أو جمعا أو غائبا مثنى أو جمعا وإليك ذلك بالآيات مفصلة :

— وردت مضافة إلى الظاهر المثنى أو الجمع فى خمس آيات هى :

م	الآية	رقها	السورة
١	(وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم .	٧	الأفقال
٢	(هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين .	٥٢	التوبة
٣	(قال : إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين .	٢٧	القصص
٤	(لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم .	٤٢	فاطر
٥	(إنها لإحدى الكبر قديرا للبشر .	٢٥	المدثر

— ووردت مضافة إلى ضمير المثني الغائب في خمس آيات أيضا هي :

م	الآية	رقمها	السورة
١	(وأمرأتان من ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما)	١٨٢	البقرة
٢	(فتذكر إحداهما الأخرى .)	١٨٢	البقرة
٣	(فجاءته إحداهما تمشي على استحياء .)	٢٥	القصص
٤	(قالت إحداهما يا أيت استأجره .)	٢٦	القصص
٥	(فبن بغت إحداهما على الأخرى فقَاتلوا حتى قَتِي		
	حتى قَتِي إلى أمر الله .	٩	الحجرات

— ووردت مضافة إلى الغائبات في آية واحدة هي قوله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) (١) .

الملاحظات :

١ - لم ترد (إحدى) في القرآن مركبة ، ولا معطوفا عليها العهد ولا مضافة إلى المتكلمين ، ولا إلى خطاب ، بل كل الوارد فيها الإضافة إلى الغائب ، لأن الظاهر من قبيل الغائب .

٢ - يلاحظ أنها لم ترد في اللغة العربية مستخدمة وحدها على الإطلاق قال صاحب المخصص (٢) ناقلًا عن أبي عمرو بن العلاء (٣) :

(١) الآية ٢٠ من سورة النساء .

(٢) ابن سيده المتوفى ٤٥٨ هـ واسمه علي بن اسماعيل . وله المنخر والحكم ومشكل شعر المثني وغير ذلك .

(٣) ولد بمكة عام ٧٠ هـ وتوفي في عام ١٥٤ هـ ، وقد نقل عنه ابن سيده في المخصص أنظر مقدمة المخصص ١٠ - ١٤ .

« ولا يقولون : رأيتُه إحدى ، ولا جاء في إحدى حتى يضم الى غيره . » (١)

وقال الرضى في شرح الكافية : « ولا يستعمل إحدى إلا مع الإضافة أو التنيف (٢) »

وقال الزمخشري في المفصل : « والهمزة ، في أحد وإحدى متقلبة عن واو . ولا يستعمل أحد وإحدى في الأعداد إلا منيفة . »

قال ابن جني : « وأما قولنا : ما في الدار أحد ، فهمزته عندنا أصل وليست يبدل ، ألا ترى أن معناه العموم والكثرة وليس في معنى الافراد في شيء بل هو بضمة » (٣) .

ثالثا : لظقة (واحد) .

وهذه ليس لها استخدام إلا مضافة إلى صير — وحينما تضاد تسكن الحاء حتى لا يتوالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة فتقول :
وحده — وحدها — وحدنا .

وقالت العرب : هو نسيج وحده . ونسيج وحده . وتقول : جاء وحده
وقال رسول الله ﷺ : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد .

(١) أنظر المخصص ٩٨/١٧ .

(٢) أى مع العقود مركبة أو معطوفة كما تقدم . أنظر شرح الكافية للرضى ١٤٦/٢ .

(٣) أنظر ابن يعيش على المفصل ٣٢/٦ .

(٤) أنظر الخصائص ٧٨/٢ ، ٢٦٢/٣ .

وعلى كل فيجب أن تعلم أن لفظة (وحده) المضافة إلى الضمير تلازم
النصب على الخاتمة لتأويلها بمشتق ، لأنها بمعنى مفردا .

وقيل : نصبت على الظرفية ، لأنها بمعنى : على حياله .

وقيل : نصبت على المصدر ، لأنها بمعنى : خصوصا (١)

أما ورودها في القرآن الكريم فقد وردت مضافة إلى ضمير المفرد
الغائب في ست آيات هي :

م	الآية	رقم	المسورة
١	(قالوا أجمعنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آبائنا	٧٠	الأعراف
٢	(وإذا ذكر ربك في القرآن وحده ولوا على أديارهم نفورا .	٤٦	الإسراء
٣	(وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة .	٤٥	الزمر
٤	(ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم .	١٢	غافر
٥	(فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده .	٨٤	غافر
٦	(وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده	٤	المنحنة

وبهذا ينتهي الكلام على الألفاظ : واحد - أحد - وحد واحدة إحدى -
ثم ننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن العديدين (اثنين واثنين) .

(١) قال الرماني : مذهب يونس في مررت به وحده : أن ينصبه نصب
الظرف كقولاك : هو هنده - والمعنى : مررت به على حياله .

.

ومذهب الخليل: أن ينصبه نصب المصدر كقولك مررت به خصوصاً .
وإنما حمله يونس على جهة الظرف لأنه رأى وحده في هذا الموضع
ناقص التمكن (أى يلزم النصب) كتنقصان عنده في التمكن فنصب كما
نصب، وتلزمه الإضافة كما تلزمه، وفيه معنى على حياله . فحمله على الظرف
لهذه العلة .

وقول الخليل أقوى ، لأن وحده أشبه بالمصدر في معناه ، وحمله عليه
أولى لكثرة نظيره من المصادر ، وظهور معنى الاختصاص فيه، أنظر سيبويه
٣٧٨/١ هامش (١) ط هارون .

أما سيبويه فرأيه : أنه حال بمعنى منفردا ، حيث وضعه تحت عنوان:
« ما ينتصب على الحال وهو اسم جامد إلا أنه على التأويل بالاشتقاق أنظر
سيبويه ٣٧٦/١ وما بعدها .

ثانيا : العددان

[اثنان واثنتان — لغة وقرأنا]

— يقال : ثنى الشيء إذا عطفه ، وبابه (رى) .

وثناء : صار له ثانيا ، وثناء ثمينه : جعله اثنين (١) .

— ولفظه (اثنان) تستخدم للمذكر رفعاً ، وفي حالتى انصب والجر تستخدم (اثنين) .

— وفي التائيث : اثنان ، وثنان رفعاً ، مثل : اثنان وثنان كما قال أبو عل الفارسي ، وفي حالتى النصب والجر تستخدم اثنين ، وثلثين .

— وإدراكيت مع العشرة حذف منها الفون فنقول فى المذكر : اثنا عشر رفعاً ، واثني عشر نصباً وجراً .

— وفى المؤنث : اثنتا عشرة ، واثنتى عشرة (٢) .

— وإذا عطف عليهما العقد نقول : اثنان وعشرون رفعاً ، واثنين وعشرين نصباً وجراً فى حالة التذكير .

— وفى المؤنث نقول : اثنتان وعشرون ، وثلثان وعشرون رفعاً ، وثلثون وعشرين ، واثنين وعشرين نصباً وجراً وهكذا .

(١) انظر الفامرس المحيط ٤/ ٣٩ ، ومختار الصحاح مادة (ثنى) .

(٢) الأول رفعاً ، والثانى نصباً وجراً ، ويمكن أن يقال كذلك ثلثا عشرة رفعاً وثلثى عشرة نصباً وجراً .

قال أبو علي الفارسي في كفاية الإيضاح : « وقولهم : اثنتان مخدوف موضع اللام ، كما أن قولهم اثنتان كذلك ، وللمؤنث اثنتان كما تقول : اثنتان ، وإن شئت ثلثان كما تقول : بنتان ، وقلوا في جمع الإثنيين : اثثاء ، (١) .

قال صاحب القاموس المحيط : « وألف اثنتان للوصل وقد تقطع في الشعر ، (٢) ويقول الرضي في شرح الكافية : « واحد واثنتان للمذكر ، وواحدة ، واثنتان وثلثان للمؤنث ، ويجريان في التأنيث والتذكير على القياس ، ذو الثاء للمؤنث ، والمجرد عنها للمذكر ، (٣) .

وبعد : فيجب أن تعلم أن العددين . واحدا واثنتين لا يحتاجان إلى تمييز في العربية ، بل يكفي يذكر المعداد عن العدد فتقول مثلا : رجل أو رجلان فيفيد ذلك أن العدد هو : واحد ، واثنتان ، وإذا قلت : امرأة أو امرأتان أفاد أن العدد هو : واحدة واثنتان .

وبعبارة أخرى : أن المعداد هو الذي يعبر به فإن ذكر العدد بعده أعرب العدد صفة مؤكدة للمعداد ، قل تعالى : (. . . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) (٤) .

أما عن استخدام القرآن الكريم لهاتين الكلمتين فقد ورد على النحو التالي :

أولا : اثنتان بالرفع وردت مرة واحدة في قوله تعالى : (يا أيها الذين

(١) انظر الإيضاح في ذلك وانظر المختصر لابن مسيد : ٩٨/١٧ .

(٢) انظر القاموس المحيط ٣٩/٤ .

(٣) انظر شرح الكافية للمرضي ١٤٦/٢ .

(٤) البقرة ٢٨٢ .

آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل
منكم (الأنعام ١٠٦) (١) .

(١) شهادة بينكم يقرأ برفع الشهادة وإضافتها إلى بينكم ، والرفع على
الإبتداء ، والإضافة هنا من إضافة المصدر لمفعوله ، وإذا حضر أحدكم
الموت حين الوصية ظرفان متعلقان بالمصدر — واثنتان فاعل أغنى عن الخبر ،
والتقدير : يا أيها الذين آمنوا شهادة اثنين بينكم إذا حضر أحدكم الموت
حين الوصية .

وقيل الخبر : إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية — واثنتان خبر لمبتدأ
محذوف والتقدير : الشاهدان اثنان ذوا عدل منكم ، وانظر العكبري
٢٢٩/١ يتصرف .

ثانياً : اثنين بالقصب وردت في القرآن الكريم تسع مرات هي :

م	الآية	رقبها	السورة
١	(ثمانية أزواج من الضأن اثنين) (١)	١٤٣	الأنعام
٢	(ومن المعز اثنين	١٤٣	•
٣	(ومن الإبل اثنين	١٤٤	•
٤	(ومن البقر اثنين	١٤٤	•
٥	(حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور وقلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين) (٢)	٤٠	هود
٦	(ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) (٣)	٣	الرعد
٧	(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين) (٤)	٥١	النحل

(١) اثنين بدل بعصر من ثمانية المنصوب والياقوت معطوف عليه هـ ، والمعطوف على المنصوب منصوب . انظر العبكري ٢٦٣/١

(٢) اثنين صفة تو كيد للزوجين ، وإما مفعول له (احمل) ومن كل زوجين حال . هذا على قراءة كل بالإضافة ، وعلى قراءة كل من باتنوين تعرب (اثنين صفة تو كيد للزوجين — وهو في حال المفعولية منصوبة وفي حال التوكيد مجرورة فتنبه لذلك . وانظر العبكري ٣٩/٢ بتصرف .

(٣) زوجين مفعول جعل واثنين صفة تو كيد له فهو منصوب مثله .

(٤) صفة مؤكدة للمفعول (إلهين) على تأويل لا تتخذوا بمعنى لا تعبدون أو مفعول ثان لا تتخذ . وعلى كل فهي منصوبة .

م	الآية	رقمها	السورة
٨	(فإذا جاء أمرنا وفاء الثنور فأسلك فيها من كل زوجين اثنين (١))	٣٧	المؤمنون
٩	(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززننا بثالث يس)	١٤	يس

ثالثا : قد وردت بحرورة مرة واحدة في قوله تعالى :

إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار (٥٠ التوبة .

والمعنى : أحد اثنين وتغرب (ثاني) حالا من الهاء في (أخرجه) ،
ويقراً (ثاني) بسكون الياء وحققا التحريك — واثنين مضاف
إليه (٢) .

هذا بخلاف أوجه الجر التي سبقت في الآيات السابقة على هذه الآية
في هذا البحث .

رابعا : قد وردت مركبة مرفوعة في آية واحدة هي قوله تعالى :
(إن عدة الثنور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله)

[٣٦ — التوبة]

وردت مركبة منصوبة في آية واحدة هي قوله تعالى : (وبعثنا منهم
اثني عشر نقيبا)

[١٣ — المائدة]

(١) يقال فيها ما قيل في الآية ٤٠ من سورة هود .

(٢) انظر المبكرى ١٥/٢ ، وشرح التصريح ٢٧٦/١

أما لفظة اثنتان واثنتان المرفوعتان لم تردا في القرآن الكريم في حالة الإفراد (١) .

أما لفظة (اثنتين) منصبة وجراً في حالة الإفراد فقد وردت في القرآن الكريم ، المنصوبة في ثلاث والمجرورة في واحدة .

اثنتين المنصوبة :

م	الآية	رقبها	السورة
١	(فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الْفَلْحَانِ مِمَّا تَرَكَ)	١٧٦	النساء
٢	(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ)	١١	غافر
٣	(وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ)	١١	غافر

واثنتين المجرورة وردت في قوله تعالى :

١	(فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثُ مَا تَرَكَ)	١١	النساء
---	---	----	--------

أما اثنتان واثنتين في حالة التركيب مع العشرة فقد وردت ثلاث مرات .

(١) أما في حالة التركيب فقد وردت في آيتين سيأتيان بعد ذلك .

الأولى في آيتين والثانية في آية وإليك ذلك :

٢	الآية	رقمها	السورة
١	(فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا	٦٠	البقرة
٢	(فانيجست منه اثنتا عشرة عينا	١٦٠	الأعراف
١	(وقطعنا من اثنتي عشرة أسباطا أمما	١٦٠	الأعراف

ويلاحظ أنها فاعل في الآيتين في حالة الرفع ومفعول في الآية الأخيرة فهي منصوبة .

هـ ذا ولم يرد لفظ (اثنان) مذكراً أو مؤنثاً معطوفاً عليه انعقد في القرآن الكريم .

هذا وقد ورد لفظه (اثنان) معدولاً في القرآن الكريم على صيغة مفعول فقط وجاء ذلك في ثلاث آيات في القرآن الكريم هي :

٣	الآية	رقمها	السورة
١	(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ^(١))	٣	النساء
٢	(أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا	٤٦	صبا
٣	(جاء الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع	١	فاطر

(١) (ما) بمعنى الذي وما بعده صلة أن فانكحوا الذي طاب لكم أو مصدرية أي فانكحوا الطيب لكم أو ففكرة بمعنى فانكحوا جنساً طاب

وجاءت أيضا كذلك في قول رسول الله ﷺ :

« صلاة الليل مثنى مثنى ، (١) أى ركعتان ركعتان بتشهد وتسليم فهى ثنائية لا رباعية .

والى اللقاء فى العدد القادم إن شاء الله .

د / على أحمد زايد

= لكم. (من النساء) حال من فاعل (انكحوا) ، ومثنى وثلاث ورباع — فكرات لا تنصرف للعدل والوصف وهى يدل من (ما) على أنها نكرة أو مصدريّة . والواو فى قوله : وثلاث ورباع — ليست للعطف الموجب وإلا لوجب أن يتزوج كل رجل بتسع نساء وهو مخالف لشرع وإنما المراد اثنتين اثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا . أى فانكحوا اثنتين أو ثلاثا أو أربعا وهذا أقصى ما بصح إليه الرجل فى الإسلام إذا حقق العدل بيدهن فإن لم يستطع ذلك فواحدة أى فانكحوا واحدة أو فواحدة تكفى .

انظر المبكرى ١/١٦٦ — بتصرف .

(١) النهاية ١/٢٢٥

موضوع البحث :

دراسة تحليلية لبعض الشواهد العربية

هذا البحث يتناول بعض الشواهد العربية قمت بدراسة

تطبيقية ، وهي :

- ١ - وأنا الأخضر من يعرفني
أخضر الجلدة من بيت العرب
- ٢ - ليت هزبر مدل عند خيسته
يالرفقين له أجر وأعراس
- ٣ - حديا الناس كلهم جميعا
معارعة بذبح عن بنينا

د. محمد السيد متولى البغدادي

قسم اللغويات
بكلية اللغة العربية بدمهور

البيت الأول : قول الشاعر :

وأنا الأخضر من يعرفني أحصر الجلدة من بيت العرب (١)

البيت للنهي وهو المفضل بن عباس بن عبيد الله . من بحر الرمل .

قوله : (أنا) ضمير رفع منفصل ، وفي الاسم منه حلاف بين البصريين والكوفيين .

فالآلف والذون هو الاسم عند البصريين ، والآلف الأخيرة زائدة ملوقة ، لبيان الحركة ، فهي كالهاء في أغزه ، وازمه ، وإذا وصلت حذفها كما تحذف الهاء في الوصل .

وذهب الكوفيون إلى أنها يكملها هو الاسم ، وذلك لثلاثة أوجه :

الأول : أن الضمير جار مجرى الحرف ، وحروف الحرف أصول .

والثاني : حكى الفراء (٢) : أن فعلت ، بتقديم الآلف على الذون .

والثالث : ثبوتها وصلا في قراءة نافع (قال أنا أحي وأميت) (٣) .

وأيضاً قول الشاعر :

أنا سيف العشيرة فأعرفوني حميداً قد تذريت السناما (٤) .

(١) انظر المقتضب (٢٢٠/٣) ، ومعجم الشعراء للزباني (٣٠٩) ،
والثؤلف والمختلف (٣٥) ، والحيوان للجاحظ (٢٤٨/٣) ، واللسان
(خضر) والصحاح (خضر) .

(٢) انظر شرح الكافية (١٠، ٩/٢) .

(٣) سورة البقرة آية (٢٥٨) .

(٤) البيت لحيد بن بحدل الكلبي ، وهو شاعر إسلامي ، وبحره الوافر .

انظر شرح الشافية (٢٢٢/٤) ، والمصنف (١٠/١) ، شرح المفصل =

ورد أبو حيان في البحر المحیط (١) على قراءة نافع بقوله: (وقرأ نافع بإثبات ألف أنا، إذ كان بعدها همزة مفتوحة أو مصمومة، وروى أبو ذؤيب لإثباتها مع الهمزة المكسورة، وقرأ الباكون بحذف الألف، وأجمعوا على إثباتها في الوقف، وإثبات الألف وصلاً ووقفاً لغة بني تميم، ولغة غيرهم حذفها في الوصل، ولا تثبت عند غير بني تميم وصلاً إلا في ضرورة الشعر، نحو قوله:

فكيف أنا وانت حال القوافي بعد المشيب كفي ذاك عارا.

والأحسن أن تحذف قراءة نافع على لغة بني تميم؛ لأنه من إجراء الوصل مجرى الوقف على ما تأوله عليه بعضهم) (٢).

ورد مذهبهم أيضاً ابن يعيش في شرح المفصل (٣) قال: (ولا حجة في ذلك لقلة، ولأن الأعم الأغلب سقوطها، وبجاز البيت والقراءة على إجراء الوصل مجرى الوقف) (٤). وقال أيضاً (أما: الاءم فيه الألف والنون، والألف دخلت لبيان الحركة في الوقف، يدل على ذلك أنك

= (٩٣/٣، ٨٤/٩)، الغرة لابن الدهان (٤٨٥/٢)، والخزانة الشاهد رقم (٣٧٨) و (حميداً) روى مكبراً ومصغراً، وروى أيضاً بالرفع والنصب، بالرفع على أنه بدل من قوله (سيف العشرة)، أو على أنه خبر بعد خبر، وبالنصب على أنه بدل من الياء في قوله (قاعرفوني)، أو منصوب على المدح بتقدير أعنى وقوله: (تذريت السنام) بمعنى علوته، وهو من الذروة بالكسر والضم، وهو أعلى السنام. والشاهد فيه: أن الكوفيين ومنهم الفراء يزعمون أن الضمير هو كلمة (أنا) برمتها، واستدلوا بثبوتها وصلاً بالبيت، إذ لو لم يكر الأمر هكذا لاسقط الألف في حال الوصل.

(١) أنظر البحر المحیط (٢٨٨/٢).

(٢) أنظر شرح المفصل (٩٣/٣).

إذا وصلت سقطت الألف ، فتقول : أن فعلت . والوصل مما يرد الأشياء إلى أصولها في الغالب (١) ا هـ .

وقال ابن جني (٢) : (أما الألف في أنا في الوقف فزائدة ليست بأصل ، ولم يقض في ذلك فيها من جهة الاشتقاق ، هذا فحال في الأسماء المضمرة ، لأنها مبنية كالحروف ، وليكن قضينا بزيادتها من حيث كان الوصل يزيلها ويذهبها كما يذهب الهاء التي تليحق لبيان الحركة في الوقف ، ألا ترى أنك تقول في الوصل أنا زيد ، كما قال الله تعالى (إني أنا ربك) تكتب بألف بعد النون ، وليست الألف في اللفظ ، وإنما كتبت على الوقف (فصار سقوط الألف في الوصل كسقوط الهاء التي تليحق في الوقف لبيان الحركة في الوصل ، وبيئت الفتحة بالألف ، كما بيئت بالهاء ؛ لأن الهاء مجاورة الألف . وقد قالوا في الوقف أنه ، فبينوا الفتحة بالهاء كما بينوها بالألف ، وكلتاهما ساقطة في الوصل . فأما قول الشاعر : أبا سيف العشرة . . .
لح فإنما أجراه في الوصل على حد ما كان عليه ، وأكثر ما يحىء ذلك في الشعر) ا هـ .

وقوله : (الاحضر) خبر المبتدأ ، وهو الضمير السابق ، وسيأتي المعنى .

وقوله : (من) اسم موصول بمعنى الذي ، ويجوز أن يكون موضعه جراً ، ونصباً ورفعا .

فأما الجر ، فعلى إرادة اللام ، وحذفها للضرورة الشعرية على حد قول الشاعر :

(١) المرجع السابق (٨٣/٩) .

(٢) المرجع السابق (٩٣/٢) ، والمنصف لابن جني (١٠/١) .

رأى خلياً بعد أحرى تقلبت

بفوديه سبعون السنين الكوامل (١)

قال ابن الشجرى فى أماليه (٢): (فصل : ذكر حذف الحرف : الحرف على ضربين : حرف معنى ، وحرف من نفس الكلمة ، فمن الحروف المعنوية التى وقع فيها الحذف أحرف خافضة ، منها اللام ، وحذفها مطرد مع أن المشددة وأن الخفيفة ، كقولك : ما جئتك إلا أنك كريم ، تريد إلا لأنك ، وكذلك ما أتيتك إلا أن يحسن إلى ، تريد : إلا لأن يحسن وبما حذفوا منه اللام فى الشعر قول الأعشى :

أبا لموت الذى لا بد أنى ملاق لا أباك نحو فى
والوجه لا أبالك ، كما قال زهير :

سمت تكاليف الحياة ومن يعيش

ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

ولما ضعف حذف هذه اللام لأنها فى هذا الكلام معتد بها من وجه ، وإن كانت غير معتد بها من وجه آخر ، فالاعتداد بها من حيث منعت الاسم - لفصلها بينه وبين المجرور بها - أن يتعرف بإضافته إليه فيكون اسم لا معرفة ، وترك الاعتداد بها من حيث يثبت الألف فى أب ، ألا ترى أن الألف لا يثبت فى هذا الاسم إلا الإضافة ، نحو رأيت أباك وأبازيد ، فلو لا أنه فى تقدير الإضافة إلى الكاف فى لا أبالك لم تثبت الألف (اهـ)

(١) البيت من الطويل لآبى حبيب النخعى ، أنظر أمالى ابن الشجرى

(٣٦٤/١) وديوانه (١٦٧) ، والخليس : الشعر الأشمط ، والأحرى :

الأسود ، وقوله : (بفوديه) : الفودان شعر جانبي الرأس مما بلى الأذنين ، أنظر الصحاح (خاس ، فود) .

(٢) أنظر أماليه (٣٦١/١ . ٣٦٢) .

وجاء حذف اللام في النثر أيضا ، قال ابن الشجري (١) : (وما عدوه باللام قال ، ووزن في نحر كل لك قفيزين برا ، ووزنت لك متوين عسلا ، وجاء حذف هذه اللام في كثير من كلامهم ، كقولك كاتك البر ، ووزنتك العسل ، وقد يحنفون المفعول الثاني فيقولون : كاتك ، ووزنتك ، وعليه جاء قوله تعالى : (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (٢) معناه كالوا لهم أو وزنوا لهم ، وأخطأ بعض المتأولين في تأويل هذا اللفظ فزعم أن قوله : هم ضمير - مرفوع وكنت به الواو ، كالضمير في قولك خرجوا هم ، فهم على هذا التأويل عائد على المطففين .

وبذلك على بطلان هذا القول عدم تصوير الألف بعد الواو في كالوهم ، ووزنوهم ، ولو كان المراد ماذهب إليه هذا المتأول لم يكن بد من إثبات ألف بعد الواو على ما انفقت عليه خطوط المصاحف كلها في نحو (خرجوا من ديارهم) (٣) ، (وقالوا لنبيهم) ، وإذا ثبت بهذا فساد قوله ، فالضمير الذي هو هم منصوب بوصول الفعل إليه بعد حذف اللام ، وهو عائد على الناس في قوله تعالى : (إذا اكثالوا على الناس ، وهذا أيضا دليل على فساد قوله إن الضمير مرفوع ، ألا ترى أن المعنى إذا كالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوا للناس أو وزنوا للناس يخسرون) اهـ .

ومن كلام العرب إذا أراد مفتخر منهم أن يفتخر بشهرته في نفسه أو شجاعته ، أو نحو ذلك أن يقول : أنا زيد لمن يعرفني ، وأنا زيد معروفاء ، فشاهد الأول قول مسكين الدارمي :

(١) انظر المرجع السابق (٣٦٣/١) .

(٢) سورة المطففين آية (٢)

(٣) البقرة آية (٢٤٣)

أنا مسكين لمن يعرفني
لوني السمرة ألوان العسرب^(١)

شاهد الثاني قوله ابن دارة :

أنا ابن دارة معروفا بها نفسي
وهل بدارة يا للناس من عار^(٢)

فهذا يشهد بأن اللام في قوله : لمن يعرفني في موضع الحان ، إذا كان
المعنى أنا مسكين معروفا ، والتقدير أنا مسكين بينما لمن تعرفني أو مستمرا لمن
يعرفني .

وقال بعض البصريين ومنهم أبو علي الفارسي : يجوز أن تكون اللام
متعلقة بما في زيد من معنى البيان والإشتهار ، كما في قول الشاعر :

(١) البيت من الرمل ، ومعناه واضح ، أنظر المسان (حضر) .

(٢) البيت من البسيط ، وقائله سالم بن دارة اليربوعي ، ودارة اسم
أمه ، سميت بذلك لجمالها تشبيها بدارة القمر ، وانظر سيديويه (٧٩/٢) ،
الخصائص (٢٦٨/٢) والخزانة (٢٤٠/٢) ، حاشية الصبان (١٨٥/٢) ، أمالي
ابن الشجري (٢٨٥/٢) (ومعروفا) حال مؤكدة لمصمون الجملة قبله ،
(وبدارة) جار ومجرور خبر مقدم (يا) حرف نداء ، والمنادي محذوف ،
أي يا قوم ، واللام مفتوحة للتعجب ، أو يا لمجرد التنبيه ، هذا رأي العيني ،
وقال البغدادى في الخزانة : (يا للنداء لا للتنبيه ، وللناس الفادى ، لا أن
للمنادى محذوف تقديره قومي ، واللام للاستغاثة ، وهي تدخل على المنادى
إذا استغيث نحو يا لله) اهـ .

والجملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، (وعار) مبتدأ مؤخر منع من رفعه
حرف الجر الزائد .

أنا أبو المنهال بعض الأحيان
ليس على حسي بضؤلان^(١)

وقالوا العامل في الظرف ما في أبي المنهال من معنى الشهوة .

قال ابن جني^(٢) : (ر) باب في الإستخلاص من الأعلام معاني الأوصاف :
من ذلك ما أنشدناه أبو علي — رحمه الله — من قول الشاعر :

أنا أبو المنهال ... البيت ... أنشدني — رحمه الله — ونحن في دار الملك

وسألني عما يتعلق به الظرف الذي هو (بعض الأحيان) فخصنا فيه إلى
أن يرد في اليد من جهته أنه يحتمل أمرين :

أحدهما : أن يكون أراد أنا مثل أبي المنها ، فيعمل في الظرف على هذا
معنى التشبيه ، أي أشبه أبا المنهال في بعض الأحيان .

والآخر : أن يكون قد عرف من أبي المنهال هذا الفغاء والنجدة ، فإذا
ذكر مكانه قد ذكر أ وبصير معناه إلى أنه كأنه قال : أفال المغنى في بعض

(١) البيت من مشطور السريع ، انظر الطمع (١٠٧/٢) ، المغنى (الباب
الثالث وشبه الحملة) ، شواهد المغنى (٨٤٣) ، قوله : (مضؤلان) : جاء
في اللسان (ضأل) : (رجل ضؤل أي نحيف ، وهو عليه بضؤلان أي كل ،
وحسبه ضؤلان : إذا عيب به) ا . ه .

والمعنى : أنا أقوم بحقوق حسي ، ولا آتي ما أعاب به ، وبعض
في البيت ظروف ، لأن لها حكم ما تضاف إليه ، وهي هنا مضافة إلى
الظرف .

(٢) انظر الخصائص (٢٧٠/٣)

الاحيان ، أو أفا المنجد في بعض تلك الاحيان ، أفلا تراك كيف اقتزعت من العلم الذي هو أبو المنهاج معنى الصفة والفعلية (ا . هـ ،

ومثل ذلك قول الأعشى :

شتان ما يومى على كورها

ويوم حيان أخى جابر (١)

فالعامل في قوله : (هلى كورها) ما في اليوم من معنى الحدث ، لأنه لا يريد أن يومه على كورها ، وإنما يزيد حدثه من ركوبه وسيره عليها .

وعلى ذلك أجاز النحويون : زيد عمرو يوم اللقاء راكبا في الميدان ، وأعملوا في الحال والظرف ما في عمرو من معنى الشدة ، أو ما في الكلام من معنى التشبيه : وعليه قول الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا

أكبادنا تمشى على الأرض (١)

(١) البيت من السريع ، أنظر شرح المعضل (٣٧/٤) ، وشدور الذهب (٤٠٣) ، والتصريح (١٩٩/٢) ، (وحيان وجابر) أبنا عميرة بن بني حنيفة ، وكان حيان نديما للأعشى ، والمعنى : أن يوميه لا يستويان ، بل بينهما افتراق ، وتخالف ، فيومه وهو راكب على كور فاقته يوم سفر ومشاق ، ويومه وهو ينادم حيان ، ويتساقبان الخمر يوم لحو وطر ، والشاهد في البيت : حيث إن العامل في الجار والمجرور في قوله (على كورها) ما في اليوم من معنى الحدث ، أى ركوبه على كورها .

(٢) البيت من السريع لخطاب بن المعلى ، أنظر شرح ديوان الحماسة (٢٨٨/١) .

المعنى : يقول الشاعر : محل أولادنا من أنفسنا فيما بيننا محل الأكباد

فالعامل في قوله : (بيننا) مافى الكلام من معنى التشبيه ، إذ المعنى تشبه أولادنا بيننا أكبادنا .

فقد ثبت بما قدمناه أن قوله : (من يعرفني) في البيت المتقدم ، إذا قدرت اللام موجودة فيه كان في موضع الحال ، كأنه قال : أنا الأخصر بيننا لمن يعرفني أو تجعلها متعلقة بما في الأخصر من معنى البيان والظهور ، كأنه قال : أنا البين لمن يعرفني .

وأما جواز النصب في قول الشاعر : (من يعرفني) ، فيضمار فعل دل عليه معنى الكلام المتقدم ، لأنه لما قال : وأنا الأخصر ، دل على أنه يعرف نفسه ، فكأنه قال : أعرف نفسي من يعرفني ، أي من أراد أن يعرفني ، كما يقول القائل : قد أجزت كتابي هذا لمن يرويه عنى من غير تصحيف ولا تبديل ، أي لمن أراد أن يرويه ، ومثله قوله سبحانه وتعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستمع بالله) (١) أي إذا أردت أن تقرأ فاستمع بالله ، ومثل ذلك قول الأخطل :

وقد أراها وشعب الحى مجتمع
وأنت صب بمن عاقت معتمد
أيام جل خايلا لو يخاف لها
صرماً لحولط منه العقل والجسد (٢)

== من الأجواف وإن كانت ماشية على الأرض ، ويقال الولد فلانة من السكبد أى قطعة منه .

(١) سورة النحل آية (٩٨) .

(٢) البيتان من البسيط ، والبيت الثانى من شواهد سيبويه ، ونسبه أيضاً للأخطل ، وقال الأستاذ عبد السلام هارون : (ليس في ديوان الأخطل ، لكن ورد أيضاً بهذه النسبة عند الشنتمرى) ، أنظر الكتاب (٢٣٧/٢) . ==

فالنائب لقوله خليلاً فعل مقدر .

ومثله قول عبد الله بن قيس الرقيات :

لن تراها ولو تأملت إلا
ولها في مفارق الرأس طيباً (١)

فطيباً منصوب بفعل مقدر ، أى إلا وترى لها طيباً .

وأما الوجه الثالث فى إعراب (من) ، وهو الرفع ، فعلى أن تكون مبتدأ ، وقوله : (أخضر الجملة) خبره ، كأنه قال : وأنا الأخضر من يعرفنى أخضر الجملة مثلى فى صحة نسبه وكرم عنصره .

= اللغويات (أراها) أى قد أرى هذه الدار فى هذا الوقت ، (حبت) : الصبابة رقة الشوق وحرارته ، يقال : رجل صب أى عاشق مشتاق ، الصراح (صبب) ، (الصوم) بالضم ولفتح : القطيعة والهجران ، أو هو بالضم الاسم ، وبالفتح : المصدر ، (حوط) أخل وتغير ، وأيام جمل : ظرف منصوب بقوله : أراها .

والنائب لقوله : (خليلاً) فعل مقدر على الاختصاص والتعجب ، أى أعجب بها خليلاً .

(١) البيت من الخفيف . أنظر سيبويه (٢٨٥/١) ، الخصائص (٤٢٩/٢) ، حاشية الدسوقي (٢٣٩/٢) ، شرح المفصل (١٢٥/١) ، ديوانه (١٧٦) ،

وقوله : (مفارق) جمع مغرق . وهو حيث ينفرق الشعر ، وقوله (ولها فى مفارق) الواو للحال ، والجارن والمجروران متعلقا بالفعل المقدر ، وجملة الفعل المقدر حالية . وهذه الحال مستثناة من عموم الأحوال السابقة .

وقوله: (من بيت العرب) في موضع الصفة لأخضر الجملة، إذ التقدير
رجل أخضر الجملة من صميم العرب، وكذلك يكون أيضاً في الوجهين
المتقدمين، ويجوز فيه وجه آخر، وهو أن يكون خبراً بعد خبر، كأنه
قال: أنا الأخضر من بيت العرب، ويجوز أيضاً أن يكون في موضع
الحال من الأخضر، كأنه قال: وأنا بالأخضر صحيحاً فسيبه، أي خالصاً
ونحو ذلك.

والمعنى: أنه يرب بالخضرة سمرة اللون وسواده، إذ ذلك دليل على
تمحض عربيته، ألا ترى أن العرب قصف نفسها بالسواد، وتصف الممحم
بالخمر، وعن ذلك قوله عليه السلام (بعثت إلى الأحمر والأسود).

ومثله قول معبد بن أخضر، وكان ينسب إلى أخضر ولم يكن أباه، بل
كان زوج أمه، وإنما هو معبد بن علقمة المازني:

سأحي دماء الأخضر بين إنه

أبي الناس إلا أن يقولوا ابن أخضراً

وهل لي في الحر الأعاجم نسبة

فأقف مما يزعمون وأنكرا (١)

ومن ذلك قول حسان يهجو ابن عياض التيمي:

لو كنت من هاشم أو من بني أسد

أو عبد شمس أو أصحاب اللوى الصيد

(١) البيتان من الطويل، والمراد من (الأخضرين) نفسه وأخوه،

(وأخضرا) هو أخضر المازني زوج أم معبد الشاعر، فنسب إليه هو

وأخوه عباد الذي قتله الخوارج، فتقدم معبد وجماعة من بني مازن

للأخذ بثأره، وحاربوا الخوارج، أنظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي

(٢/٧٥٠) والسكامل للمبرد (٣/٢٥٨).

أو في السرارة من تيم رخصيت بهم
أو من بني خلف الخضر الجلاعيد (١)

وقال بعض الأدباء : المراد بالخضرة في بيت حسان : الكرم على حدة
تشبيههم بالبحر لأنه أخضر ، وهذا لا يصح في بيت الهمي ، لقوله أخضر
الجلد ، والجلدة ليست مما توصف بالكرم .

أما قول جرير :

كسا اللؤم تيم خضرة في جلودها
فويلا ليم من سرايلها الخضر (٢)

فإنه لم يرد بالخضرة هنا خضرة كرم ، ولا تصحيح نسب ، وإنما أراد
أنها خضرة لؤم ودفنس ، أي قد حالفهم اللؤم حتى صار كاللباس عليهم .

(١) البيتان من البسيط ، و (الصيد) هم الملوك ، (أو في السرارة من تيم)
أي في الصميم منهم ، (الجلاعيد) جاء في الصحاح (جلعد) ، (الجلعد :
الصلب الشديد والجلاعد من الإبل : الشديد) اهـ .
أنظر ديوانه (١٣٣) .

(٢) البيت من الطويل من قصيدة لجرير يهجو بها التيم ثم عدى ،
والسرايل جمع سربال ، وهو القميص ، جعل لهم سرايل سودا من
اللؤم على عريق المثل ، لأنهم يقولون للكريم النقي العرض ، هو طاهر
الثوب أبيض السربال ، ورواية الديوان :

كسا اللؤم تيم خضرة في رجودها
فياخزي تيم من سرايلها الخضر

وأنظر سيدييه (٣٣٣/١) ، شرح المفصل (١٢١/١) ، المقضب (٢٢٠/٣) ،
ديوانه (٢١٢) .

وأما قوله : الجلدة ، فإنها والجلد سواء ، وليس المراد بالجلدة هنا القطعة من الجلد .

والدليل على أن الجلدة تأتي بمعنى الجلد قول الفرزدق لما سئل عن
عن نصيب : هو أشعر أهل جلده ، وقول عمرو بن العلاء (١) وهو أحد
القراء السبعة لأبي خيرة (٢) الأعرابي البصري : هيهات لانت جلدة
يا با خيرة .

والله أعلم

(١) أفطر بغية الوعاة (٢٣١/٢)

(٢) المرجع السابق (٣١٧/٢)

البيت الثاني قول الشاعر :

ليث هزبر مدل عتد خيسته

بالرقتين له أجر وأعراس (١)

البيت لمالك بن خالد الخناعي من بحر البسيط .

وفي (ليث) قولان : أحدهما أنه من اللوثة بمعنى القوة .

ومن ذلك قول ليلى الأخيلية :

غضوب للهامة ذات لوث

أمون الخلق سيرمها غلاب (٢)

وأصله : لبوت ، فقلبت الواو باء ، لاجتماعهما ساكنا أولهما ، ثم

(١) انظر شرح المفصل لابن يعيش (٤/١٢٣ ، ٥/٢٥ ، ١٠/٢٣) ،
توجيه اللمع لابن الخبار (٩) ، ديوان الهدلين (٣/٤) .

(٢) البيت من الوافر ، وقصف فيه ليلى ناقها بالقوة والأمان ، وعدم
المبالاة في السير .

اللغويات : (غضوب) فعول صيغة مبالغة في الغضب ، خبر لمبتدأ
محذوف يعود على الناقة (للهامة) مفردا مهمة ، وهي المغازة ، خبر مقدم
(لوث) مبتدأ مؤخر ، وفي الصحاح : (اللوثة : مس من الجنون ،
ويقال أيضا ناقة ذات لوثة أي كثيرة اللحم والشحم ، واللوث - بالفتح -
القوة) اهـ

(أمون الخلق) أي وثيقة الخلق ، قد أمنت العثار والإعياء ، والجمع
أمن ، وهي خبر لمبتدأ محذوف يعود على الناقة أيضا . (الغلاب) المغالبة
وانظر اللسان (أمن - مهمة - غلب) .

حذفت الثانية تخفيفاً كبيت بالسكون ، كما في قوله تعالى : (أوجب أحكم أن
يأكل لحم أخيه ميتاً) (١) ، وكقول الشاعر :

ومنهل فيه الغراب ميت

سقيت منه الناس واسيقت (٢)

وثانيهما : أنه من الليانة بمعنى الشجاعة ، وعلى ذلك قول روية ابن
العجاج :

وقد بلوا منك بليت أليث

أعطى أبا سارة حمض المقلت (٣)

وعلى القول الأول يكون وزن ليث : قيل ، بحذف عين الكلمة ،
وعلى القول الثاني يكون الوزن : فعل ، قال ابن إياز في المحصول شرح

(١) الحجات آية رقم ١٢

(٢) البيت من الرجز ، ذكر في العزة لابن الدهان (٤٢٧/٢) ،
والمحصول في شرح الفصول (٢٣٦) بدون ذكر قائله .

اللغويات : (ومنهل) ماء في القاموس (نهل) : (النهل — محرقة —
أول مشرب والمنهل : المشرب ، والشرب ، والموضع الذي فيه المشرب) اهـ
ومشاعر يصف منها صدفة ، وفيه غراب ميت ، وهذا كناية عن
صيعته ، ومع ذلك ارتوى منه ، وأروى غيره .

(٣) البيت من الرجز ، من قصيدة بمدح بها محمد بن الأشعث الخزاعي ،
وأبا سارة هو عدوه

اللغويات : (الليث) الأسد ، والجمع ليوث (الأليث) الشجاع ،
وجمه ليث ، وهو صفة لليث ، تنوع من الصرف للوصفة ووزن الفعل
(المقلت) المقارب من الوجع ، ليس يضجع صاحبه ولا يعرق ، وانظر
(ليث — حمض — غلث)

الفصول (١) : (وهذا تنبيه ، وهو أنهم حيث أعلوا العين في هذا بالقلب
اجترؤا عليها بالحذف ، فقالوا : ميت وسيد ، وقد قرئ به ، وقال
الشاعر :

ومثل فيه الغرب ميت

فوزه : قبل ، وبعضهم يرى أن المحذوفة الزائدة ، فلوزن عنده :
فمن) اهـ

والظاهر أنه الصواب ، وذلك لسلامة من الحذف ، ولأنه لم يسمح
فيه التثقين :

وهو ، أى (ليث) فى البيت مرفوع على البدل من (ذوجيد) فى
البيت الذى قبله ، وهو :

يامى لا يعجز الأيام ذوجيد

فى حومه الموت رزام وفراس (٢)

(١) انظر المحصول شرح الفصول (٢٢٦)

(٢) البيت من البسيط ، وهو من شواهد سيديويه (٦٧/٢) ، ونسبة
لمالك من خالد الحناعى أيضا ، وقال الاستاذ عبد اسلام هارون فى تحقيقه
على الكتاب : (وذكر الشنمري أن الشعر يروى أيضا لأبى ذؤيب .
وقد أورد السكرى القصيدة مرتين ، ونسبها فى الأولى إلى أبى ذؤيب ، ثم
قال : قال أبو نصر : وإنما هى لمالك بن خالد الحناعى ، وفى الثانية إلى
مالك بن خالد . ثم قال : وتفحل أبو ذؤيب قال الشنمري : وصف أسد ،
ورفع فى إقشاد البيت علط ، وهو قوله : ذوحيد ، والصواب : مبترك ،
وهو الأسد البارك) اهـ

(مى) منادى مرحم على لغة من لا ينتظر ، (وذوحيد) من وصف
الوعلى ، وهو تيس الجبل ، والحيد : تنوء فى قرنه ، واحداً حيدة ، كضبع
وضيعة ، (وحرمة الموت) مجتمعه ، (والرزام) مبالغة من الرزم ، —

ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوف .

ويقول : (هزير)^(١) فعل ، وهو الغليظ الضخم ، صفة لليت ، ومنه الهزير للشيء الخلق وقيل الكيس القطن ، على وزن فعلن ، بزيادة النون ، لأنها وقعت ثالثة ساكنة ، وبعدها خرفان .

وقوله : (مدل)^(٢) بكسر الميم وسكون الدال وتخفيف اللام : القليل اللحم ، وبفتح الميم : الخسيس واللبن الحائر ، وبتشديد اللام كما في البيت : المنبسط ، وهو صفة أخرى لليت ،

وقوله : (عند) ظرف مكان إذا أُضيف إلى مكان ، كما في البيت ، وأما إذا أُضيف إلى غيره ، يكون للزمان . وقد لزم القصب على الظرفية ، ولم يجر إلا بمن خاصة ، وفيه ثلاث لغات : كسر العين ، وصحها ، وفتحها ، وهو متعلق بقوله (مدل) أى يدل في هذا الموضع ، ويجوز أن يكون نعنا لمدل ، ويتعلق بمحذوف ، أى مدل كائن عند خيسته ، وفيه ضمير راجع إلى الموصوف .

وقوله : (خيسته) بجرورة بإضافة هذا إليه ، وهو الشجر الملتف ، جاء في القاموس (الخيس) : (الخيس — بالكسر — الشجر الملتف ، أو ما كان حلقاه وقصبا ، وموضع الأسد كالخيصة ، والجمع ، : أخياس ، وخيس ، واللبن والدر ، يقال : أقل الله خيسته) اهـ

وقوله : (بالرفتين) قال ابن دريد^(٣) : هما روضتان إحداهما قريب من البصرة .

== وهو الصرع ، وكذا الفرس ، وهو دق العنق ، ومنه الفريسة . وهما وصفان لذو حيد .

(١) انظر القاموس المحيط (هزير)

(٢) انظر المرجع السابق مادة (مدل)

(٣) انظر الاشتقاق لابن دريد (٧٢)

والأخرى بفجر^(١) ، وقيل : بل كل روضة مزهرة رقة .

وهو جار ومجرور، والياء بمعنى في ، ولا يكون ظرفاً لمدل ، مع كون
عند ظرفاً له ؛ لاستحالة كون ظرفين لشيء واحد .

فإن قيل : هل يجوز أن يكون بدلا من قوله : (حيثه) ، كقولك :
قعدت في مكان زيد في داره ؟

أجبت : لا يجوز ، لأن الرقمتين أهم من الخيسة ، ولا يبدل الأعم من
الأخص ، ولكن يجوز أن يكون منصوب الموضع على الحال من الياء في
خيسته ، أي كأننا بالرقمتين ، وقد جاء الحال من المضاف إليه في قول
تأبط شراً :

سلبت مسلحي يائساً وشتمتني

فياخير مسلوب وياشر سالب^(٢)

فبائساً حال من الياء في مسلحي ، وبجىء الحال من المضاف إليه فليل ،
لأن العامل في الحال ينبغي أن يكون هو العامل في صاحب الحال .

ولذلك قال ابن الشجري^(٣) : (ولست أرى أن بئساً حال من ضمير
المتكلم الذي في مسلحي ، ولكنه عندي حال من مفعول سلبت المحذوف ،
والتقدير : سلبتني بئساً مسلحي ، وجاء بالحال من المحذوف لأنه مقدر
عنده منوى ، ومثل ذلك في القرآن قوله عز وجل : (ذرني ومن خلقت

(١) نجر : أرض مكة والمدينة ، ونجراة بلد باليمن . انظر القاموس
(نجر) .

(٢) البيت من بحر الطويل . انظر أمالي ابن الشجري (١/١٧، ٢/٢٢٨)

(٣) انظر الأمالي الشجرية (١/١٧، ١٨) ، وخزانة الأدب ١٤٧/٣ .

وحيداً) (١) ، فوحيداً حال من الهاء العائدة في التقدير على من ، ومثله (أهذا الذي بعث الله رسولا) (٢) ألا ترى أنك لا بد أن تقدر خلقته وحيداً ، وبعثه الله رسولا ، لأن الاسم الموصول لا بد له من عائد لفظاً أو تقديرأ .

ولما وجب العدول من نصب بائس على الحال من الياء التي في ملاحى ، لما ذكرته لك من عزة حال المضاف إليه ، فإذا وجدت مندوحة عنه وجب تركه . وسلب يتعدى إلى مفعولين ، يجوز لاقتصار على أحدهما ، كقولك : سلبت زيدا ثوباً ، وقالوا : سلبت زيد ثوبه بالرفع على بدل الاستعمال ، وثوبه بالنصب على أنه مفعول ثان ، وفي التنزيل (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) (٣) .

فيجوز على هذا أن تجعل بائساً مفعولاً ثانياً بتقدير حذف الموصوف ، أى سلبت سلاحى رجلاً بائساً .

ومما جاءت فيه الحال من المضاف إليه في القرآن قوله تعالى : (قل بل ملة إبراهيم حنيفاً) (١) قيل : إن حنيفاً حال من إبراهيم ، وأوجه من ذلك عندي أن يجعله حالاً من حالاً من الملة ، وإن خالفها في التكبير ، لأن الملة في معنى الدين ، ألا ترى أنها قد أبدلت من الدين في قوله جل وعز : (ديناً فيما ملة إبراهيم) (٥) ، فإذا جعلت حنيفاً حالاً من الملة فالنصب له هو الغاصب للملة ، وتقديره : بل تتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وإنما أصمر تتبع ،

(١) سورة المدثر آية (١١) .

(٢) سورة الفرقان آية (٤١) .

(٣) سورة الحج آية (٧٣) .

(٤) سورة البقرة آية (١٣٥) .

(٥) سورة الأنعام (١٦١) .

لأن ما حكاه الله عنهم من قولهم : (كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا)
معناه اتبعوا اليهودية أو النصرانية ، فقل لنبيه : (قل بل ملة إبراهيم
حنيفاً) . (ا . ه ابن الشجرى .

وقال البغدادى فى الخزانة () : (قال أبو على فى المسائل الشيرازيات :
قد جاء الخال من المضاف إليه فى نحو ما أنشده أبو زيد :

عوذ وبهشة حاشدون عليهم
حاق الحديد مضاعفاً يتلمب (٢)

انتهى كلامه) ا . ه . مضاعفاً حال من الحديد ، وهو المضاف إليه .

قال ابن الشجرى فى المجلس السادس والسبعين فى أماليه : (والوجه
فى هذا البيت فيما أراه أن مضاعفاً حال من الخلق لا من الحديد لأمرين :
أحدهما : أنه إذا أمكن مجيء الخال من المضاف كان أولى من مجيئه من
المضاف إليه ، ولا مانع من البيت من كون مضاعفاً حالاً من الخلق ، لأننا
فقو : خلق محكم وبحكمة . والآخر : أن وصف الخلق بالمضاعف أشبه
من وصف الحديد به ، ويجوز أن تجعل مضاعفاً حالاً من المضمر فى يتلمب ،

(١) أنظر الخزانة (٢٥٥/٣) .

(٢) البيت من بحر الكامل لزيد الفوارس أنظر أمالى ابن الشجرى
(١٦٧/١ ، ٣٢٧/٢) ، الطمع (٢٤٠/١) . اللغويات : (عوذ) أبو حى من
العرب ، (بهشة) أبو حى من ساجم (حاشدون) يقاب : فلان جاء حاشداً ،
أى مستعداً متهيئاً والحشد يكون لازماً ومتعدياً ، يقال : حشد القوم : إذا
اجتمعوا ، وحشدتهم : أى جمعتهم ، (حلق الحديد) الحلقة — بالتسكين —
الدرع ، والجمع حاق — بالفتح — على غير قياس . أنظر الصحاح (عوذ
— بهت — لمب) .

ويتلهم في موضع الحال من الخلق ، فكأنه قال : عليهم خلق الحديد
يتلهم مضاعفاً (ا هـ) .

وقال السيوطي في اللمع (١) : (وحق صاحب الحال أن لا يكون
مجروراً بالإضافة كما لا يكون صاحب الخبر ، لأن المضاف إليه مكمل
للمضاف وواقع منه موقع التنوين ، فإن كان المضاف بمعنى الفعل حسن
جعل المضاف إليه صاحب الحال ، لأنه في المعنى فاعل أو مفعول ، نحو
(إليه مرجعكم جميعاً) (٢) ، وعرفت قيام زيد مسرعاً ، وجوز بعض
البريين ، وصاحب البسيط جيء الحل من المضاف إليه مطلقاً وخرجوا
عليه (إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) (٣) ، وقوله (خلق الحديد مضاعفاً
يتلهم) وجوزة الأخفش وابن مالك إن كان المضاف جزء ما أصيف إليه
أو مثل جزئه ، نحو (ما في صدرهم من غن إخواناً) (٤) ، (ملأ إبراهيم
حنيفاً) لأنه لو استغنى به عن المضاف ، وقيل : ونزعنا ما فيهم إخواناً ،
واتبع إبراهيم حنيفاً ، لصح (ا هـ) .

وقوله : (وأجر) (٥) جمع جرو ، بكسر الجيم ، وهي اللغة الفصيحة ،

(١) انظر اللمع (٢٤٠/١)

(٢) سورة يونس آية (٤) .

(٣) سورة الحجر آية (٦٦) .

(٤) سورة الحجر آية (٤٧) .

(٥) في القاموس (الجرو) : (مثلثة صغير كل شيء ، حتى الحنظل

والبطيخ ونحوه ، والجمع : رجر وجراء ، وولد الكلب والأسد) ا هـ .

وجاء في هاشم القاموس (قوله : صغير كل شيء . قال الشارح :

التثنية إنما ذكر في ولد الكلب والسباع ، أما في الصغير عن كل شيء ،

فالمسموع الجرو . والجرو بكسرهما) ا هـ .

نصر على ذلك أبو على الفارسي في الإيضاح (١): باب جمع الأسماء الثلاثية؛ حيث قال: (وربما كسر على أفعل، وذلك ذئب وأذؤب، وجرو وأجر، ورجل وأرجل) ٥. ١.

وأصله: أجرو، فأبدلت ضمة الراء كسرة، ثم أبدلت الواو ياء، لوقوعها طرفاً وانكسار ما قبلها، فصدر إلى أجرى، استعظمت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والتنوين، فحذفت الياء، وعلمته أله. ليس في كل م العربية اسم متمكن آخره واو قبلها ضمة، واغتفر ذلك في الأفعال نحو يدعو ويفزو دون الأسماء، لأن الأسماء يلحقها الجر، وياه النسب والإضافة إلى ياء المتكلم، فكان يلزم أن يقال: بأجرو، فتجتمع ضمة، وواو، وكسرة، وكذلك أجروى منسوباً، فتجتمع ضمة، وواو مكسورة، وياءان، وكذلك أجروى، مع ياء المتكلم، فتجتمع ضمة، وواو وكسرة، وياء واحدة، وذلك مستثقل، فقلبت الواو ياء، لأن الياء على كل حال أخف من الواو.

وأما الفعل فقد أمن لحاق ذلك أجمع له، مع أن واوها معرضة للحذف في الجزم، وليست في الأسماء كذلك.

معم لو سميت ييغزو رجلاً، وهو مجرد عن الضمير، لقلبت الضمة لقلبت الضمة كسرة، والواو ياءاً، فقلت: هذا يغير، ومررت ييغز، عنونين في حالي الرفع والجر كجوار، ورأيت ييغزى، غير ممنون في حالة النصب كجوارى، ولو سميت به وفيه ضمير لحكيتته، لأنه حلة.

قال ابن جني في الخصائص (٢): باب في ملاطفة الصنعة: وذلك أن ترى العرب قد غيرت شيئاً من كلامها من صورة إلى صورة، فيجب حينئذ

(١) انظر الإيضاح (١٣٢)

(٢) أنظر الخصائص (٤٧٠/٢).

أن تتأني لذلك وتلاطفه، لأن نخبطه وتتعسفه، وذلك كقولنا في قرطهم في تكسير جرو، ودلو : أجر، وأدل : إن أصله أجرو، وأدلو . فقبلوا الواو ياء، وهو — لعمرى — كذلك، إلا أنه يجب عليك أن تدلن الصنعة، ولا تعاذها، فنقول : إنهم أبدلوا من ضمة العين كسرة، فصار تقديره : أجرو، وأدلو، فلما أنكسر ما قبل الواو — وهى لام — قلبت ياء، فصارت أجرى، وأدلى .

وإنما وجب هذا العمل هذا الترتيب، من قبل أنك لما كرهت الواو هنا، لما تعرض له من الكسرة والياء في أدلوى (١)، وأدلوى (٢) لو سميت (٣) رجلاً بأدلو، ثم أضفت إليه .

فلما ثقل ذلك بدؤوا بتغيير الحركة الضعيفة تغييراً عبطاً وارتجالاً، فلما صارت كسرة تضرفوا بذلك إلى قلب الواو ياءاً نظراً صناعياً، ولو بدأت فقلبت الواو ياء بغير آلة القلب من الكسرة قبلها، لكنت قد استكرهت الحرف على نفسه تهالكاً وتعجرفاً لارفقاً وتلطفاً، ولما فعلت ذلك فى الضمة، كان أسهل منه فى الواو والحرف، لأن ابتداء الضميف أقرب مأخذاً من انحسارك على القوى، فأعرف ذلك أصلاً فى هذا الباب (١) .

والأحسن فى رفع (أجر) فى البيت أن يكون بقوله : (له)، لأن (له) نعت لما قبله أو حال، والضرف أو فلجار والمجرور إذا كان أحدهما كذلك

(١) يقصد حال إضافتها إلى ياء المتكلم،

(٢) يقصد حال النسب إليها .

(٣) شرط أن يكون اسماً، لأنه جمع فلا ينسب إليه على لفظه إلا إذا كان علماً، وإلا نسب إلى مفرده .

ارتفع به الاسم وجوبا على أنه فعل عند الأكثرين ، ويجوز الرفع على أنه مبتدأ .

قال ابن هشام في المغنى (١) : (إذا وقع بعدهما - أنى الظرف والجار والمجرور - مرفوع ، فإن تقدمهما نفي أو استنهام أو وصوف أو موصول أو صاحب خبر أو حال ، نحو ما فى الدار أحد ، وأنى الدار زيد ، ومروى برجل معه صقر ، وجاء الذى فى الدار أبوه ، وزيد عندك أخوه ، ومروى يزيد عليه جبة ، فى المرفوع ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الأرجح كونه مبتدأ مخبرا عنه بالظرف أو المجرور ، ويجوز كونه فاعلا .

والثانى : أن الأرجح كونه فاعلا ، واختاره ابن مالك ، وتوجيهه أن الاصل عدم التقديم والتأخير .

والثالث : أنه يجب كونه فاعلا ، نقله ابن هشام عن الأكثرين .

وحيث أعرب فاعلا ، فهل عامله الفعل المحذوف ، أو الظرف أو المجرور ، لئلا يتما عن استقرار ، وقربهما من الفعل لاعتمادهما ، فيه خلاف ، والمذهب المختار الثانى ، بدليل امتناع تقديم الحال فى نحو زيد فى الدار جالسا ، ولو كان العامل الفعل لم يمتنع (ا . هـ) .

ويجوز رفع (أجر) أيضا بالرفعتين ، لأن الجار والمجرور فى موضع حال أو صفة ، ومن رفع أجر بالإبتداء ، فله الخبرية وباقتين صفة لأجر فى الاصل ، فلما تقدم عليه نصب على الحال .

(١) انظر المغنى - الباب الثالث - أحكام شبه الجملة (٤٤٣/٢) ، ويراجع مع الهوامع للسيوطى (١٠٧/٢) .

ويجوز أن يكون بالرقتين خبره . (وله) صفة تقدمت فصارت حالا .

وقوله : (وأعراس) عطف على أجر ، وهو جمع ، مفردة يدرس — بالكسر — وهي إمراة الرجل ، وأيضا لبؤة الاسد (١) ، وهو المقصود في البيت .

والله أعلم

(١) أنظر القاموس (عروس) .

البيت الثالث قول الشاعر :

حديا الناس كلهم جميعاً

مقارعة بينهم عن بذيها (١)

البيت لعبرو بن كلثوم من معانته المشهورة .

قوله : (حديا) من أسماء المصادر التي جاءت مصغرة ، نحو الهديا ،
والحجيا للمحاجة ، والعجلى للإسراع ، والهوينى للرفق ، من الهون .

والدليل على أن الحديا مصدر ، إفراده في التثنية والجمع ، كقوله :
هو حدياً زيد ، وهما حدييه ، وهم حدياه ، وأنا حديك ، ونحن حدياك ،
وهي من التحدى والمباراة في الفعل ، والمنازعة في الغلبة ، تقول : أنا
حدياك في المباراة في الحرب ، وأنا حدياً بكر في المفاخرة .

وهي من المصادر الواقعة موقع اسم الفاعل ، نحو رجل عدل ، وما
غور بمعنى عادل وغاثر ، وكذلك حدياً بمعنى متحد ، وموضعه رفع على أنه
خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : نحن حدياً الناس .

وقوله : (الناس) ، قال البغدادى في الخزانة (٢) : (وأعلم أنهم اختلفوا
في (ناس) ، فقال الجمهور : أصله أناس ، فقليل جمع إنسان ، وقيل : اسم

(١) البيت من الوافر ، وانظر شرح المعاني السبع (١٥١) ، ومحاسن
ثعلب (٤٦٠/٢) .

المعنى : يقول متحدى الناس كلهم بمثل مجدنا وشرفنا ، وتقارع أبناءهم
ذابين عن أبنائنا . أى يضر بهم بالسيوف حماية للحرية ، وذبا عن
الأبناء .

(٢) انظر الخزانة للبغدادى (٢٨٧/٢) .

جمع له . وقال الكسائي : هو اسم تام ، وعينه واو ، من ناس ينوس إذا تحرك ، وعلى هذا في علاقه على الجن واضح ، قال في القاموس : والناس يكون من الإنس والجن (ا. ه .

واستدل الجمهور على مذهبهم بقولهم : لأنه مشتق من الأنس ، و الألف زائدة ، ثم حذفت الهمزة وهي الفاء تخفيفاً ، فقليل : ناس ، والوزن عال ، والنقص والإتمام فيه متساويان في كثرة الإستعمال مادام منكوراً ، فإذا دخلت عليه الألف واللام ، والتزموا فيه الحذف ، فقال : الناس ، ولا يكادون يقولون : الأناس إلا في الشعر ، كقوله :

إن المتأيا يطلم

من على الأناس الآمنينا (١)

واستدل الكسائي والكوفيون على أنه من النوس ، ووزنه فعل بتصغيره على نويس ، ولو كان منقوصاً من أناس لرده التصغير إلى أصله ، فقل : أنيس .

قال ابن الشجري في أماليه (١) مرجحاً رأي جمهور البصريين : (والصحيح ما ذهب إليه جماعة البصريين ، ووافقهم فيه القراء ؛ لقول العرب : أناس ، وإنما كثر حذف فائه ، وإذا دخل عليه الألف واللام ، ولا يكادون يقولون : الأناس إلا في ضرورة الشعر كقوله :

إن المتأيا يطلم على الأناس الآمنينا

-
- (١) البيت من مجزوء السكامل ، وهو الذي حدى الحمير ، أنظر شرح الشافعية (٢٩٦/٤) ، والخصائص (١٥١/٣) ، أمالي ابن الشجري (١٢٤/١) ، وشرح المفصل (١٢١/٥) ، والخزانة (٢٨٢) .
(٢) أنظر أمالي ابن الشجري (١٢/٢) .

ولما قالوا في تحقيره : نويس ، فلم يردوا فاته ، لأن رد المحذوف إنما يلزم في التحقير للحاجة إليه ، كقولك في تحقير عدة ، وعبدته ، ووزيته ، وفي سه ، ستيه ، وفي أب ، وأخ : أئى وأخى ، ألا ترى أنك لو لم ترد المحذوف من عدة ، أرفعت ياء التحقير ثالثة بعد الدال ، وحركتها بالفتح لوقوع تاء التأنيث بعدها ، فصارت السكبة إلى عديه بزنة فعلة كـرطبة ، وحقيقة رنما : عليه ، لأن وزن عدة : علة ، والياء زائدة للتحقير ، تخرجت بذلك عن مثال التحقير ، ثم انقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصارت إلى عدة ، وهذا إفساد مستحكم ، لأن ياء التحقير لا تمسها الحركة ، كما لا تحسن ألف التكسير التي في مثال مفاعيل ، فكيف تحريكها ثم قلبها ألفا ، وكذلك لو لم ترد عين سه ، فتقل سديه ، لزمك أن نقول : سديه مثل رطبة ، فتحرك ياء التصغير ثم قلبها ألفا ، وهذا فساد اللام من أب وأخ ، وقعت ياء التحقير طرفاً ، ولزم تحريكها بحركات الإعاب ، ثم قلبها ألفا لا تفتح ما قبلها ، فصار إلى أبا وأخاً . وليس في تحقير أفاًس إذا لم ترد المحذوف شيء يخرج باب التحقير عن قياسه ، لأن قرئنا تاس وإن كان بوزن عال ، فإنه مماثل لباب ، وإن كان باب وزنه فعل ، فكذلك تحقيره ، وإن كان نويس وزنه : عويل وبويب وزنه فعيل (أهـ)

وقال ابن يعيش في شرح المفصل (١) : (اعلم أن الاسم إذا حذف منه شيء وبقي بعد الحذف ما يحصل به بناء التصغير ، وهو ثلاثة أحرف ، لم يرد المحذوف ، لأن الحذف لم يكن عنه علة تزول في التصغير ، وإنما كان الحذف لغرب من التخفيف في المكبر ، وهو أحوج إليه في المصغر لزيادة حروفه فلذلك تقول في ميت مخفف من ميت : ميت ، نيان واحدة بعدها ياء التصغير ، ولم ترد المحذوف ، لأن القرض من رد المحذوف نحو أب

وأخ تحصيل بناء التصغير ، وهو فعيل ، وذلك حاصل من ميت ، فلم يحتج إلى رد المحذوف يمثل ميت ، بثلاث ياءات ، وتقول في تصغير ناس : نويس ، ولو رددت المحذوف لقلت : أنيس ؛ لأن أصله أناس ، فحذفت الفاء منه ، وهي الهعزة ، وصارت ألف فعال كالعوض من المحذوف (١)

وكلمة (الناس) محفوفة بإضافة (حديا) إليها ، وموضعها ونصب لآلهام مقول .

وقوله : (كلمهم) بالجر تأكيد على اللفظ ، ولو نصب حملا على المعنى لكان حائزا كقولك عجبت من ضرب خالد الظريف ، بخفض ونصبه على ما ذكرنا .

ولفظ (كل) لفظه مفرد ، ومعناه الجمع ، فالضمير تارة تعود على لفظه مفردا كهو لك : كل الرجال ضربته ، وتارة يعود على معناه مجموعا كهوهم : كل الرجال ضربتهم ، ونظيره كلا ، فإنه عند البصريين (١) مفرد اللفظ ، مثق المعنى ، فيعود الضمير إليه على ذينك الوجهين ، قال تعالى : (كلنا (٢) لحتتين آتت أكهما)

وقال الشاعر :

كلاهما حين حد الجرى بينهما

قد أقلت وكلا أنفيهما رابى (٣)

(١) انظر الإنصاف مسألة (٦٢)

(٢) سورة الكهف آية (٣٣)

(٣) البيت من السسيط للفرزدق ، قال الصبان في حاشيته (٧٨/١) :

إن البيت في وصف فرسين ، وبه قال العيني أيضا . وقال حبي الدين في

تحقيقه على الأشموني (٤٥/١) : (إن البيت للفرزدق من كلمة يهجر فيها —

قل عبد القاهرة (١) : والأكثر في كل : العود على المعنى ، وفي كلا : على اللفظ .

وقوله : (جميعا نصب على الحال من الناس ، وناصية : حديا .

وقوله : (مقارعة) مصدر قارع ، وهو منصوب على الحال من الضمير الذي في حديا ، وحديا هو العاص فيها أيضا ، والتقدير : نحن نتحدى الناس مقارعين بينهم عن نبينا ، ويجوز أن يكون حالا من الناس ؛ لأنه قد عاد الضمير عليهم من قوله : بينهم .

= جريرا ، وكان جرير قد زوج ابنته عضيرة الأبلق ، فغيره الفرزدق .
وهجاء ، وقهل البيت المستشهد به قوله :

ما كان ذنب التي أقبلت تقتلها

حتى اقتحمت بها أسكفة الباب

ولما لم يقب العيني والسيوطي على أصل هذه الكلمة زعما أن بيت الشاهد في وصف فرسين ، وقد تبعهما على ذلك كثير من العلماء ، منهم العلامة الأمير والصبان والضمير في كلاهما وما بعده يعود إلى عضيدته بنت جرير ، والأبلق زوجها ، أو يعود إلى جرير وابنته ، على نوع من الالتعاف ، إذا كان من حق الكلام أن يقول : كلا كما حين جدد الجرى (ينسكا) اهـ

وقوله (تعلمها) مضارع عتل أي نجد بها حذبا عتيقا ، (أسكفة الباب) - بضم الهمزة وتشديد الفاء - عتبة ، (جد الجرى) عظيم واشتد ، والإسناد فيه مجاز عقلي ، والأصل جدا في الجرى (أقلعا) الإقلاع عن الشيء . السكف عنه وربو الأنف إرتفاعه عند النعيب من جرى ونحوه .

(١) انظر المرتجل في شرح جمل الجرجاني (٣١)

وقوله : (بنهم) جمع ابن . وهو بالواو في الزفع . وبالياء والنصب والحر ، ومع هذا ليس بجمع سالم مطلقا ، هو يدخله شائبة من التغير ، فلذلك أنت الفعل المستند إليه ، كقولك : جاءت بنو زيد ، ويمنع جاءت الزيدون .

قال الشاعر :

قالت بنو عامر خالوا بني أسد

يا بؤس للجهل ضرارا لأقوام (١)

ونومه مخدوفة للإضافة ، وهو منصوب بمقارعة .

(١) البيت من المسأط للناطقة الذبياني . اللغة : (خالوا) أي تاركوهم وقاطعوهم . ومنه قيل للدرأة خليته إذا حلفت . (يا بؤس للجهل) يعني : ما أبأس الجهل على صاحبه وأضره للناس ، واللام في (للجهل) زائدة بين المضاف والمضاف إليه ، قال سيوريه (٢٧٧/٢) : (ومثل هذا الكلام قول الشاعر إذا اضطر . للناطقة : يا بؤس للجهل ضرارا لأقوام . حملوه على أن اللام لو لم تجى لقلت : يا بؤس للجهل) اهـ

و (ضرارا) حال . وقد جعله المبرد من المضاف الذي هو المنادى ، والعامل فيه حرف النداء . وبين العلماء من جعل هذه الحال من المضاف إليه الذي هو الجهل ، فيكون العامل فيه هو المضاف . لأنه هو العامل في صاحبه ، قال الرضي في شرح الكافية (١٣٢/١) : (اعلم أنه قد ينصب عامل المنادى المصدر اتفاقا ، نحو يا زيد دعاء حقا . وأجاز المبرد نصبه للحال ، نحو يا زيد قائما ، إذا ناديته حال قيامه ، ومنه قوله :

يا بؤس للجهل ضرارا لأقوام

والظاهر أن عاملة بؤس الذي بمعنى الشدة ، وهو مضاف إلى صاحب الحال — أعنى الجهل — تقدير الريادة اللام . فهو مش أعجبنى مجيء زيد
راكباً) اهـ

والمقارعة متعددة إلى المفعول بدليل قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بن فلول من قراع الكتائب (١)

تقديره : من قراعها الكتائب .

وقوله : (عن بيتنا) متعلق بمقارعة .

وقال نعلب (٢) : المراد بالمقارعة هنا المفاخرة ، يريد أن المفاخرة

= وهكذا نرى أن الرضى بعد أن نقل مذهب المبرد ، واستظهر غيره ،
ورجح البغدادى رأى المبرد ، قال فى الحزانة (١٣٠/٢) : (أقول من
جعل عامل الحال النداء جعل الحال من المضاف ، وفيه مناسبة جيدة ، فإن
الجهل صار ، وبؤسه ضرار) اهـ ، وانظر فى البيت : الإنصاف (٣٣٠/١) ،
شرح المفصل (٦٨/٣٠) ، أمالى ابن السجرى (٨٠/٢) ، والخصائص
(١٠٦/٣) ، ديوانه (١٠٥) .

(١) البيت من الطويل من قصيدة يمدح فيها عمرو بن الحارث الغساني
حين هرب إلى الشام . اللفظة : (الفاول) جمع فـ - بفتح الفاء - وهو كسر
فى حد السيف ، يقال : فله فاففل ، أى كسره فانكسر ، وفلئت الجديش :
هزمته (القراع) والمقارعة : المضاربة . والبيت جاء على طريقة تأكيد
المدح بما يشبه الذم ، فإنه نفى العيب عن هؤلاء القوم على حجة الاستفراق ،
ثم أثبت لهم عيباً وهو تشلم سيوفهم من مضاربة الجيوش ، وهذا ليس بعيب .
بن هو غاية المدح . و (غير) منصوب على الاستثناء المنقطع ، أى ولكن
سيوفهم بن فلول ، هكدا قال سيديويه . انظر الكتاب (٣٣٦/٢) ، العمدة
(٤٨/٢) ، لإصلاح المنطق (٢٤) ، شواهد المعنى (٣٤٩) ، ديوانه (١١) .

(٢) انظر بحالى نعلب (٤٦٠/٢) .

ضرب من المقارعة ، لأن كل واحد من المفاخرين يقارع صاحبه ليغلبه بالمفاخرة ، فيصير التقدير : مفاخرين أبنائهم عن أبنائنا .

ويجوز أيضاً أن يكون (حدياً) حالاً بعد حال من البيت الذي قبله ، وهو :

نصبنا مثل رهوة ذات حد محافظه وكنا السابقينا

ويكون التقدير : محافظين متحدين ، ويجوز أن يكون خيراً ثانياً لقوله : كنا أي وكنا السابقينا ومتحدى الناس ، وكان هنا يراد بها الاستمرار في الزمان كقول الشاعر :

وكنتم أمراء لا أسمع الدهر سبة
أسبب بها إلا كشفت غطاءها (١)

ومنه قوله تعالى : (وكان الله عزيزاً حكيماً) (٢) .

وكقول الآخر :

وكنتم إذا غمزت قفاة قوم كمرت كعوبها أو تستقيها (٣)

(١) البيت من الطويل لقيس بن الخطيم الأرمي . قال المرزوقي في الحاشية (١٨٦/١) : (يروى : لا أسمع ، ولا أسمع) اهـ . يقول : كنت رجلاً لا أعير شيئاً طوال الدهر إلا بيغت للنفس براءة ساحتي منه ، وحقيقة (كشفت غطاءها) أي لم أترك الشبهة ملتبسة علي سامعها ، فكان يتردد بين تصديقها وتكذيبها .

والشاهد هنا : مجيء (كان) في البيت يراد بها الاستمرار في الزمان .

(٢) سورة النساء آية رقم (١٥٨) .

(٣) البيت من الوافر ، لزياد الأعجم ، وسمى بذلك للمكنة كانت =

والآلف في (بنينا) ليست للإطلاق ، بل هي ألف الضمير المتصل
بالتون في مثل أبينا وأحينا ، وكان الأصل : عن بنينا ، فحذفت نون الجمع
الإضافة كما هو معروف . والدليل على أنه مضاف ، أنه مقابل لقوله :
بينهم ، ولما كان هذا مضافاً ، كذلك يكون بنينا ، لتحصل المقابلة .

= في لسانه . اللغة : (الغمز) جس بأيد يشبه الفخس ، (القناة) الرمح
(كموبها) جمع كعب ، وهو الطرف الناشز ، والشعر في هجاء المغيرة بن
جنبة التميمي ، والمعنى : أنه أثارهم بالهجاء وأهلكهم إلا أن يتركوا سبه
وهجاءه ، فإذا اشتد عليه جانب قوم رام قلوبهم إلا أن يستقيموا .

وانظر في البيت شرح المفصل (١٥/٥) ، شذور الذهب (٢٩٩) ، المفتي
حرف (أو) ، سيبويه (٤٨/٣) ، شرح شواهد الإيضاح (٣٥) .

والله أعلم

مراجع البحث

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) الإيضاح لأبي علي الفارسي - مخطوطة دار الكتب .
- (٣) الاشتقاق لابن دريد - تحقيق عبد السلام هارون - الناشر مؤسسة الخانجي بمصر - مطبعة السنة المحمدية - ١٩٥٨ م .
- (٤) إصلاح المنطق لابن السكيت - تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون - الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر .
- (٥) الأمل في الشجرية - لابن الشجري - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان .
- (٦) الإنصاف في مسائل الخلاف - لجمال الدين أبي البركات الأنباري - تحقيق محي الدين عبد الحيد - المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .
- (٧) البحر المحيط لأبي حيان - مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر - الطبعة الأولى - ١٣٢٨ هـ .
- (٨) بغية الوعاة - لسبوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مطبعة عيسى الحلبي - الطبعة الأولى - ١٩٦٤ م .
- (٩) التصريح على التوضيح - لخالد الأزهرى - دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي .
- (١٠) توصية اللمع لابن الخطباز - مخطوطة مكتبة الأزهر .
- (١١) حاشية الدسوقي على المغنى - مطبعة المشهد الحسيني .
- (١٢) حاشية الصبان على شرح الأشموني - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي .

- (١٣) الحيوان للمحافظ - تحقيق عبد السلام هارون - دار الكتاب العربي - بيروت لبنان .
- (١٤) حزانة الأدب - لعبد القادر البغدادي - تحقيق عبد السلام هارون - دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م .
- (١٥) الخصائص لابن جني - تحقيق محمد علي النجار - دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية .
- (١٦) ديوان جرير - الطبعة الأولى - المطبعة العلمية بمصر ١٣١٣ هـ .
- (١٧) ديوان حسان بن ثابت - صححه عبد الرحمن البرقوقي - المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- (١٨) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات - تحقيق محمد يوسف نجم - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت ١٩٥٨ م .
- (١٩) ديوان الهذليين - القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م .
- (٢٠) شذور الذهب لابن هشام - تحقيق محي الدين عبد الحميد - الطبعة السابعة - ١٩٥٧ م - مطبعة السعادة بمصر .
- (٢١) شرح الأشموني - تحقيق محي الدين عبد الحميد - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - ١٩٣٩ م .
- (٢٢) شرح ديوان الحماسة - للهرزوقي - نشر عبد السلام هارون - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى ١٩٥٢ م .
- (٢٣) شرح شافية ابن الحاجب - للرضي الاستراباذي - مع شرح شواهد لعبد القادر البغدادي - تحقيق وضبط محي الدين عبد الحميد وآخرين - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٧٥ م .
- (٢٤) شرح شواهد الإيضاح لابن بري - مخطوطة دار الكتب .
- (٢٥) شرح شواهد المغني - للسيوطي - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت .

(٢٦) شرح كافية ابن الحاجب - للرضي - دار الكتب العلمية - بيروت .
(٢٧) شرح المفصل لابن يوش - عالم الكتب بيروت - مكتبة
المتنبي - القاهرة .

(٢٨) شرح المعلقات السبع للزوزني - مطبعة محمد علي صديق وأولاده
١٩٧٨ م .

(٢٩) شعر أبي حية النخري - جمع وتحقيق يحيى الجبوري -
منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق ١٩٧٥ م .

(٣٠) الصحاح - للجوهري - رواية أبي محمد إسماعيل النيسابوري .
(٣١) العزة (شرح اللمع) لابن الدهان - مخطوطة دار الكتب .
(٣٢) القاموس المحيط - للفيروزبادي - الطبعة الثانية - مصطفى
الباني الحلبي ١٩٥٢ م .

(٣٣) الكامل للمبرد - تحقيق محمد أبو الفصل إبراهيم ، والسيد
شحاته - دار النهضة بمصر للطبع والنشر -

(٣٤) المكتاب لسيدويه - تحقيق عبد السلام هارون - الهيئة
المصرية العامة للكتاب .

(٣٥) الباب في العروض والقافية - الكامل السيد شاهين - ١٣٩٦ هـ .
(٣٦) لسان العرب لابن منظور .

(٣٧) مجالس ثعلب - تحقيق عبد السلام هارون - الطبعة الثانية -
دار المعارف بمصر .

(٣٨) المحصول في شرح الفصول لابن معطي - تأليف ابن إياز -
مخطوطة دار الكتب .

(٣٩) المرتجل في شرح جمل الجرجاني - لابن الحشاش - مخطوطة
مكتبة الأزهر .

- (٤٠) معجم الشعراء للمرزباني — تهذيب المستشرق سالم السكر نسكوى
— نشر مكتبة القدس — القاهرة ١٣٥٤ هـ .
- (٤١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — محمد فؤاد عبد الباقي
— دار مطابع الشعب .
- (٤٢) مغني اللبيب لابن هشام — تحقيق مازك المبارك — دمشق
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- (٤٣) المختضب لأبي العباس المبرد — تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة
— المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — لجنة إحياء التراث العربي .
- (٤٤) المنصف لابن جني على تصريف المازني — تحقيق إبراهيم
مصطفى ، وعبد الله أمين — مطبعة مصطفى البابي الحلبي — الطبعة الأولى .
- (٤٥) همع الهوامع — للسيوطي — دار المعرفة للطباعة والنشر —
بيروت .

بقلم

الدكتور / محمد السيد متولي البغدادي

مدرس بقسم اللغويات

كلية اللغة العربية بدمهور

فرع جامعة الأزهر

الفهرس

رقم الصفحة

الموضوع

- ١ - تصدير
- ٢ - بقلم ا / د / عبد الله ربيع محمود عميد الكلية
- ٣ - كتاب البديع وأثره في الدراسات البلاغية
- ٤ - بقلم د / الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت
- ٥ - جولة ورأى في شعر العلماء
- ٦ - بقلم د / حلمي حسن أبو العز
- ٧ - حتمية التراث لتأصيل المواهب الشعر الجادة
- ٨ - بقلم د / محمد كريم
- ٩ - الودي الجديد دراسة تاريخية حتى بداية العصر الحديث
- ١٠ - د / أحمد الحفناوي
- ١١ - أثر العربية في شعر شوقي
- ١٢ - بقلم د / عبد المنعم محمد يوسف
- ١٣ - أسلوب العدد في القرآن الكريم بين النحو القديم والحديث «استقصاء وتحليل»
- ١٤ - بقلم د / علي أحمد محمد زيد
- ١٥ - دراسة تحليلية لبعض الشواهد العربية
- ١٦ - بقلم د / محمد السيد متولى البغدادي
- ١٧ - الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٦/٦٩١٦ م

